رحيـــــل

علي سيف الرواحي

رحيـــــل

المؤلف: علي سيف الرواحي
(باحث من سلطنة عمان)

الطبعة الأولى: 2014 (مسقط)

الناشر:

بيت الغشام للنشر والترجمة
مؤسسة التكوين للخدمات التعليمية والتطوير
(سلطنة عُمان – مسقط)

للتواصل:
alghshamoman@gmail.com
هاتف: 24398889 - 99260386
ص.ب: 745 الرمز البريدي: 320
www.altakween.com

تصميم الغلاف :
أحلام بنت محمد الرحبي

حقوق النشر محفوظة ولا يحق
إعادة الطباعة أو النسخ
إلا بإذن كتابي من المؤسسة

رقم الإيداع 32 / 2014
رقم الايداع الدولي(ISBN)
978-99969-1-179-8

الرحيل هو كل ما نعرفه عن الفردوس
وكل ما نحتاجه من الجحيم

اميلي دكينسون

الفصل الأول

«عديم الأصل» كانت تلك العبارة عالقة في ذهنه كصداع أبدي لا يزول. خرج من بيت أبي صالح وهو يترنح كالسكران وفي حالة عميقة من عدم التصديق. أمعقول أن يصدر ذلك من أبي صالح وهو الشيخ الورع ذو العلم والتقوى؟ كان مسعود يعتبره مثل أبيه وأكثر. فقبل ثلاثين سنة وفي يوم عاصف رملي أتى مع الغربي غريب يحمل أمتعته في قفّه واحدة يجر من خلفه امرأة متشحة بالسواد كأنها ظله لا يرى وجهها من فرط انحنائه نحو الأرض. لا يُعلم كيف جاء عبيد إلى قرية (الصفو) ولا من أين جاء. ولم يجرؤ أحد على سؤاله بسبب الحزن المحفور في عينيه. كما أنه كان خدوما يساعد الناس بلا مقابل. فلطالما كان يستعان به في حفر القبور وذبح الثيران الهائجة وترميم وبناء الحيطان والأفلاج وجدّ النخيل وتلقيحها. فإنك ترى عبيدا في كل مكان بل ويجزم البعض- مازحا أقوله- أنه رآه في مكانين في الوقت نفسه؛ إذ كان خفيفا وسريعا كالنحلة، قويا كالثور، وطيبا ووديعا كالحمل وصامتا كالقبور التي يحفرها؛ لذا لم يشأ أن يكدره أحدهم بسؤاله عن سبب تركه لقريته وأهله. تلك الهالة من الحزن والأسى حول رأسه جعلت من الجميع يشفق عليه. لكن ليس هنالك ما يمنع الناس من الكلام في الخفاء فحين لا يكون عبيد حاضراً، تبدأ أحاديث الناس تلوكه؛ فمن قائل: إن عبيداً

قد نُفي من قريته بسبب جريمة اقترفها. وهنالك قول أكثره خسة يتعلق بسواد بشرته مفاده أنه ربما يكون عبدا مملوكا فرّ من مالكه. على كل حال فإن الجميع كان يعرف أحوال المنطقة في ذلك الوقت وما تعانيه الكثير من القرى من ضنك العيش لذلك فإن الناس كانوا في ترحال مستمر كأنهم بدو رحّل.

دخل عبيد قرية (الصفو) راجلاً بخطى متهاديه، لا يعرف له وجهة وبدا كأنما ألقي من علٍ. فالحيرة غطته قبل أن يغطيه غبار السفر. رغم أن القرية صغيرة إلا أنه سأل أكثر من واحد عن بيت الشيخ عبدالله المعروف بأبي صالح رغم أن كل ذريته من البنات. وقف عبيد أمام بيت طيني لا يختلف كثيرا عن بقية البيوت الطينية المسقوفة بجريد النخيل. إلا بابه الخشبي تميز بضخامته وزخرفته الجميلة المطعمة بمسامير دائرية من نحاس. طرق الباب بكل رقة كأنما يرتكب ذنبا أو كأنه يعتدي على خصوصية أصحاب البيت. فُتح الباب ببطئ شديد وظهر وجه صغير لفتاة. «السلام عليكم عمي، تفضل» قالت البنت الصغيرة بجرأة واضحة. استغرق عبيد في النظر في ملابس البنت المزركشة لبرهة وجيزة كأنه نسي ما جاء لأجله فبادرها بسؤاله "ما اسمك يا حلوة؟" أخذت البنت تعبث بظفيرتها وتنظر باستغراب نحو الزائر الغريب. "اسمي مريم". حينها فقط تذكر غرضه وقال "أين أباك يا مريم؟". وقبل أن تجيب الفتاة أتى صوت جهوري من داخل البيت "من بالباب يا مريم؟». ولم يمهلها الصوت حتى احتلّ مدخل البيت جسم رجل قصير لكنه ممتلىء تتقدمه كرش تدلّ على ثراء صاحبه

وتنعّمه ورغم فخامة الصوت إلا أن وجه الرجل به سماحة وطيبة تحبب الرائي إليه من أول وهلة. بدا الرجل في أواخر الثلاثين من عمره لكن بشعر عاثَ فيه الشيب رمادا. «أهلا وسهلا تفضل يا أخي، ادخل حياك الله" ألقى كل ذلك في وجه عبيد الذي استقبل الترحاب بابتسامة خجلى وبهمسة لكلمة «أحسنت» عدة مرات. التفت إلى زوجه زينب كأنما يقول لها اتبعيني وهي واقفة لا تستطيع الفكاك من قبضة الخجل. تفطن أبو صالح إلى الحرج الشديد الذي كان يعاني منه الزوجان فقال لمريم "رافقي عمتك إلى حيث أمك".

تبع عبيد الشيخ عبدالله أبا صالح إلى السبلة وهو يقلب الكلام في رأسه. من القدر الذي رآه من بيت الشيخ أبي صالح بدا له أن المنزل متواضع وبسيط. ولم تشذّ قاعة السبلة عن ذلك وإن كانت كبيرة المساحة وذلك أن الشيخ يجتمع بالأعيان والضيوف وأهالي القرية في هذه السبلة. بعد عبارات الترحاب وأخذ العلوم والأخبار كما تقتضي العادة ذهب الشيخ إلى داخل البيت وأتى بماء للشرب وقهوة وبعض التمر في أوعية حديثة ونادرة في ذلك الوقت. اقتصد عبيد في الشرب والأكل رغم إلحاح أبي صالح.

ثم جاءت لحظة الحقيقة والإفصاح عن سبب الزيارة لكن أبا صالح لم يعجّل عبيداً للكلام رغم أنه خمّن سبب مجيئه إلى بيته وقريته. "يا شيخ أنا متوجه لله ثم إليك كي تساعدني" لم يجب أبو صالح بشيء واكتفى بهز رأسه. ثم تابع عبيد "لم أجئك طالبا لحسنة أو صدقة..كل ما أريده هو أن تمنحني أرضاً صغيرة أبني عليها داراً لي ولزوجتي وإن

شاء الله سأدفع لك ثمن الأرض حينما يرزقني الله من فضله». سكت عبيد بعدها وهو يلهث كأنه كان يخطب لساعات. بعد صمت قصير قال أبو صالح وهو يعدل جلسته مقتربا من عبيد "كلّه بأمر الله. اذكر الله أولاً وصلِّ على نبينا الحبيب" استجاب عبيد لذلك فجعل يلهج بالذكر والصلاة ثم تابع أبو صالح كلامه «ابشر بالخير يا أخي ولن تجد لدينا إلا كل ما يطيب خاطرك. ومساعدة الغريب الملهوف هو من أصل ديننا ونحن مأمورون بالقيام به ولكن أنت تعرف الطبيعة الصعبة للأوضاع التي نمر بها حاليا. أنا شخصيا ليس لدي أرض لأعطيك أياها. أبي - رحمه الله- توفي منذ فترة قريبة والأراضي التي أملكها متداخلة مع الأراضي التي تركها. ونحن ورثة كثيرون والورث لم يقسم إلى يومنا هذا بسبب سفر أخي الأكبر إلى البحرين" توقف أبو صالح عن الكلام وأطرق مفكرا. لمس أبو صالح كتف عبيد وقال "لكن لا تبتئس يا أخي الكريم. سأحادث فؤاد التاجر في أمرك فهو يملك أراضي كثيرة ولا أظنه سيضنّ عليك بأرض صغيرة تبني عليها دارك. لكن هيّئ نفسك لأنه قد يطلب منك مقابلا للأرض. أغلب الظن أنه سيطلب منك أن تعمل لديه فمثله ليس في حاجة إلى المال ولا أعتقد أن لديك ما تعطيه إياه". تحركت شفتا عبيد راغبا في الكلام لكنّ الشيخ أبا صالح عاجله بقوله "وحتى تنحلّ هذه المعضلة بإمكانك المكوث هنا في بيتي أنت وزوجتك. والفرج قريب بإذن الله". "لا أدري ما أقول يا شيخ إلا جزاك الله كل خير وعسى الله أن يرزقني وأردّ لك الجميل".

أدخلت زينب إلى غرفة شبه مظلمة تفوح منها رائحة بخور زكية.

ذكّرها ذلك بالأعراس التي كانت تحييها أمها حمدة "الطقاقة" . حين بلغت العاشرة من عمرها صحبتها أمها إلى تلك الأعراس. كانت تعطى دفا لكن دورها لم يكن حاسما بطبيعة الحال بسبب عدم تمرسها. في البداية كانت مشاركتها في الأعراس يثيرها ويملأ خيالها بأحلام فنتازية؛ إذ كانت تتخيل نفسها أنها هي العروس وتغرق في أحلام اليقظة وهي سعيدة في بيتها الجديد. لكن حين وصلت إلى سن الخامسة عشرة توقفت عن الذهاب إلى تلك الأعراس إذ لم تشأ أن تتخذ مهنة أمها. دخلت زينب إلى الغرفة التي كانت تتصدرها امرأة هائلة الحجم بصدر عامر. رغم كل ذلك الشحم واللحم لم تجد المرأة صعوبة في النهوض والسلام على زينب مما أثار استغراب هذه الأخيرة. "أهلا وسهلا أختي الكريمة. تفضلي ولا تستحي". ثديا تلك المرأة غطت النصف الأعلى من جسد زينب الصغير وهي تحتضنها. جلست زينب بجانب المرأة التي قالت كالمستعجلة "اسمي شيخة يا حبيبتي وأنت ما اسمك؟". "زينب" لم تقدر أن ترفع وجهها عن الأرض. «أهلا بك شرفتنا.. لا تستحي أنت في بيتك يا أختي". غالبت زينب حياءها ونظرت في وجه شيخة "شكرا أكرمك الله". التفتت شيخة إلى ابنتها مريم وقالت "القهوة يا مريم". لم يكن في نظرات شيخة ما يريب لكنها لم تستطع أن تخفي شكوكها وكامرأة عُرف عنها بلسانها السليط وفضولها الكبير، كان لابد لها من السؤال "هل أنتما لوحدكما؟". أحست زينب بالانزعاج من نبرة شيخة التحقيقية "نعم... لكني حامل... في شهري السادس على ما أظن". شيخة التي لا يفوق حبها للكلام إلا حبها للأكل، انتهزت تلك الفرصة

لتتحدث عن نفسها. «أتمنى أن يرزقك الله ذرية تكون قرة عينك. أما أنا فلدي أربع بنات لم يرزقني الله بأولاد ولا اعتراض. أصغرهن مريم التي رأيتها ذات السنوات الخمس. بقية بناتي متزوجات بأحسن الرجال. ابنتي الكبرى عائشة متزوجة من أحد أبناء فؤاد التاجر أغنى رجل في منطقتنا كلها وهي تعيش معه في الساحل حيث يرعى فرعا من تجارة أبيه هناك. ابنتي الأخرى مطلوبة في قلب البلاد زوجةً لفقيه وعالم له روّاده ومريدوه. أما رائقة فإنها تعيش في أقصى الشمال زوجة لقاض". لم يُسكِت شيخة عن الكلام إلا مجيء القهوة والتمر. استغربت زينب من محاولة شيخة إثارة إعجابها، أو هكذا بدا لها الأمر، وهي الفتاة المسكينة التي تقلبت في فراش الفقر وذاقت مرارة اليتم وأكلت البؤس والشقاء مع اللقيمات الشحيحة التي كانت تحصل عليها. "أسأل لهن السعادة أجمعين" قالت زينب وهي تلقي برداء الخجل رويدا من على كاهلها. "هذا من طيب أصلك حبيبتي" لا تدري زينب لماذا أحست بنبرة تهكم في جملة شيخة الأخيرة. غالبت الانقباض المفاجئ في صدرها وابتسمت. "ستنامين مع ابنتي مريم في حجرتها الليلة" أعلنت شيخة ذلك من غير أن تعلم ماذا دار بين عبيد وزوجها أبي صالح. "سأتركك الآن لكي ترتاحي قليلا إلى أن يجهز العشاء لكني سأسرق منك مريم كي تساعدني في الطبخ". قبل أن تخرج شيخة من الغرفة قالت زينب بصوت مرتفع كأنها خافت ألا تُسمع "أريد أن أصلي العشاء أولا».

الهدوء الجليل الذي يغشى قرية (الصفو) والنسائم الباردة التي تلهو

في هذه الليلة الصيفية لم يشفعا للنوم بزيارة مآقي عبيد. استلقى على ظهره تحت حصير من الخوص وهو يتأمل من فتحة في الجدار النجوم المتزاحمة في السماء السوداء. النجوم هي هي يا عبيد لكن الأرض تحتك قد تغيرت. في مثل هذه الليالي كان عبيد في وقت مضى يجلس على صخرة ويسهر بنظراته ناحية البحر منتظرا أباه. حين يكون أبو عبيد مبحرا أو على حد قولهم "طالع بحر" يتوجه عبيد بعد صلاة العشاء وبعد أن يكون قد تناول طعامه نحو الشاطئ حيث ترسو السفن الآتية من الهند والبحرين وإفريقيا. يبحث في الأفق عن جسم خشبي هائل أسود اللون بشراع أبيض مصفر قليلا. صوت البحر كأنفاس وحش يلهث والنجوم من فوقه كمصابيح معلقة توشك أن تتهاوى. يتلهف عبيد لسماع القصص التي يحيكها أبوه عن الأماكن التي زارها أكثر من الهدايا التي يجلبها. إخوته يتقاتلون على اللعب والحلوى وهو ينحشر بين أمه وأبيه كي يسمع كلام هذا الأخير. في الغالب الأعم يكون كلام الأب مقتضبا وغير مترابط؛ لكن عبيدا يستعين بخياله ليوسع الحكاية ويعطيها أبعادا عميقة ومتشعبة. وأكثر القصص إثارة هي تلك الآتية من إفريقيا. حيوانات تلك البلاد النائية والغابات الكثيفة هي المادة المحببة لعبيد. يتخيل عبيد أنه بعد أن ترسو السفينة بأبيه ـ هو بحار عادي بها ليس إلا ـ على سواحل إفريقيا يقوم البحارة بإنزال البضائع إلى الميناء تمهيدا لبيعها في السوق بينما يقوم التاجر ومعه قبطان السفينة (النوخذة) بالإشراف على ذلك. تتكون جلّ البضائع هذه من البخور واللبان لكن الغاية الأهم من القدوم إلى إفريقيا هو شراء المنتجات منها كالتوابل

والفواكه والأخشاب وبيعها في الشمال. مع مرور الأيام والأعوام وتتالي الزيارات تَعلّم أبو عبيد لغة أهل تلك البلاد. فكان حين يتجول في الأسواق يستمع إلى الأحاديث المتداولة في السوق وبالتالي يتعرف على أحوال البلد وأخبارها. فتارة يستمع إلى شكوى بعض الشيوخ من ازدياد عدد الداخلين في دين النصارى التي لم تجدي مقاومة القبائل لهذه الظاهرة نفعا فالرجل الأبيض إنسان ذكي ومثابر وذو موارد عديدة. طرقه وأساليبه للدعوة إلى دينه مختلفة ومتنوعة؛ منها استغلال فقر وجهل الأفارقة وإذكاء روح الفرقة والخلاف المتأصل أصلا بين القبائل. ومن تلك الأساليب: إقامتهم لمدارس مجانية تعلم اللغات الأوروبية ومن بينها وعلى وجه الخصوص الإنجليزية والفرنسية مع إغرائهم بالسفر إلى أوروبا من أجل الدراسة أو العمل. لكن مما يُحمد الله عليه أن جلّ المتنصرين هم من غير المسلمين. وكثيرا ما سمع أبو عبيد عن انتشار مرض معين فاتكا بالمئات من البشر أو عن الجفاف الذي يصيب بعض المناطق وما يؤدي إليه من موت للمواشي والمزروعات ولا تغيب أخبار الحروب والغارات بين القبائل عن أي مجلس مرّ به أبو عبيد. ومن طرائف ما تناهى إلى علمه حالات سرقة ونشل تكررت كثيرا، وقف أهالي السوق ورواده عاجزين عن اكتشاف السارق. فما كان من عبيد إلا أن تقمص جسد أبيه وحلّ المعضلة وقبض على العصابة المجرمة. هي عصابة تكونت من شخصين أو لنقل من رجل وقرد. قرود السعدان لها مطلق الحرية في التجول في الأنحاء والأركان، فالكثيرون في هذه البقعة من العالم ينظرون إليها نظرتهم للقطط السائبة أو الكلاب الشاردة.

لفت نظر أبي عبيد بينما كان يقلب في أقمشة زاهية نوى ان يشتري منها هدية لزوجته، قرد ضئيل الحجم يقفز من بسطة إلى أخرى وينسلّ بين الناس والمشترين كنسمة هواء خفيفة لا ترى. لم يلق له بالا بادىء الأمر؛ لأنه كان مشغولا أيضا بالنظر إلى فتاة إفريقية حسناء بدت بملابسها الغالية وحليّها الكثيرة أنها تنتمي إلى عائلة ثرية. كانت معها امرأتان واحدة كبيرة في السن والأخرى تماثلها في العمر، من المؤكد أنهن وصيفاتها أو شيء من هذا القبيل. لم يكن يشتكي أبو عبيد من زوجته الحاليه أي شيء، فهي مثالا للزوجة المطيعة والخدومة لكنه كبقية الرجال من حوله وهو يرى المال يجري من بين يديه يود في أن يتزوج ثانية. كان يسبح في تلك الأفكار وهو ينظر في وجه الحسناء الإفريقية. التفت للحظة ليعتذر للبائع عن عدم رغبته في الشراء وحين عاد للنظر نحو الحسناء رأى جلبة وناس تلتف حول النساء وأكبرهن سنا تصرخ "لص يا جماعة..الحقوا به لقد سرق حافظة نقود سيدتي". سارع أبو عبيد بالاقتراب من قلب الحدث وفي نفس اللحظة مر بجانبه في سرعة خاطفة جسم رمادي وحين التفت ناحيته رأى أنه قرد السعدان الذي رآه آنفا وشيء أسود اللون ملفوف في نهاية ذيله. لم يأخذ الأمر إلا ثواني حتى يستنتج أبو عبيد أن السارق هو القرد. تبعه راكضا كي لا يفقد أثره. اجتاز السهل القاحل الذي يفصل السوق عن دغل موحش وهو يلهث.

توقف لحظة على أعتاب الغابة متهيبا الدخول إليها. قرر أخيرا أن يتجول قليلا على أطرافها على أن يبقي الجهة التي أتى منها في

مرمى بصره. في داخل الغابة اختلف الجو تماما، فالشمس بالكاد ترى، تحجبها الأشجار الشاهقة من التسلل، حتى الأصوات اختلفت. فبعد صمت البرية المطبق، إلا من أنين الصخور الملتهبة على ظهرها، كان للاشجار حسيس يخدر الحواس وأزيز لحشرات لاترى وهمهمات آتية من عوالم مجهولة. توغل أبو عبيد قليلا داخل الغابة تحت تأثير غريب من الأجواء المحيطة به. اعترضته مجموعة من الأحراش الكثيفة قاطعة الطريق أمامه. كان على وشك الرجوع على أعقابه إذ بدأ المكان يظلم فخاف من الضياع في هذه الغابة التي تقطنها حيوانات مفترسة ضارية. لكنه توقف للحظة حين سمع ضحكة مجلجلة ترددت صداها في أرجاء الغابة. استجمع شجاعته ودخل بين الأغصان المتشابكة. من على بعد عدة أمتار أبصر كوخا صغيرا منزويا بين الأشجار. اختبأ وراء جذع شجرة وأخذ يراقب الكوخ بقلب وَجِل. خرج من قلب الظلمة رجل شبه عار بكرش بنّيّة كبيرة وعلى كتفه قرد سعدان. «إذاً هذه هي العصابة» تلفظ عبيد بذلك هامسا كأنه يخاطب أحدا بجانبه وهو في غاية من الإعياء بسبب الحر الشديد. كانت الأرض تهتز تحت قدمي أبي عبيد أو هكذا أمره عقله المتعب أن يشعر. كان الرجل يتجه نحو أبي عبيد وكان الأخير خائفا من منظر السكين الضخمة المربوطة على وسط الرجل. وحين أصبح على بعد خطوات من مخبأ أبي عبيد تعالت صرخات آتية من مكان سحيق. توقف الرجل في مكانه كأنه يُصيخ لما يقال. دار الرجل على نفسه مبتعدا من حيث كان . انتهز أبو عبيد الفرصة وركض هاربا لا يلوي على شيء. وبقوة من داخله مصدرها خوفه الخالص وجد

أبو عبيد نفسه يجتاز الغابة والبر العاري ليصل إلى السوق في سرعة قياسية. كان السوق خاليا تماما من أي مخلوق بشري مما جعله أكثر رعبا من المكان الذي جاء منه أبو عبيد. تراقصت أمامه ظلال على الجدران كأنها الجان واخترقت أستار الليل أصوات عواء ذئاب وضباع. استجمع أبو عبيد شتات نفسه واتجه حيث ترسو سفينته. وجد الطاقم يستعدّ للرحيل ولم يبدِ على أي أحد منهم أنهم افتقدوا وجوده أو أنهم كانوا يبحثون عنه. هرع نحو النوخذة الذي كان يلقي بالأوامر بصوت شقّ حلقه شقا. حين أبصر النوخذة أبا عبيد لم يسأله أين كان أو عما كان يفعله بل أعطاه مهمته كلطمة على وجهه "اذهب وساعد رفاقك في رفع المرساة حالا". تسمر أبو عبيد أمام قبطان السفينة وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة. تلهى عنه النوخذة بإلقاء المزيد من الأوامر وحين انتبه أن أبا عبيد لم يبارح مكانه رمقه بنظرة استغراب نارية. استطاع أبو عبيد بعد جهد جهيد أن يقول بنفس متقطع "هنالك أمرا مهماً أيها النوخذة أريد أخبارك به... لقد عثرت على عصابة الإجرام التي كانت تروّع أهالي السوق.. هناك في الغابة.. لو أنك تأتي معي سأدلك على مكانه لأنه في عصر هذا اليوم سرق..." قاطعه النوخذة بصورة حازمة "ليس لدينا وقت لألعاب أطفال، هيا إلى عملك" ثم تول عنه.

مضى شطر الليل الأول ولم ينم بعد عبيد. النجوم أصبحت أكثر توهجا وأصوات الليل صارت تسمع بوضوح أكبر. تحسس عبيد الحصير من تحته علّه يقطع منه جزءا لكي يخرج بقايا الأكل العالقة بين أسنانه. كان طعام العشاء شهيا على بساطته، متكونا من لحم مجفف كان قد

شوي من قبل ورقائق خبز الرخال ولبن ماعز طازج. لم يذق عبيد ألذ من ذلك اللحم ولا الخبز في حياته واستبشر بذلك خيرا. آلمه ضرس وهو يحاول أن ينظفه من العوالق. تحسس الضرس ثانية بيده وإذا به ينزف. وبصورة عفوية قال أبي. أغمض عينيه، امتلأت رئتاه بهواء ثقيل. أبي. كانت أمه حاملا بطفلها الخامس حين ماتت. ولدت طفلا ميتا ثم فارقت هي الحياة بعده بساعات. تغيرت حال الأب بعد وفاة زوجته فأصبح أكثر صمتا وأعمق حزنا وزاد الأمر سوءا توقفت رحلات التجارة بسبب الاحتلال الأجنبي. فاعتزل الحياة وتقوقع داخل محارة بؤسه. أما إخوته الثلاثة فلم يكونوا أحسن حالا. اثنان منهم ماتوا غرقا بعدما انقلبت بهم السفينة إثر رياح هوجاء وأعاصير، فبعد استتباب الأمن في البحر ودحر العدو الغاشم استأنفت الرحالات البحرية. لكن أباعبيد كان قد كبر في السن وهدّه الحزن على زوجته فدفع باثنين من أبنائه هما الأكبر ليسافرا على أجنحة الرياح الموسمية وعلى كف البحر المتقلب المزاج، لكن البحر لم يكن رؤوفا بهم كما كان معه. والأخ الثالث نمت فيه بذرة العصيان والتمرد وكبرت لتكون شجرة شر، ثمارها مرة ممقوتة، عديمة الظل لا ينتفع بها أحد. فبعد أن عاش جل شبابه عاطلا مثيرا للمشاكل في قريته، انضم إلى عصابة قطاع طرق ورحل معهم إلى الجبال والصحاري ولم يُر بعد ذلك قط. إلا أن عبيدا قد رآه بعد عشرين عاما وهو في طريقه إلى قرية (الصفو).

في يومهم الثالث هو وزينب في القفار، نفد منهم الماء والغذاء. المكان قاحل لا يُرى أثر لأيّة دابة أو إنسان. مشوا حثيثا وشمس الظهيرة

تسلقهم بحرها الجاف الذي يشقق الصخر من قوته. حين أصبحت الشمس لا ترى من حرها وهي تعبث في كبد السماء، وصل الزوجان إلى بئر بدت مهجورة أول الأمر. لكن بعد أن تفحصها عبيد وجد أنها حبلى بالماء. كانت هنالك جرة مكسورة من أعلاها تعمل عمل الدلو. حين شرب الاثنان وارتويا، جلسا تحت سمرة يستظلون بها ويريحون أجسادهما المنهكة. ولم يطل بهما المقام حتى وجدا أمامهما ما يقرب من عشرة رجال، مغبرة جباههم، مكفهرة وجوههم. نهض عبيد محاولا حماية زوجته. كان يعلم عدم جدوى ذلك لكنه لم يرد أن يبدو متخاذلا وجبانا في عين زوجته. بعد مسيرة نصف يوم وصل الزوجان المقيدان إلى مغارة في بطن واد سحيق. خوف عبيد انصب على زوجته الحامل، كان يخاف أن تعامل بسوء ويفقد الجنين، أو ربما يحدث الأسوأ وتغتصب. استغرب عبيد عدم تحدثهم مع بعضهم البعض. منحهم ذلك الصمت مسحة من الحكمة، وساهم شكلهم الرث وثيابهم البالية في ظهورهم بمظهر النساك الزهاد. لكنهم في نهاية الأمر قطاع طرق غير مأموني الجانب. لم يكن أسر هذين الفقيرين من أجل أموالهما أو من أجل طلب فدية، عبيد يعلم ذلك أكثر من غيره، لكن من أجل تجنيد عبيد وسبي زينب لتعمل على خدمة أفراد العصابة. ادخل عبيد في زاوية مظلمة كان يجلس بها ثلاثة رجال. تكلم الجالس في الوسط بصوت مفخم بتكلف "ما اسمك ومن أي قبيلة أنت؟". بدا صوت رجل العصابة مألوفا لدى عبيد. "اسمي عبيد معيوف من الساحل". عند سماعه للاسم قفز الرجل كالبهلوان وقال: "أتوني بنور". أشعل أحدهم

جذع شجرة مرميا على الأرض وأعطوه للرجل. "هذا أنت يا عبيد". حين اقتربت النار من وجه الرجل صرخ عبيد كالملدوغ "حليط...!". أطفأ الرجل النار بسرعة واقتاد عبيدا خارج المغارة.

عندما غمرهم القمر المكتمل بشعاعه الرمادي حضن الرجل عبيدا. لم تكن لهذه المعانقة أيّ معنى للرجلين، فكلاهما لا يحمل للآخر أي ود ولا احترام. ربما فعل حليط ذلك بدافع العادة. «أما تزال حيا يا عبود». لم يجب عبيد فقد عقدت المفاجأة لسانه وسد الاشمئزاز نفسه عن الكلام. "ترى ما أخبار قريتنا الشمطاء وأهلها المجاذيب، ألم يبتلعها البحر بعد؟!». وبصوت أكثر جدية وأقل حدة قال كالمعتذر "وكيف حال أبي؟". "ميت". سكت الاثنان عن الكلام. لم يؤثر هذا الخبر على حليط بطبيعة الحال، لكن وجهه بدا كالحزين . وحين طال الصمت كثيرا قال عبيد بعصبية واضحة «اسمع يا حليط اعلم أننا لا نحب بعضنا ولا شيء يجمعنا الآن غير الاسم، لكني أخوك، إن بقي للأخوة أي معنى عندك، وتلك زوجتي وهي حامل بطفلي الأول. إن شئت فاقتلنا أو أطلق سراحنا، لكن تأكد أنني لن أعمل لديك ما حييت". تجاهل حليط كلام أخيه وقال " ها فلقد تزوجت إذا يا أخي الصغير. ترى ابنة من تلك؟". أخذ عبيد حجرا من على الأرض ورماه ناحية الوادي كأنما ينفس عن غضبه "ألم تسمع ما قلت أيها الأبله؟". وبهدوء شديد أجاب حليط "لقد سمعتك وسأطلق سراحك غدا صباحا... ماذا... أتستكثر على أخيك أن يضيفك ليلة واحدة". لم يجب عبيد ودخل المغارة كأنما هو في بيته.

لم يتوقف نزيف ضرسه، فكلما وضع عبيد أصبعه وجد أثرا للدم. اكتشف أن جزءا من الضرس مكسور. أراد أن يقطع خرقة صغيرة من جلبابه، لكنه خاف أن يزيد ذلك من حالة الجلباب، المهترئ أصلا، سوءا. أبوه كان بكامل أسنانه حين غادر الدنيا، لكنه فقدَ شيئا أكثر أهمية. فقدَ عقله. جاءت بوادر ذلك عندما انضم حليط إلى عصبة قطاع الطرق بعد وفاة أخويه. كان كثيرا ما ينسى أسماء الذين يقابلهم أو يخلط بينهم أو ينكر معرفتهم كلية. وكان يختلط عليه الزمان والمكان. عزا عبيد ذلك إلى كبر أبيه وشيخوخته. أصبح يتكلم بلغة البلدان التي زارها خاصة الهند وبلاد إفريقية. وفي أحيان كثيرة تراه يتكلم مع نفسه بطريقة كأنه يحادث شخصا أمامه. وفي نومه يصرخ زبيدة... زبيدة وهو اسم زوجته المتوفاة. وحينا يهذي ويقول «مانع، خذ بالك من أخيك هزاع فهو متهور ولا يلقي بالاً لنفسه». تقبل عبيد معاناة رعاية أبيه كقدر لا فرار منه، محتسبا الأجر عند ربه. كان الأمر محتملا طالما بقي أبوعبيد في بيته، لكن الأمر تفاقم حين بدأ يخرج من البيت. فحينما يكون عبيد على ظهر أحد قوارب صيد اللؤلؤ، حيث أصبح يعمل بعد أن تعلم الغوص، يعود ليجد أن القرية مقلوبة رأسا على عقب بسبب والده. يهرع للبحث عن أبيه ليجده مربوطا إلى شجرة جنب بيت الشيخ، ربما لأيام؛ بسبب الأعمال المحرجة التي كان يقوم بها. كان يشتكي أهالي القرية من المجنون، كما يدعى الآن، ويلومون عبيدا ويقرعونه كأنه هو السبب في جنون أبيه. فأحيانا يمشي إلى البحر وهو يصرخ: ملعون أيها البحر.. ردهم إلي أيها الظالم..لعنة الله عليك. ولولا أن يتداركه أحدهم كان

ليغرق نفسه. وفي إحدى المرات دخل إلى المسجد وقام بالتبول على المصلين وهو يصرخ: منافقون..منافقون. ودائما ما يردد أهازيج البحارة بصوت عال حين يسمع الآذان. وكان الشيخ سلطان، الذي كان يكره أبا عبيد كرها شديدا لا لشيء إلا لأنه أسود البشرة، يضربه بعصا غليظة حتى يدمى ويربطه إلى شجرة جنب بيته أو داخل زريبة المواشي. وأبو عبيد يسمي الشيخ سلطان بزوج الشيطان ويصرخ به حين يكون مربوطا كفاك مضاجعة للشيطان وتعال فكني. فيأتيه صوت نسائي من داخل بيت الشيخ ينهره، اسكت أيها العبد، الشيطان الذي يركبك. كان يشعر عبيد بالخجل و الأسى من تصرفات أبيه لكنه لم يعجبه بأي حال من الأحوال ما يفعله الشيخ سلطان به. حتى وصل الأمر أن ذهب واشتكى منه للوالي متحملا مشقة مسير يومين. وحين علم الشيخ بذلك ذهب مع عصبة من رجاله وضربوا الابن وأبيه. لم يكتفِ الشيخ سلطان بذلك بل قطع رزق عبيد بأن حرص ألا يدعه أيُّ صاحب مركب بالعمل لديه. وقبل أن يموت أبو عبيد بأيام، قام في منتصف الليل وأتى ابنه وهو نائم وقام بضربه بجذع شجرة مكسور وهو يصرخ: ارحل أيها اللص، ماذا تفعل في بيتي. ثم يبدأ في الهذيان ويقول: لماذا بقيت أنت حيا لماذا؟، اذهب الى ربك وأتني بزبيدة. لم يقاوم عبيد ولم يفعل شيئا ليمنع أباه من ضربه. أحس أنه يستحق هذا الضرب. لماذا بقي هو حيا؟ لماذا كان عليه أن يكون أصغر الأبناء ويبقى في البيت؟ أحسّ أن اللوم يقع عليه على كل المآسي التي حلت بعائلته ولأنه، وكانت هذه أكثر إلحاحا، تمنى موت أبيه في أكثر من مناسبة.

في الليلة التالية لموت معيوف زار عبيد ثلاثة رهط من الرجال ومعهم فتاة. عرف عبيد من بينهم الشيخ عبدالقادر المطوع أكثر الرجال إحسانا في هذه القرية والذي يحترمه جميع الأهالي. لكنه لم يتعرف إلى الرجلين ولا إلى المرأة. "كيف حالك ابني عبيد؟" . لم يكن في بيت عبيد أي نور "الحمد لله شيخنا الجليل شرفتنا بزيارتك". لم ينطق الرجلان بأي حرف. "يا ولدي، أوصيك أولا بالتقوى والصبر واعلم أن الله يمتحن عبده بالشدائد والمحن، فإن صبر فله العزة في الدنيا والآخرة، وإن كفر واستسلم لليأس تولاه الشيطان فهو في خسران مبين". «ونعم بالله» أجاب عبيد وهو مطرق الرأس. تسلل القمر بضوء خافت ليضيف إلى الموقف مهابة، وجاء صوت تكسر أمواج البحر الهائجة لتعلن أن الزمن في دوران مستمر. "لا أطيل عليك يا ابني والوقت على أية حال يداهمنا، جئتك بأمتي زينب لكي أزوجك أياها" رفع عبيد رأسه فاغرا فاهه وسرق نظرة إلى الفتاة لكنه لم يتبين وجهها. تابع الشيخ كلامه "لقد خدمت أمها- رحمة الله عليها- زوجتي كثيرا وربت كل أولادي حتى كبروا. هي يتيمة فقيرة ليس لديها أهل. ودعنا لا نتجاهل الوقائع فلن يرضى أحدهم أن يزوجك بسبب..." توقف الشيخ لبرهة وأشاح بوجهه بعيدا عن عبيد "اللهم العن الشيطان.. بسبب أصلك ولونك. ثم أن الشيخ سلطان يدبر لك أمرا بعد أن أمر الوالي بأخذ المشيخة منه. إذ لم تكن أنت الوحيد الذي تقدم بشكوى ضده لكنه وهو الجبان الخسيس ينوي الانتقام من الضعفاء أمثالك. لذلك أريد منك الرحيل غدا صباحا. وخذ زوجتك، إن قبلتها، معك لتعينك على ما أنت عليه".

أجهش عبيد في البكاء لأول مرة بعد وفاة أبيه وقال "ولكن إلى أين أذهب يا شيخ؟". ربت الشيخ على كتف عبيد وقال "سيهديك الله، لا تخف وتوكل عليه". ثم تمت مراسم عقد القران بسرعة وأعطى الشيخ عبدالقادر عبيدا شيئا من المال. حين اختلى عبيد بزوجته كشف عن وجهها الذي لفه الخجل تحت الخمار. نظر في وجهها مليا ثم أجهش بالبكاء ثانية إذ كانت لديها عينا أمه.

أتى النوم عبيدا حين سمع آذان الفجر بعد أن أقعده التعب الشديد الذي استوطن عظامه عن القيام. سمع الشيخ يناديه للصلاة وقبل أن يرد أخذته سنة من النوم في دوامتها العميقة. في طريق خروجه نحو المسجد نادى أبو صالح عبيدا للمرة الأخيرة، لكن الأخير كان مدفونا تحت جبل النوم الثقيل. رأى عبيد النيران تتبعه وهو حامل أبيه بين يديه وهو يصرخ هو ليس مجنونا بل أنتم المجانين. صحا عبيد على وقع حبوب تطحن تمهيدا لعجنها وصوت يناديه قم يا عبيد إنه الضحى. كانت زوجته تناديه من خلف الباب كأنه رجل غريب عنها. استوى عبيد على رجليه وسأل بصوت ناعس "لماذا تركتني نائما حتى هذا الوقت.. أين ذهب الشيخ أبو صالح؟". اقترب منها حتى أصبح قريبا من صحن البيت بجانبها. "تقول شيخة زوجته إنه سيأتي عما قليل ليأخذك لتقابلا التاجر فؤادا، اذهب واغتسل، وضعت لك جحلة خلف الباب، ثم تعال لتأكل فطورك». اشتهى عبيد أن يحضن زوجته في ذلك الوقت، لكن ذلك يخالف أصول الضيافة، فليس هما في بيتهما ليفعلا ما يحلو لهما.

لم يمضِ وقت طويل حتى عاد أبو صالح. رافقتهم الحرارة الهادئة إلى

بيت كبير في نهاية القرية. دخل الرجلان إلى صالة جلوس هائلة الحجم بفوانيس ملونة معلقة على كل ركن. المطارح المزركشة والوسائد المطرزة ملئت أسفل الجدران وكانت الأرض مفروشة على الأقل بأربعة أنواع من السجاد الفاخر. بالإضافة إلى ذلك زينت الجدرانَ بنادق وسيوف مطعمة بالفضة والعاج. الصالة ساحرة يجللها ضوء الشمس الآتي من النوافذ كأنها قدت من قصص ألف ليلة وليلة التي حكى عنها والده في فترة من الفترات. إذ أتى وقت انضم فيه إلى المركب «سكتون» تاجر عجيب الشخصية محب للترحال. وهذا التاجر، واسمه آدم، لا يحمل بضائع كثيرة ولا يشتري كثيرا ايضا من الأماكن التي يزورها. وعندما سئل عن ذلك قال: إن السبب الرئيسي لترحاله هو السياحة في العالم وتعرف ثقافات الأمم المتنوعة والنهل من معارفها، وهو على كل حال قد ورث مالا كثيرا فالتجارة عنده نوع من التسلية تضاف إلى السفر. في أكثر الأحيان حين تطأ قدماه أرضا جديدة فإنه لا يعود معهم حين ينتهوا من أمورهم التي جاءوا من أجلها، بل يبقى يجوب تلك البلاد ويعود معهم حين يرجعون في الموسم التالي. والتاجر آدم لا يعلم من أين أصله، هو في منتصف عمره غير متزوج. يتحدث بلهجة أهل البلد لكنه يطعم كلامه بكلمات فصحى. هو طلق المحيا مبتسم الوجه حين يكون حوله أحدهم، وساهي الفكر مُطرِقه يبدو كالسرحان عندما يكون بمفرده. ويقضي جلّ وقته في القراءة على ظهر المركب. فلا تلقاه إلا ويقرأ في كتاب من تلك الكتب الضخمة المصفرة الأوراق. في أحد أيام الخريف الباردة والسماء متدثرة بغيوم كثيفة في سعادة رمادية، كان التاجر آدم

جالسا على صندوقه الخشبي الذي يحمل فيه أمتعته وهو يقرأ في كتاب. أثار ذلك الكتاب فضول أبي عبيد إذ كان مزخرفا برسوم وبه صور لأناس وحيوانات وتبدو أسارير التاجر منفرجة على غير العادة وهو يقرأ. اقترب أبو عبيد ببطء وحذر، إذ أراد أن يعلم التاجر بوجوده من غير أن يزعجه. لباس التاجر بسيط، جلباب أبيض وعمامة بيضاء عادية، وأنيق من غير تكلف وبلا دلالة على ثراء صاحبه. رفع التاجر رأسه حين أصبح أبوعبيد على مقربة منه وأطلق ابتسامة كبيرة أحسها أبو عبيد صادقة. "أهلا وسهلا بك يا أخي... أنت معيوف أليس كذلك؟". هز أبو عبيد رأسه بنعم ثم قال "أستميحك عذرا سيدي التاجر على تطفلي..." رفع التاجر يده وقال "ليس هنالك أي إزعاج، ثم نادني آدم فنحن إخوة ولا فرق بيننا". تزحزح التاجر آدم قليلا مفسحا مكانا لأبي عبيد كي يجلس بجانبه. فهم أبو عبيد مراد التاجر وجلس من دون أن يدعى لذلك. "أنت تقرأ في هذه الكتب كثيرا... سيدي... آدم". وضع التاجر الكتاب جانبا ونظر إلى البحر كأنه يبحث عن إجابة هنالك، ليس لتساؤل أبي عبيد فقط، بل أيضا لجميع الأسئلة التي تؤرقه "إنها أفضل طريقة لتمضية الوقت، ثم إن قراءة الكتب هو نوع من الترحال أيضا". بدت الدهشة والاستغراب على وجه أبي عبيد. فالكتب التي عرفها معيوف هي الكتب الدينية فقط. في صغره كان يمر على صبية متحلقون حول المطوع في باحة المسجد وهم يرددون خلفه كلمات كانت لها وقع جميل في نفس معيوف. حين عاد للبيت سأل أمه عما رآه. "إنهم يدرسون القرآن يا ابني". "ألا أستطيع الذهاب أنا أيضا يا أمي؟". تنهدت الأم ثم قالت

"لا تقلق يا بني سأعلمك مما أحفظه". "الكتاب يا معيوف أفضل رفيق للإنسان، فهو مصدر للعلم والمعرفة وأداة للأنس والمؤانسه. لا يقوم من غيره عالم ولا يمله طالب للفكر. وأفضل تلك الكتب هي التي تخبرك عن الأمم البعيدة وعن البلدان الغريبة وعن الشعوب المختلفة. القراءة هي رقي للفكر وزاد للمعرفة، حياتك بعد القراءة تتجدد وعزيمتك تنهض وأحلامك تصبح حقيقة". لم يسبق لأبي عبيد أن حادثه أحدهم بهذه الطريقة. شعر فجأة أنه من أصحاب الفكر والفلاسفه الذين يسمع عنهم. أحس بزهو لم يدم إلا للحظات، إذ تذكر أبو عبيد نقصه وطأطأ رأسه ثم قال "لكن الكتب هي لأولئك الذين يقرأون، وأنا جاهل لا أعرف القراءة ولا الكتابة". أصبحت ملامح التاجر جدية وأجاب بصوت عميق "لا تقل عن نفسك جاهل أخي معيوف، هنالك طرق أخرى للمعرفة غير الكتب وعلى كل حال فليس هنالك سن محددة لتعلم القراءة والكتابة. ثم إنني أؤمن أن الحكمة تأتي من خبرات الحياة". أحس أبو عبيد أنه أمام شخص غير عادي وزاد ذلك من إعجابه في التاجر آدم وزاد كذلك احترامه له. تناول التاجر الكتاب ثانية وقال في لهجة مرحة "ما رأيك أن أقرأ لك كل يوم من هذا الكتاب، إنه كتاب ألف ليلة وليلة. لا أدري إن كنت سمعت عنه. إنه يحوي الكثير من العبر والحكم، كما إنه شائق وممتع لما فيه من قصص غريبة وأحداث عجيبة". لم يملك أبوعبيد إلا أن يوافق بعد أن زاده كلام التاجر فضولا فوق فضوله.

بعد ذلك أمسوا كل ليلة وبعد أن يأوي الجميع إلى نومهم، يجلسان في زاوية في مقدمة المركب ويقرأ التاجر آدم من قصص ألف ليلة

وليلة مستعينا أكثر الأحيان بضوء القمر أو بقنديل زيت وأحيانا تنيرهم شمعة صغيرة من تلك التي يجلبها التاجر من بلاد الفرنجة. هذه الأجواء أضافت إلى القصص التي يقرأه التاجر تشويقا وإثارة، وزادت من غرائبها وسحرها بُعدا آخر. وهكذا عرف أبوعبيد عن الجان والعفاريت. وتعرف على قصص العشاق والمكائد التي تحاك ضدهم حسدا وعدوانا. وعرف عن الخليفة هارون الرشيد ووزيره وسيافه وسمع عن بغداد وعلاء الدين وأكثر القصص التي شدته هي قصص السندباد؛ لأنه كان بحارة مثله. لم يشكك أبو عبيد في مصداقية هذه القصص، فقد كان يسمع قصص شبيهة بها تحدث على أرض الواقع في بلاده، خاصة تلك المتعلقة بالجان والعفاريت. وحين يعود إلى أسرته يلتصق به كالعادة ابنه عبيد ثم يحكي أبوعبيد عن هذه القصص، مضيفا إليها أو منقصا منها الشيء الكثير، وربما يحرفها تماما خالطا بينها بقدر ما تسعفه ذاكرته ومخيلته.

سبلة التاجر فؤاد تشبه تلك القصور التي سمع عنها عبيد من أبيه. هل يا ترى لدى هذا التاجر أي اتصال بالجن؟ هل وجد فانوسا فيه عفريت وهذا العفريت يحقق للتاجر فؤاد كل ما يتمنى؟ انتشل عبيد من أحلام يقظته حين لكزه الشيخ أبو صالح أن انتبه. لم ينطق عبيد بحرف من شدة خجله وحرجه، وزاده فخامة المكان ارتباك وحياء. إثر ذلك قال الشيخ أبو صالح كأنما ينقذ الموقف "لقد جئناك أخي فؤاد طالبين من الله ثم منك العون والمساعدة". رائحة البخور الزكية والغالية الثمن صرفت ذهن أبي صالح للحظة ثم عاد للقول "هذا عبيد بن معيوف من الساحل، تقلب به الزمان ولعبت به الظروف وألقت به

إلى قريتنا وهو فقير مسكين لا يملك شيئا، فواجبنا أن نساعده ليقف على رجليه ويتمكن من طلب الرزق الحلال ولنا الأجر من الله تعالى. وهو كما ترى رجل في عنفوان شبابه سيكون لنا عونا بإذن الله". أمسك التاجر فؤاد بلحيته البيضاء المشذبة بعناية وأخذ يمسدها مفكرا "ماذا كنت تعمل قبل هذا يا عبيد؟" سأل التاجر فؤاد ويده لاتزال في لحيته. شعر عبيد بأن سكينا شطرت فؤاده إلى نصفين وهو يتذكر الأحداث الأليمة للأشهر الماضية، تجاوز تلك المرحلة إلى ما قبلها ثم أجاب "كنت غواص لؤلؤ يا سيدي". «لن ينفعنا ذلك هنا، ربما سأجعلك تعمل في إحدى مزارعي، ترعى نخيلي وبقية الزرع بالإضافة إلى أعمال أخرى كلما اقتضت الحاجة». شكر عبيد التاجر وأثنى عليه لكن بقي موضوع السكن وهو لا يستطيع الخلاص من قبضة الحياء رغم أن التاجر فؤادا حلو المعشر طيب السريرة كما يستدل من كلامه. لذا نظر عبيد إلى الشيخ أبي صالح مرة أخرى يستنجده للمساعدة. فـهِم هذا الأخير ما دار في خلد عبيد؛ إذ كانت قضية أمر المسكن هي الحاجة الألح. تنحنح أبو صالح بعنف وبصوت عال حتى خاف عبيد أن يزعج ذلك التاجر فؤاد. لكن مما لا يعلمه عبيد أن هذين الشخصين رغم فارق السن بينهما هما من أعز الأصدقاء، لكن الكلفة الرسمية التي تكون بينهما حينما يكونان في حضرة أحدهما توحي بأن بينهما عداوة أو على الأقل لا يحملان ودا لبعضهما البعض. لكن الأمر يختلف تماما حينما يكونان بمفردهما أو عندما يتشاركان في المناسبات السعيدة كالأعياد والأعراس أو عندما يمارسان هوايتهما المفضلة، الصيد بالصقور. "هنالك

أمر آخر أخي فؤاد...» طرق باب السبلة معلنة وصول القهوة والتمر وبعض الفواكه. نظر عبيد إلى الفواكه بنهم شديد فهو لم يأكل فاكهة منذ أمد بعيد، وآخر فاكهة أكلها كانت تينا حيث...كان. وهاهو الآن يرى هضبات من الرمان تستند عليها حبات كبيرة من المانجو على صحن خزفي ناصع البياض وأكملت اللوحة اللذيذة جوافة محلية مشوبة بحمرة كخدود العروس في ليلة دخلتها. لم يتأثر الشيخ أبو صالح لمرأى ذلك الكرنفال الشهي وتابع مبتغاه «ألا أجد عندك أرضا صغيرة يبني عليها عبيد بيتا له ولعائلته؟". فكر عبيد بزينب وتمنى أن تكون بجانبه تأكل من هذه الفواكه، وتساءل هل سيأتي اليوم الذي يستطيع توفير مثل هذه الرفاهية لعائلته؟. انتبه لقول التاجر فؤاد «لا أعتقد أن لدي مثل هذه الأرض. أنت تعلم يا أبا صالح أن معظم أراضيي القريبة مزروعة وباقي الأراضي في أماكن بعيدة. ولكن... هنالك حجرة صغيرة ملحقة بمخزن الغلال ربما تفي بالغرض".

أرادت زينب أن تساعد شيخة وابنتها مريم في أعمال المنزل، فلم تطق الجلوس هكذا بلا عمل. لكنهما لم تدعاها تقوم بأي شيء. ذكرتها مريم بطفولتها، فقد تعودت هي كذلك أن تعمل في سن مبكرة. لكن عملها كان شاقا، فكانت بعد أن تنهي تنظيف البيت تذهب لحلب البقرة وإطعامها. كما كانت ترعى المواشي حين يكون الراعي الصبي غائبا. لم تعرف زينب أباها أبدا. وحين تسأل أمها عنه كانت تقول إنه مسافر. لكن قبل وفاة الأم أخبرت ابنتها أنهما أمتان مملوكتان وهي في حقيقة الأمر لا تعلم من أباها. قالت أم زينب ذلك باعتيادية أدهشت زينب؛

لأن تلك الحقيقة أشعرت زينب بالخزي والعار. في مرض أم زينب الأخير قبل موتها أخبرت ابنتها بقصتها. هي عائلة تنحدر من سلالة طويلة من الرقيق، لا تعلم أم زينب كيف انتهت عائلتهم كعبيد يتوارثون. لكنها سمعت أن أفراد من قبيلتها أسروا في حرب قبلية في القرن الإفريقي، كانوا في طريقهم إلى قلب الدولة العثمانية. وبسبب القلاقل وكثرة الصراعات والحروب في ذلك الوقت، فإن سفينتهم أسرت من قبل قراصنة وتم بيعهم في شبه الجزيرة العربية لعوائل ثرية و لبعض قصور السلاطين. «أخذت يا بنتي وأنا طفلة صغيرة... حرموني حنان الأم وعطف الأب..“ توقفت الأم لكي تكح بشراسة بينما كان عنكبوت يمشي على الحائط الطيني لحجرتهم البائسة. ”طفولتي كانت غاية في الصعوبة. لم أجد ما آكله إلا الفتات بينما الولائم من حولي تقام. ولم يكن هناك من يسعفني حين أمرض. حين كبرت وصرت يافعة مكتملة النمو بدأت أعمل في بيت كبير لشيخ ذي أموال كثيرة، متزوج من ثلاث نساء ولديه العشرات من الصبية والبنات. رغم ذلك كان هذا الرجل الفاسق عبدا لشهوته. لطالما رأيته يتحرش بصبية ويساومهم على الفاحشة بالمال. وكانت نظراته الشبقة تسلقني كلما رآني. وفي إحدى الليالي هاجمني الوحش في حجرتي مستغلا ذهاب زوجاته إلى أحد الأعراس في القرية وهتك عرضي. وحين قضى وطره ولسبب لا أعلمه لطمني بقوة مما أفقدني وعيي. بعدها بيومين أو ثلاث عاد أكبر أبناء هذا الفاجر من رحلة تجارية خاسرة كما فهمت من المشاجرة العنيفة بين الابن وأباه التي كادت تفضي إلى تشابك بالأيدي لولا تدخل أم هذا

الشاب.. وليتها لم تفعل. كنت أنا في حالة نفسية منهارة وكنت أفكر جديا في قتل نفسي. وفي فجر اليوم التالي وبينما كنت أطعم البقرة في زريبتها المنعزلة، دخل علي ابن الفاجر وهو راجع من سهرة وفي حالة غير طبيعية. كانت تفوح منه رائحة كريهة وكان يترنح بشدة. علمت بعدها أنهم كانوا يتعاطون خمرا مستخرجا من كروم العنب المصنوع محليا. رآني الفاسق ابن الفاسق وأنا أحلب وجزء من ساقي مكشوف. أظنه في البداية أخطأ المكان بسبب حالته، لكن حينما رآني استيقظ بداخله وحش من نوع ثان وركبته شياطين فوق الشياطين الموجودة أصلا فيه. اندفع ناحيتي من غير أن يقول شيئا وطرحني أرضا. قام برفع ثوبي بيد ويده الآخر كممت فمي. كان الحيوان قويا جدا فبحركة واحدة مزق سروالي الداخلي ثم رفع ثوبه وقام باغتصابي. حينما انتهى بقيت في مكاني كالمشلولة لا أستطيع الحراك. وقبل أن يخرج من الزريبة نظر إلي باشمئزاز وقال "إن أعلمت أحدا ذبحتك". استندت برجل البقرة كي استوي جالسة ثم أخذت في البكاء قرابة الساعة. وكأنها علمت بما حل بي أخذت البقرة في لحسي بلسانها الضخم كما تفعل بصغراها بكل حنان. أحسست بالتعب والغثيان ونمت في موقعي ذاك. استفقت وقت الضحى وهرعت إلى البيت. صادفتني أم ذلك الشاب وأنا في طريقي لطحن بعض الحبوب "أين كنت كل هذا الوقت يا شمطاء؟" سألتني وهي تنظر إلي بكل تقزز بسبب مظهري المغبر. بلعت شهقتي كي لا أبكي ثم قلت "لقد غلبني النوم وأنا أطعم البقرة". في العادة كانت ستضربني لكن بسبب الغبار الذي يغطيني اكتفت بنهري

"اعذريني يا أميرة يا ابنة الأصايل، أتظنين أننا نأوي الحفاة المشردين هنا. ولماذا غفوت، ألم يكفك نوم الليل كله أم كنت تواعدين عشيق لك يا منحطة؟ اغربي عن وجهي هذه اللحظة". ولم يمضِ وقت طويل حتى طرد الشيخ السافل ابنه المنحل لسبب أجهله. لم أكن أهتم بما يجري من حولي. كنت أعيش أنا وهمي في عالم منعزل يسده الحزن واللامبالاة. صرت أؤدي عملي كالبهيمة وحسب في صمت أشد من صمتي السابق. بعد تلك الأحداث بثلاثة أشهر اكتشفت أني حامل. لم أكن خائفة من شيء، لا الفضيحة ولا الضرب ولا حتى الموت. كنت أعيش حياتي كالحيوان، حتى الأكل كنت أعافه في كثير من الأحيان. كنت أريد قتل نفسي ولكن لسبب ما لم أستطع، ولم يكن ذلك بوازع ديني أيضا لقد نسيت ديني وربي. لم أكن أعرف كيف أصلي ولم يسألني أحد لماذا لا أصلي. ولكنه القدر الذي لم اكن أؤمن به منعني من الانتحار؛ إذ كان في جعبته شيء آخر لي. لم أكن لأعرف أني حامل لو لم أشهد حالات الحمل المتكرر لتلك النسوة الثلاث. عرفت الإشارات والدلائل وخبرتها. كنت قد عقدت العزم على ترك الأمور للأيام والأقدار واضعة الموت نصب عيني كأحد الخيارات بل كان الموت أبرزها. ولكن واتتني قوة لا أعلم مصدرها وأحسست بعزة نفس وكبرياء تتصاعد من جوفي كبركان خامد ثار فجأة. قررت أنني لن أعاني بمفردي ورغبت أن يشاركني فيه مسبب شقائي. تعمدت أن أهمل عملي في ذلك اليوم كي أحدث أعلى ضجة ممكنة، فلم أملأ الجرار من الفلج، ولم أسقي البقرة وأطعمها، ولم أطحن حبوب خبز ذلك اليوم ولم أمسح صحن البيت من الغبار.

فتجاهلت الصراخ واللعنات الموجهة لي، وتقبل وجهي اللكمات والصفعات بصدر رحب. فتصايحت جميع النسوة بأنني قد جننت. جاءني الشيخ الفاسق قرب صلاة الظهر ودخل علي بوجه غاضب والشياطين متعلقة بأهداب لحيته ناويا بي شرا. "ما الأمر يا عاهرة، ماذا حل بك اليوم؟" لم أقل شيئا بل نهضت من مقعدي ونظرت في وجهه مباشرة بعيون متحدية لأول مرة منذ مجيئي إلى ذلك البيت. تراجع هو قليلا للوراء متعجبا من تصرفي. نظراتي المجنونة أوقعت شيئا في نفسه. لكنه تمالك نفسه وقال "أأصابك الخرس أيضا أيتها المجنونة". ورغم القوة الطارئة التي حلت في روحي أجبت بكلمتين فقط "أنا حامل". أصابه هذا الخبر بارتباك شديد، أخذ يذرع الغرفة ويجلس أرضا ثم يقوم وهو يلعن ويسب. نظر إلي بوجه أحمر وهجم علي وهو يصرخ "لعنة الله على يومك يا عاهرة" وأخذ يضربني مستهدفا بطني في أكثر الأحيان، راغبا أغلب الظن إسقاط الجنين. لكن ضرباته كانت خفيفة وواهية إذ كان يرجف بشدة كأنه بردان. حين تعب من الضرب جلس على الأرض يلهث والعرق يتصبب منه وأخذ يفكر. الناظر إلينا كان سيظن أنني أنا التي كنت أضربه وليس العكس. قام وهو يقول بصوت متهدج "ليس لك مقام هاهنا، سوف ترحلين". الأحداث التي أعقبت ذلك أثارت دهشتي. أصبح العاهر يحادثني بكل احترام وتأدب وكانت لهجته تنم عن اعتذار. كما أوصى زوجاته بعدم تكليفي بأي عمل. ولأول مرة أراه يرفع صوته على زوجته الأولى التي يخشاها حين حاولت الاعتراض. جاءني خاطر مجنون بأنه يريد اتخاذي زوجة رابعة له. أسعدني ذلك

الخاطر قليلا ليس لأنني كنت أتمنى الزواج، ولكن لأنه يخول لي الانتقام من زوجته التي كانت تذلني وتهينني بسبب وبدون سبب. كنت أريد أن أرى الانكسار في عينيها؛ لأن هذا الزواج سيكون بمثابة إهانة كبرى لها بسبب كرهها الشديد لي. لكن الأمر كان عكس ذلك، إذ جاءني الشيخ المتهتك في إحدى الليالي وقال بلا مقدمات "جهزي نفسك.. ستغادرين فجرا.. لقد بعتك". إنتابني فرح شديد، ثم حزن عميق. تناوبت على البكاء والضحك طوال الليل. جميع من في البيت صادقوا على جنوني، وكانوا مرتاحين للتخلص مني. لم أنم ليلتي تلك، أسهرني تناقض مشاعري. في فجر اليوم التالي، لم يكن أحد من العائلة مستيقظا سوى الشيخ وزوجته الأولى. شيعتني هذه الأخيرة حتى باب المنزل وأحسست أنها تريد توديعي، ولكن هل من المعقول أنها لا تريد فراقي؟ أنا لم أقابل كرهها وإساءتها لي بأي شيء ولا حتى بكلمة. أم ربما ابتعادي عن البيت سيلقي بأعبائه على تلكم الزوجات ومنها هذه المرأة؟ فأنا، والحق يقال، كنت أقوم تقريبا بكل شيء في البيت. على أيّن، حتى في ذلك الموقف لم تتخلَ هذه المرأة عن صلفها وتكبرها. لكنها لم تنطق بحرف، فبادرتها قبل أن أخرج من الباب بقولي "شكرا يا سيدتي على كل شيء... وسامحيني إن بدر مني ما يضايقك". كنت أرى أن عينيها اتسعت دهشة وكانت على وشك أن تقول شيئا لكني خرجت مسرعة. رغم أن يومي دائما يبدأ عند الفجر، إلا أن فجر ذلك اليوم كان مختلفا. كانت السماء تجللها الزرقة المبقعة بغيوم ناعسة. والنسائم الباردة منعشة حاملة عبير الزهور من الحقول القريبة. لم يسمع أي

صوت سوى غناء العصافير، طبيعة نقية لا تعرف حقد الانسان وضعفه. كان ينتظرني أمام البيت شاب ومعه بغل صغير. اقترب مني الشيخ وقال «سيأخذك أحمد إلى مالكك الجديد". توقف الشيخ لينهل من عبير الطبيعة العذب، فحتى الوحوش لا تستطيع الهرب من قبضة الطبيعة الخلابة. "ولا حاجة لي لكي أنبهك بعدم الهرب.. فإن الذئاب ستكون بانتظارك على أية حال، أو سيهلكك الجوع والعطش في قلب البرية". لا أدري لماذا أحسست أنه عُني بالذئاب الذئاب البشرية وليست الحيوانات. ذهب إلى الشاب وقال له شيئا لم اسمعه. من ضحكة الشاب المائعة عرفت أنه أحد الصبية الذين كان يجامعهم الشيخ الفاجر وقد شهدت هذا الفعل الفاحش بنفسي في إحدى المرات. ركبت فوق البغل وساقني الشاب إلى موطني الجديد. توقفنا في وقت الظهيرة عند بئر ماء وشربنا منها. قال لي الشاب إن المكان ليس ببعيد لكن من الأفضل أن نستريح قليلا. من المؤكد أنه لاحظ نعاسي وكيف كان رأسي يسقط على صدري سارقا لحظات من النوم غير المريح. فتح لفافة من قماش كانت معه وأعطاني قليلا من السمك المجفف. تعمد لمس يدي وهو يناولني الطعام وحين سحبتها بسرعة رأيت نظرات شهوانية تلتمع في عينيه الحيوانيتين. غفوت مستندة على جدار البئر ورحت في نوم عميق. راودتني أحلام غير واضحة وكنت أسمع فيها أنين ولهاث كلهاث الكلب وثقل في صدري كأن جدارا كان جاثما علي. فتحت عيناي وإذا بذلك المائع فوقي يغتصبني. صرخت وحاولت الإفلات لكنه انتهى بسرعة وهو يلهث كالكلب. رفعت سروالي

وأنا أبكي وسمعت المخنث يقول "هذه هدية الوداع من الشيخ سليمان". وفعلا وصلنا إلى قرية قرب البحر بعد فترة قصيرة. أدهشني اتساع البحر وهو نائم في عصر ذلك اليوم الهادئ. اقتادني المائع إلى بيت طيني كبير. فتح الباب رجل في منتصف عمره. تكلم الرجلان قليلا ثم ذهب الشاب وهو يبتسم بخبث. "ادخلي يا ابنتي، ماذا بك هل أنت مريضة؟". لقد كان مظهري المزري يوحي بذلك. هززت رأسي نافية. "لا تخافي يا ابنتي، أنا اسمي عبدالقادر وسآخذك إلى زوجتي عائشة لكي ترتاحي قليلا". دخلت على سيدة فاضلة لها نفس مهابة زوجها. كان الشيخ عبدالقادر عالما وفقيها وهو إمام مسجد هذه القرية. كان رجلا فاضلا وزوجته كذلك وهنالك يمكنني القول إنني حظيت بفرصة ثانية في الحياة. لم أشعر أنني أمة مسبية معهما بل عاملاني كابنتة لهما. "أهلا بك يا ابنتي، ما اسمك؟". لقد أثلجني صوت المرأة الحاني وأخذ فكري مما كنت فيه. "حمدة". "اسمعيني يا حمدة صحيح أن بيتنا كبير لكن هنالك جارية أخرى ستساعدك في أعمال البيت. لقد ابتلاني الله تعالى بمرض لا يبرأ ولكن لا اعتراض، وزوجي يصر على منحي عناية زائدة. لدي ابنان وبنت. وإن شاء الله ستجدين في هذا البيت سكنا لك". على يد تلك السيدة الكريمة تعلمت الصلاة وأمور الدين وشعرت بالروح ترجع إلى جسدي. حين انتفخ بطني وصار حملي واضحا للعيان، لم يسألاني عن سبب حملي أو من كان الفاعل، ولم تختلف معاملتهما لي أيضا. حتى وضعتك يا ابنتي. بعد عشر سنوات ماتت السيدة عائشة وكبر صغارها الذين ربيتهم وأحببتهم وتزوجت الأمة الأخرى وغادرت

البيت. بنى لي الشيخ عبدالقادر حجرتنا هذه؛ إذ لم يرد أن نبقى تحت سقف واحد بمفردنا رغم أنني ملك يمينه. لم تتوقف مساعدة الشيخ لي ولكنها لم تكن كافية و كانت تأتي في فترات متباعدة. ولم أكن ألومه على ذلك، فلم يكن الشيخ غنيا ولم يكن لديه مصدر رزق ثابت وهو لم يكن ملزما بالإنفاق علي خاصة وأني لا أعمل لديه. لذلك تعلمت ضرب الدف وأخذت أعمل في الأعراس.»

استغربت زينب لماذا حكت لها أمها تلك كل التفاصيل. هل كان فعلا جوابا على سؤالها عن أبيها، أم أرادت حمدة أن تخرج ما تكتمه في نفسها كي تموت قريرة النفس؟ تبرير زينب الذي خلصت إليه هو رغبة أمها في تعليمها شيئا عن الحياة ومصاعبها؛ لأنها تربت في أوضاع أفضل بكثير من الأوضاع التي عاشتها أمها. ولكن من يعلم ما يخبئ لنا القدر.

صلى عبيد صلاة العصر بقلب ساه. الجميع كان ينظر إليه باستغراب، كأنهم لم يعتادوا وجود الغريب بينهم. بعد انتهاء الصلاة مباشرة خرج عبيد من المسجد مسرعا كي يتلافى الوجوه. كانت البيوت متقاربة جدا في قرية (الصفو)، تحتك جدرانها بعضها ببعض كالمصلين في المسجد، رغم اتساع الأراضي حول القرية. وهي كلها على نمط واحد، مربعات طينية ضخمة. حتى بيت التاجر فؤاد، الذي يعتبره عبيد قصرا، فإنه لا يختلف كثيرا من الخارج عن بقية المنازل. وأجمل ما في القرية هو وجود الأموال المزروعة في كل زاوية وركن، مزارع مصغرة تحوي أشجار المانجو الليمون ونوع من البرتقال المحلي وطبعا سيدة الأرض النخلة. فهي في عناق أبدي مع المساكن والمحال والطرقات، تتخللها سواقي

الأفلاج بصوت مائها العذب. كل ذلك أعطى القرية جوا باردا منعشا، فظلال الأشجار تحجب الشمس وتلطف الهواء ودرجة الحرارة تكون مقبولة حتى في عز ظهيرة الصيف. أقبل نحو عبيد الشيخ أبو صالح والتاجر فؤاد يرافقهما شاب. حين سلم الشاب على عبيد قال التاجر فؤاد "هذا حسين أصغر أبنائي". ثقة الشاب في نفسه أربكت عبيدا. بدا في تلك السن الصغيرة قادرا على تولي مسؤوليات جمة، وأوحى مظهره بقدرته على القيادة. استأذن الشاب حسين بالذهاب. وقال التاجر فؤاد أن لديه درسا مع أحد الشيوخ. مشى الثلاثة في طريق يلتف حول مزرعة كانت تابعة للتاجر توسطت القرية، إذ كانت أكبر المزارع. تلهى التاجر فؤاد والشيخ أبو صالح عن عبيد بالتحدث مع بعضهما بعضا وكان هو لاهيا أيضا بتأمل الطبيعة الجميلة من حوله وهو مستبشرا بإقامته في ذلك المكان خيرا. قادهم الطريق إلى قلب المزرعة وكان يضيق كلما مشوا فيه حتى أصبحت أغصان الاشجار تلامس جانبي أذرعهم. اجتازوا فلجا كبيرا ثم أصبحوا في أرض واسعة غير مزروعة إلا من بعض الأشجار المتفرقة. في نهاية تلك الأرض كان هنالك كوخ طيني. كان هذا الكوخ يحرسه باب حديدي عليه سلسلة وقفل كبيرين. امتلأ الجو برائحة تمر وليمون مجفف وحشائش البرسيم. كانت ملحقة بالكوخ من الخلف غرفة صغيرة بلا باب. "هذه هي" أشار التاجر إلى الرجلين ودخل الجميع. كانت الغرفة مظلمة في زواياها، إثر ذاك أضاف التاجر "بإمكانك أن تحدث نافذة في الجدار إن أردت مزيدا من الضوء». تجول عبيد في أرجاء الغرفة متخيلا هو وزوجته وطفلهما القادم. كان منزلا

خاصا به هو حلمه، وإن كانت حجرة صغيرة. أراد أن يشعر بالاستقلال وأن يعيش مع عائلته من دون مضايقات. زاحمت ذكريات الأحداث التي سبقت مجيئه قرية (الصفو) هذا الخاطر الجميل محاولة أن تكدر عليه. لكنه أزاحها بقوله للتاجر"إنها ممتازة". "نعم إنها كذلك، كما إنها في المزرعة وبقرب الفلج والبئر، فقط تحتاج القليل من التنظيف" قال التاجر فؤاد وهو يخرج من الغرفة وقد آذته كما يبدو اتساخها والعفن في هوائها. قاده الشيخ أبو صالح خارجا وهو يقول له "غدا صباحا سأرسل معك الصبي الذي يعمل معي ويساعدك في تنظيفها".

كانت مريم الصغيرة حين لا تكون مشغولة بمساعدة أمها، لا تفارق زينب البتة. تجلس بجانبها وتغرقها بالأسئلة. وزينب بدورها أحبت صحبة مريم وأعجبت بذكائها وسرعة بديهتها. وتمنت لو استطاعت البقاء لوقت أطول؛ لأن مريم كانت قد وعدت زينب بأن تتدارس معها القرآن بعد أن ترجع من عند المطوعة. لكن موعد الرحيل قد حان بعد أن هيئت الغرفة وأصبحت صالحة لاستقبال ساكنيها الجدد.

وهكذا أصبح عبيد يعمل في مزرعة التاجر فؤاد، ينهض فجرا مع آذان سالم الأعور. ينظر حواليه. لا يجد زوجته بجانبه. يعرك عينيه من آثار النوم. يراها راجعة وفوق رأسها الجحلة المليئة بالماء. يملؤه هذا المنظر حبا وشفقة. لم يظن في قرارة نفسه أنه بإمكانه أن يحب أحدا بهذا القدر. ألأنها تحمل طفله الأول؟ أم لأنها تحملت معه كل هذي المصاعب والمشاق؟ أم لأنه يخاف من أن يُترك وحيدا؟ أياً كان السبب، فإنه وجد في تلك المرأة الشريكة المناسبة، والزوجة المخلصة

المتفاهمة، والصدر الرحب الذي يلقي بكل همومه وأحزانه فيه. نهض متثاقلا واغتسل ثم صلى الفجر. ذهب ليحتش البرسيم بالمنجل والشمس تراقبه بخجل طفلة صغيرة تحاول بأشعتها أن تجد طريقها بين الاشجار والنخيل. وضع الكومة إثر الكومة على جانب في انتظار أن يأتي صبي التاجر بالحمار ليوزع جزءا منها على المواشي ويخزن الباقي على أن تباع في السوق نهاية الأسبوع. بعد ذلك يقوم عبيد بتوزيع مياه الفلج على الأشجار والِجلَب. ثم يتركه ليروي المزارع الأخرى. من الطبيعي أن تكون حصة التاجر أكبر من الماء وذلك لأن البئر في أرضه وهو الذي يرعاها ويعتني بها. يأتي الصبي على وقت الضحى جارا من خلفه حمارا بائس المنظر. كان عبيد جالسا يستريح تحت ظلال شجرة ليمون وهو ينظر إلى زهورها البيضاء الصغيرة التي ستصبح بعد أشهر حبات ليمون رائعة المظهر.

كان يود أن يغطس في البركة التي يتجمع فيها ماء الفلج قبل أن يجري في الساقية. لكن نهيق الحمار نبهه إلى مجيء الصبي فقرر أن يرجىء ذلك إلى أن ينتهي من تحميل البرسيم على ظهر الحمار. «السلام عليكم، كيف حالك يا عمي؟». كان الصبي يحمل قفير فيه بعض الاثواب والأغطية. «وعليكم السلام، نادني عبيد. وأنت ما اسمك؟". لم يكن هذا الصبي صغير السن لكن قصره وملامح وجهه الطفولية قد توحي بذلك. لكنه في حقيقة الأمر كان قد تجاوز العشرين من عمره ضآلة جسمه لا تعني ضعفه فقد كان قوي البنية كبير التحمل. كانت هوايته جمع ثمار البوت والعسل من أعالي الجبال، و هذه الهواية كانت تدر

عليه مالا جيدا. ربته جدته بعد أن مات أبواه في يوم واحد، وهي الآن عجوز هرمه، وقد تكون أكبر أهالي القرية عمرا، فهو الآن يتحمل عبئ رعايتها وإن كانت هي لا تزال تتمتع بصحتها كاملة. «اسمي خليل، هذه من عند عمي فؤاد. فيها أثواب لك ولامرأتك وبعض أغطية النوم". بعد صلاة الظهر أعطاه التاجر بعض الخبز والسمك المجفف لغدائه هو وزوجته، كما أعطاه دقيقا وعدسا كمؤونة يخزنها عنده ثم قال له وهو يعطيه مفتاحا صدئا "هنالك تمر وتين مجفف في المخزن، بإمكانك التزود منهما متى ما شئت". أحس عبيد بامتنان شديد يملأ روحه وهو يرى كل هذا الإحسان وحمد الله في نفسه وصدح بالثناء على التاجر الذي قال قبل أن يغادر "لقد أعجبني عملك هذا الصباح. من الواضح أنك شغول ومخلص. سأسافر إلى مدينة مسقط غدا صباحا، لكن بإمكانك أن تأتي أي وقت إلى البيت إن احتجت شيئا فابني حسين موجود هنا".

في عصر ذلك اليوم أتت معه زينب إلى بيت الشيخ أبي صالح كي تزور شيخة ومريم. أخذ عبيد يفكر في مدينة مسقط هذه التي ملأته ذكرها فضولا وحيرة. فهو سمع أبوه يذكرها مرة حين اضطروا للنزول بها في إحدى رحلاتهم القادمة من الهند. قال عنها أبوعبيد إن بها حاضرة وبيوت كثيرة حديثة وبها سوق كبيرة تضاهي الأسواق التي في الهند. كما يأمها أقوام شتى، وبها بعض زوايا العلم. بعد صلاة العصر جلس الرجال في باحة المسجد يتوسطهم الشيخ عبدالله أبو صالح كما جرت العادة هنا. انشغل كل واحد في حديث جانبي مع صاحبه وكان أبو

صالح في حديث ودي مع إمام المسجد سالم الأعور. انتبه عبيد إلى أن الجالس بجنبه هو خليل صبي التاجر. "أهلا بك يا خليل، إن الجو جميل اليوم، أليس كذلك؟». خرج خليل من دائرة سرحانه واعتدل في جلسته «غالبا ما يكون كذلك بين فترة مغادرة الشتاء وقدوم الصيف». هز عبيد رأسه مؤمنا على كلام خليل الذي أضاف بصوته الخافت « لكن كلا لا تقلق فليس الصيف بذلك الحرارة هنا". أحب عبيد أن يوطد علاقته بخليل، فوجود صديقا مقربا في حياته كهذا الشاب النجيب من شأنه أن يؤنس وجوده في هذه الحياة وبما أنهما يعملان للرجل نفسه كان ذلك منطقيا. «يبدو لي أن عدد الناس قليل في هذه القرية، ترى ما السبب في ذلك؟" سأل عبيد كأنما يخاطب نفسه. لم يجبه خليل وإنما عرض عليه أن يرافقه غدا صباحا إلى الجبل، فالمزروعات قد سقيت اليوم ولا حاجة لسقيها ثانية حتى يومين آخرين. «بقيت مسألة رؤوف يا شيخ» قال أحد الرجال الحاضرين فجأة وهو مالك لمزارع كثيرة. ثم تابع الرجل "أبوه رجل فقير خدم أبي لسنوات ويجب علينا أن نهب لمساعدة أبناء قريتنا أيما كانوا". "لكن إن ثبتتت التهمة عليه يجب معاقبته" أجاب سالم الأعور كأن السؤال كان موجها له. الشيخ أبو صالح يحترم سالما الأعور كثيرا بسبب كبر سنه وخبرته الطويلة في الحياة، ولأنه درس الفقه وأمور الدين على يد شيخ علم جليل. لكنه أيضا كان تحت ضغط حمية بقية أفراد القرية الغيورين على سمعتها وسمعتهم بين القبائل لذا قال حتى يوازي بين الرأيين، رأي العقل ورأي العاطفة "لكن يا شيخ سالم المال الذي يدعونه على رؤوف مبالغ فيه

وإن سألت رأيي فإني أشك في صحة هذا الكلام". أخذته أفكاره عبيد بعيدا عما يدور حوله وإن كانت أذنه تلتقط نتفا من الحديث. بعد صلاة المغرب عاد هو وزوجته إلى حجرتهم وأسئلة كثيرة تموج في رأسه.

بعد أن صلى الفجر مجددا في غرفته، لم يستطع النوم ثانية. أرادت زينب أن تخبز له شيئا كي يتناوله للفطور لكنه أمرها أن تترك الخبز لطعام العشاء. "سأتناول تمرا وأشرب ماء الآن وكما أخبرتك ليلة البارحة سأمضي النهار مع خليل صبي التاجر في الجبل. إن أردت بإمكانك الذهاب إلى بيت الشيخ أبي صالح لتناول الغداء، سأمر عليك بعد أن أعود". حركت بطنها الذي أصبح بارزا الآن رافعة جسدها ببطء من على الفراش "ثم إنني لا أريدك أن تبقي بمفردك" أضاف بعد أن اعتراه قلق مفاجئ. « رأيك سديد ولكني لا أحب أن أتطفل على الناس، لقد فعلوا لنا بما فيه الكفاية". قام عبيد واغتسل ثم ذهب ينتظر خليلا عند المسجد. الظلام لا يزال سائدا بسبب الغيوم الكثيفة التي لم يتنبأ بها أحد. لا مجال للهرب يا عبيد. التفت خلفه في رعب شديد وزعق "من هناك؟" ولكن ما من مجيب. استغفر عبيد ربه واستعاذ من الشيطان وتابع مسيره. كانت أشجار النخيل تتراقص أمامه بفعل الريح لكنه استحضر قصص الجن، ليست تلك التي تقطن في قصص ألف ليلة وليلة التي حكى عنها أبوه، بل تلك الأكثر شرا وواقعية التي رأى أثرها بأم عينيه. وصل للمسجد وهدأ روعه قليلا لما رآه. بعد وقت قصير أتى خليل وهو يحمل في ظهره كيسا.

اتخذ خليل طريقا غير مألوفة لعبيد مجتازا قلب إحدى المزارع

"دعني أولا أريك مكاني السري". دخل الاثنان في فجوة بالكاد تتسع لدخول شخص بالغ كانت بين صخرة هائلة الحجم كأنها بيت وبين الجبل الأقرب إلى قرية (الصفو). مشوا في ظلمة استمرت لدقائق إلى أن وصلوا إلى ما يشبه الكهف. كان المكان مضاء بسبب وجود فتحة في سقف الكهف انسلت منها أشعة الشمس. دهش عبيد من المكان وكبر مساحته وتجول فيه وهو يفكر أن هذا المكان يصلح للاختباء وقت الضرورة. كان يأتيه صوت خرير ماء من مكان مجهول، التفت إلى خليل ليسأله عن ذلك لكن الأخير أجاب قبل أن يتكلم عبيد "منبع فلج القرية الكبير قريب من هنا، لكن للأسف لا توجد طريق للوصول إليه". ثم تابع خليل "دعني أريك أيضا ميزة أخرى لهذا المكان". تبع عبيد خليلا إلى زاوية في الكهف قرب الفتحة التي يأتي منها الضوء، ثم صعد على صخور غير مرئية موضوعة في تناسق كأنها سُلّم. كانت هنالك عتبة صغيرة قبل فوهة الفتحة بقليل كأنها درجة سلم ولكن كبيرة نسبيا. حين استويا واقفين على هذه العتبة تراءت لهم القرية بأكملها في منظر بديع ساحر. "من هنا ترى كل ما يجري في القرية من غير أن يراك أحد". خرجا من مخبأ خليل السري وسلكا طريقا آخر صاعدين إلى الجبل.

لم يسبق لعبيد أن تسلق جبلا من قبل، فحيث كان يعيش لم تكن هنالك جبال قريبة. كان خليل يتسلق الصخور المخيفة بكل رشاقة كأنه أحد الوعول التي تستوطن هذا المكان الوعر وعبيد يحاول اللحاق به في جهد ومشقة. استغرق صعودهم إلى إحدى قمم الجبل، في منتصفه، قرابة الساعة. وهنالك اختلف المشهد تماما. أصبحت القرية

صغيرة الحجم وكان المشهد بانوراميا حيث يطلع على السفوح والوديان المحيطة بالقرية. "ساعدني في قطف ثمار البوت ولك نصفها". أحس عبيد بحرقة في رجله اليمنى وحين عاينها رأى بها جرح ينزف دما. "خذ ضع هذه على الجرح" قال خليل وهو يناوله ورقة من أوراق شجرة البوت. والبوت هذا هو أحد أنواع التوت البري لذيذ الطعم، لا ينبت إلا في أعالي الجبال في قلب الطبيعة القاسية. شجرة قصير ساقها لكنه كثيف الأوراق يشبه شجرة الحناء. جلسا على صخور ملساء بعد أن تعبا من قطف البوت، وأخذا يأكلان قليلا من الثمار. "قل لي يا خليل، ما موضوع رؤوف هذا الذي كانوا يتحدثون عنه في المجلس بالأمس؟". دعك خليل بقايا البوت القرمزية في ثوبه ثم بدأ يحكي "رؤوف كان يعمل عند الشيخ عبدالرحمن... لحظة... انتظر قليلا» توقف خليل عن الكلام وهو يضع أصبعه على فمه آمرا عبيدا أن لا يأتي بأي صوت أو حركة. قام من مقعده في حذر وأخذ يمشي في بطء شديد. توقف خلف شجرة بوت مترقبا مرور حمامة برية سمينة، وحين صارت في مستوى زاويته انقض عليها خليل وأمسكها من جناحيها. رفعها للأعلى كي يراها عبيد ثم قال "لقد ضمنا طعام الغداء". لوى عنقها بسرعة وبخبرة واضحة ثم أخذ يبحث عن حجر مسنن. حين عثر على واحدة فصل رأس الطائر ثم تركه أرضا حتى يخرج الدم. بعد ذلك قام بنتف ريشها ثم سلخها وهو يقول لعبيد "ابحث لنا عن بعض الأغصان اليابسة". راقب عبيد النار وهي تلتهم الحطب والأغصان وفي نفسه غرابة من خليل ومهاراته المتعددة. وفي انتظار أن تصبح النار جمرا، أكمل خليل كلامه "كنت

أقول أن رؤوفا كان يعمل عند الشيخ عبدالرحمن. وهو شاب منطوي لا يخالط الناس ولا يتكلم معهم حتى يظنه الواحد من صمته أنه أبكم. كثيرون كانوا ينظرون إليه بعين الريبة، لكنه لم يسبق له أن سرق أو خان الأمانة أو على الأقل لم يتهمه أحد بذلك. أبوه وجد ميتا بعد أن غاب ليومين إلى مكان مجهول. عثر على جثته مرمية في الوادي. الغريب أن رؤوفا لم تبد عليه علامات الحزن ولم يره أحد يبكي، بل كان هادئا هدوءا مخيفا. مما حدا ببعض الناس أن يتهموه بقتل أبيه. في الآونة الأخيرة كان رؤوف يغيب لأيام لا أحد يعرف إلى أين يذهب. وحين يسأله الشيخ عبدالرحمن يقول إنه يذهب بحثا عن أعشاش العسل وتارة يصطاد في البرية. قبل حوالي أسبوع اختطفت قبيلة البلوي رؤوفا زاعمة أنه كان يسرق مواشيها. ومن ذلك الوقت والمساعي متواصلة للإفراج عنه. لكن هذه المساعي بظني ضعيفة، فالمسكين لا أهل له ولا يوجد أحد على استعداد لدفع ما يزعم أنه قد سرقه «. وضع خليل الطائر على الفحم مباشرة بعد أن شقه إلى نصفين. أخذ يقلبه بسرعة ثم وضعه على حجر ملتهب كان قريبا من النار. استغرب عبيد طريقة الطهو هذه. أخرج خليل ليمون مجفف من كيسه ووضعه على الحمامة المشوية ولعاب عبيد يسيل من منظرها الشهي. وفعلا كان طعمها شهيا. "آه لو كان لدينا تبغ» تحسر خليل متنهدا وهو يمسح على بطنه. كان التبغ سلعة نادرة وغالية في ذلك الوقت لذا سأل عبيد متعجبا «وهل تمضغ التبغ؟ ومن أين تحصل عليه؟». نظر خليل إلى عبيد وأخذ يضحك «التبغ الممضوغ هو للشحاذين. التبغ الذي أتحدث عنه يدخن. عمك التاجر

يستعمله وكذلك كان الشيخ أبو صالح الذي أنكر عليه الأعور الخرف ذلك فتركه". «تقصد الشيخ سالم؟». ضحك خليل مرة أخرى وبصوت أعلى «شيخ! ولماذا تناديه بشيخ؟ ألأنه يحفظ شيئا من القرآن؟ لا تكن ساذجا يا أخي. الشيخ هو الذي يعرف كيف يعيش حياته بلا هموم". وهكذا أخذ يظن عبيد بنفسه، ساذج. وضربته الذكرى الأليمة بقوه على رأسه. إن خليلا هذا الذي يصغره بسنوات يعرف ماذا يريد من الحياة، واثق من نفسه، قوي وفتي، وبه وسامة رغم هيئته التي لا تدل على ذلك، وهو فوق ذلك جريء. وأنت يا عبيد تثق في الناس بسهولة. تعميك طيبتك عن رؤية الشر في نفوس الآخرين. وكأنه لم يكتف بما سرده خليل من قصة رؤوف تساءل عبيد "وكم مقدار المال المطالب به رؤوف؟". كان خليل شاردا وهو ينظر للأفق الرحب ولم يسمع سؤال عبيد مما دفعه إلى إعادته. "هاه، المعذرة. نعم، ما يقارب الخمسين رأسا من المواشي". كل هذا القدر؟ وكيف فعلها؟ وهل هو بمفرده؟ وكيف تصرف بكل تلك الحيوانات؟ لكن الأيام السابقة قد علمت عبيدا القوة الهائلة والحيلة الواسعة التي يحوزها المجرمون حين يضعون نصب أعينهم شيئا ما. فالشيطان هو أعظم حليف للشرير ولكن أليس هو أعظم متخاذل كذلك؟

بسبب الغيوم الكثيفة التي تحجب الشمس وبرودة المكان لم يكن من السهل تحديد الوقت. "هل تظن أن وقت صلاة الظهر قد حان؟" سأل عبيد وبكل ثقة أجاب خليل "نعم منذ زمن طويل". كان خليل لا يزال مستلقيا على ظهره وهو ينظر إلى السماء. "فلنصل إذا... ولكن

من أين سنأتي بالماء؟... أظن أنه يجوز لنا التيمم في هذه الحالة" قال عبيد كأنما يحادث نفسه. لم يقل خليل شيئا إلا عندما اقترب منه عبيد واقفا فوق رأسه. "صل أنت، أنا لا أصلي" قال خليل بكل هدوء. عقدت الدهشة لسان عبيد وظل ينظر إلى خليل بعينين متسعتين. "لماذا تنظر إلي هكذا؟ نعم أنا لا أصلي. أنا لا أنكر عليك صلاتك فلا تنكر علي امتناعي. الكل حر" أضاف خليل. "ولكن الصلاة واجبة علينا" قال عبيد كالمحتج. "ولماذا ذلك؟" انتصب خليل جالسا. "هو أمر ربنا و..." لم يتم عبيد كلامه إذ قاطعه خليل " أمر ربنا! وكيف عرفت ذلك؟". جلس عبيد أرضا ثم قال " الجميع متفق على ذلك ثم الكل يصلي" لم يجد عبيد ما يقوله. إثر ذلك قال خليل "يا أخي لو أنك حسبتها هكذا فأنت تقع في ورطة كبيرة. هل اتفاق الأغلبية يجعلهم محقين؟ ماذا لو اتفق الجميع على أن قتل الأطفال واجب أو أن الزنى مستحب؟ وما قولك لو ذهب الواحد منا إلى بلاد الكفر؟ هل ذلك سيعني أن دينهم الحق ودينك باطل لأنهم أكثرية؟". استغفر عبيد ربه في نفسه ولم يعلم كيف يرد. إن خليل يحتج بمنطق العقل وهو لم يكن لديه من علوم الدين ليحاجه به. وخلص إلى أن يقول كأنما يحيد عن الموضوع "ولكن لابد للكون من خالق. ليس من المعقول أن يكون قد وجد من العدم؟". "لا أقدر أن أجيبك بهذا الخصوص. ولكن من يستطيع أن يثبت لي وجوده؟ وكيف نعرف أن طريقتنا في عبادة هذا الخالق هي الطريقة الصحيحة؟" لم يجب عبيد فتابع خليل كلامه "أنا أتبع ما يقوله لي قلبي وعقلي، لذلك أعيش خاليا من الهموم وصافي البال». لم يشأ عبيد أن يتابع مناقشة هذا

الموضوع، إذ خاف أن يتطاول خليل في الكلام وهو أيضا أحس ميلا إلى كلام خليل. فكثير من الناس يصلون ويصومون ويأتمرون بأمور الدين ولكن مع ذلك ترى منهم المنافق والكاذب وخائن الأمانة والسارق و.... القاتل! شعر بغصة عندما فكر في هذه الصفة الأخيرة. رغم كل هذا لم يتراجع إعجابه بخليل. أحب فيه الصراحة والصدق ورسوخ ما يعتقد به، وإن كان خليل ملحدا على نية واعتقاد وليس تهاونا فقط. استغفر عبيد في نفسه مرة أخرى وذهب ليصلي.

قرب العصر نزل الاثنان عائدين إلى القرية. أصبح المكان مظلما فجأة بسبب كثافة الغيوم وكان النهار الخريفي قصيرا فهل الليل وألقى عباءته السوداء على المكان. كان النزول خطرا بقدر ما كان الصعود، ومما زاد الأمر سوءا عدم وضوح الرؤية بسبب الظلام. رغم ذلك لم يصادف خليل أي صعوبة في النزول، بينما تأخر عبيد وراءه خائفا من التعثر من ذلك المرتفع الشاهق. كان خليل متقدما عليه كثيرا بحيث لا يراه عبيد في بعض الأحيان إلا إذا حث خطاه مسرعا. في منتصف الطريق إلى القرية، توقف عبيد ليلتقط أنفاسه مستندا إلى صخرة. تراءت أمامه أشباح تتحرك بسرعة وسمع همهمة. تسارعت دقات قلب عبيد ولم يدر إن كان ذلك بسبب خوفه أم بسبب الجهد الذي بذله. وقبل أن يتابع سمع صوتا بشريا يقول "امسكه جيدا كي لا يفلت". أراد إخبار خليل بما رآه حينما تلاقيا في الأسفل لكنه خاف أن يظن به الجبن.

أصبحت حركة زينب أكثر صعوبة إذ انتفخ بطنها كثيرا مما عمق من قلقه عليها. "أرى من الأفضل أن تبقي في بيت الشيخ أبي صالح. أخشى

أن يأتيك الطلق وأنا غير موجود". لم ترد عليه وهذا الهدوء بالذات أكثر ما يقلقه. لم تكن تتكلم كثيرا في الآونة الأخيرة وكان وجهها ذابلا به مسحة من الحزن. حين عرض الأمر على الشيخ أبي صالح قال إن هذا طبيعي لدى المرأة الحامل خصوصا حين ما يقرب وقت وضعها. في إحدى الليالي حينما كان عبيد يقوم بسقي المزروعات اخترق الفضاء الصامت صرخة آتية من ناحية الجبل. القمر الكبير كان يلقي بأشعته الرمادية في كرم زائد، فكانت تلك من أكثر الليالي التي شهدها عبيد وضوحا. شجعه تحلي المكان بالضوء القمري واتجه إلى حيث الصوت. قادته قدماه على الطريق نحو مكان خليل السري. وهنا أظلم المكان قليلا لكن كلما تقدم عبيد إلى الأمام ازدادت شجاعته. لم يكن هنالك أحد داخل الكهف الحالك. تلمس عبيد طريقه وصعد على السلم الحجري ليرتقي على العتبة المطلة على القرية. سكون جليل كان يغمر القرية المشرئبّة بضوء القمر كخمرة لذيذة. سكر عبيد من هذا المنظر ورعشة سرت في عموده الظهري إذ عاودته تلك الذكرى الأليمة. تحركت أشباح ثلاثة رجال أمامه وهي تطفوا في خفة. لم يدر عبيد إن كان يرجف بسبب البرد أم بسبب تلك الأطياف. حين استقرت الأشباح عرف عبيد من بينهم بما لا يقبل الشك حسين ابن التاجر فؤاد ورجلين آخرين لم يتعرفهما. كان أحد الرجلين يمسك بالآخر بينما حسين يكلمه بعصبية واضحة مستخدما يديه بكثرة. استمر هذا الأمر حتى بلغت عصبية حسين حدا عظيما بحيث أمسك الرجل من رقبته خانقا إياه وصرخ بقوة بحيث سمعه عبيد يقول «أيها الكلب الملعون" وبعد دقيقة

أو اثنتين تهاوى الرجل وسقط إلى الأرض. نظر حسين والرجل الآخر حواليهما في ارتباك وحاولا إيقاظ الرجل ولكن بلا فائدة، لقد كان جثة هامدة. بعد ذلك قال حسين شيئا للرجل ثم حملا الجثة ووضعاها بين الصخور وغادرا المكان. تسمر عبيد في مكانه من هول ما رأى وانتظر حتى غاب حسين والرجل الآخر في داخل القرية ثم عاد إلى منزله.

لم ينهض عبيد لصلاة الفجر. لم توقظه زوجته بل أيقظه أنينها وهي تمسك بطنها وظهرها وتقول "قم يا عبيد لقد حان الوقت". أسرع عبيد بزوجته نحو بيت الشيخ أبو صالح وزينب في حالة من الإعياء الشديد بحيث لم تستطع المشي من دون أن تتوقف. لحسن الحظ صادفهم خليل يجر من خلفه حماره وحملا زينب على ظهره. في بيت أبي صالح استدعيت القابلة أم حمد رغم أنها بلا زوج أو أولاد. صرخات زوجته ووجها الملتوي من شدة الألم أدخلا في نفسه الجزع والخوف. كانت شيخة زوجة أبي صالح في حركة دؤوبة وهي تجلب الماء الساخن وهي تسوق كذلك بعض الخرق وكل ما يسهل عملية الولادة. استمر الأمر فترة طويلة وعبيد على حافة الهاوية فهو ينظر في عين الجحيم من القلق. تعالت صرختان عرف إحداهما زوجته والأخرى للطفل الوليد.

حين أفاق عبيد وضع بين يديه قطعة من اللحم وهي تصيح. "مبروك، إنه ولد" قالت له شيخة ثم ذهبت وهي تبكي. أحس عبيد بالمصيبة وأخذ يصرخ "وزينب، كيف حالها؟ أين هي؟ زينب، أريد زينب". وكاد يلقي بالرضيع لولا أن تداركه الشيخ أبو صالح وهو يقول "اذكر الله يا أخي. هذا قدره. قويّ إيمانك". "ماذا تقولون؟ أنا لا أصدق هذا الكلام.

أريد زوجتي زينب" قال عبيد وأخذ يبكي بحرقة. قضى عبيد يومه جالسا على عتبة بيت الشيخ أبي صالح ينظر إلى الأرض بذهن شارد، يبكي قليلا ثم يسكت. امتنع عبيد عن الأكل والصلاة وحتى ابنه رفض أن يراه بينما انشغل أبو صالح في ترتيبات الدفن والعزاء. رآه خليل وهو في حالته تلك ثم اقترب منه وهو يقول "لا عليك يا أخي عبيد لا تحزن". غالب خليل إلحاده فأضاف مجاملا "اسأل الله لها الرحمة والمغفرة". في أثناء العودة من الدفن جاءت الأخبار بأن رؤوفا قد عثر عليه ميتا على سفح الجبل. لم يجد المسكين من يبكي عليه حتى الشيخ عبدالرحمن الذي كان يعمل لديه رؤوف لم يبد عليه التأثر. كان عبيد مشغولا بهمه عن خبر موت رؤوف ولم ينطق بحرف عما يعرفه. لكنه انتبه حين عادوا لدفن الجثة الثانية في ليل ذلك اليوم وتمثلت الجريمة أمامة واضحة. أما وليده فسماه مسعودا وبقي في بيت الشيخ أبي صالح حتى يجدوا له مرضعة.

أصبح عبيد يزور بيت الشيخ أبي صالح يوميا كي يرى ابنه. ودائما ما يراه في حضن مريم وهي تناغيه وتلاعبه. يجلس بجانبها ثم تناوله مسعود. إن به شبها بزوجته وله أنف أبيه الكبير، لكنه كان فاتح البشرة قليلا وزنه خفيفا وضئيل الحجم. كانت المرضعة تأتي من قرية مجاورة قريبة من القرية. تكفل الشيخ أبو صالح بدفع أجرتها. أحبت مريم مسعودا كالأخ الذي لم تحظ به. وكذلك شيخة وأبو صالح، مما أقر نفس عبيد فهو لا يعرف كيف يعتني به ولا يعرف أيضا كيف يغدق عليه حنان الأب. كانت الأم هي الأساس في تربية الآطفال ما داموا صغارا لكن

حين يكبرون يأتي دور الأب، وهكذا كان يعتقد عبيد، وجزعه أتى من فقدان مسعود لأمه. لكنه قر عينا واطمأنت نفسه حين رأى مقدار الحب الذي يحظى به مسعود من عائلة الشيخ أبو صالح. حزنه العميق على زوجته لم يمنعه من التفكير في السر الذي يحمله. ترى كيف يذيع به؟ ورغم أنه كان متأكدا حينها من أن الفاعل هو حسين ابن التاجر فؤاد إلا أنه بدأ يشكك في نفسه. ماذا لو لم يكن هو؟ كيف سيكون موقفي مع التاجر فؤاد الذي أحسن إلي وآواني؟ سأظهر بمظهر الجاحد حينها ولا أستبعد أن يطردني بعد أن اتهمت ابنه زورا. قرر في نهاية الأمر أن يخبر خليلا فهو إنسان حاذق وذكي ويعلم ما يجب فعله وإخباره لأحدهم سيخفف عنه الحمل. لكن الهم الآن صار ثلاثة: موت زوجته زينب، جريمة حسين، و... تلك الذكرى الأليمة.

إن كان الصيف ليس بذلك الحرارة في قرية (الصفو) فإن الشتاء كان قارس البرودة. أشعل عبيد نارا قرب بيته، وكان ذلك عادته منذ دخول الشتاء، فمنها يستدفئ ومنها يطهو طعامه. أتى خليل بالطعام، دجاجة شهية يقول إن أحد البائعين في السوق أعطاه إياها بسبب خدمة أداها له. كان خليل يحمل أيضا زجاجة مربعة الشكل بها سائل يميل إلى البياض. عندما انتهيا من الأكل أخذ يشرب من الزجاجة رويدا رويدا. حين فاحت الرائحة تعرف عليها لأنه كان... طرد الخاطر المزعج وسأل "هل هذا نبيذ؟". نظر خليل إلى عبيد بوجه منشرح زادته النار تألقا وابتسم وقال "نعم ومن أفخر الأنواع. فهو يأتي من القاعدة العسكرية الإنجليزية وليس مثل ذاك الهراء الذي يصنع هنا". لم يعترض عبيد،

الذي كان سيعترض لو أن هذا حدث في السابق، فهو لم يعد يبالي، ثم إنه يعرف خليلا وشخصيته جيدا الآن، أو هكذا كان يظن عبيد، ولأن ماضيه هو لم يكن بالضرورة صفحة بيضاء صافية. أخذ عبيد ينظر إلى النار مصغيا لصوتها وهي تأكل الحطب مقلبا الكلام في عقله. "ما بالك يا أخي عابس الوجه هكذا؟ هون عليك فليس هنالك ما يسوى. هل تريد القليل من النبيذ. صدقني سيسري عنك ويشرحك صدرك ويدفئك في هذا البرد الشديد" عرض خليل في لهجة مرحة. "شكرا، لكني لا أشرب الخمر" أجاب عبيد مسدود النفس. "كما تحب، لن أضغط عليك". أغمض خليل عينيه مستندا بظهره إلى الجدار مستمتعا بصمت الليل وبالانتعاش الذي أحسه بفعل الكحول. خشي عبيد أن ينام خليل واستغرب كيف تابع حياته بكل اعتيادية بعد يومين فقط من موت جدته التي كانت كل ما تبقى له من أهل. كان قد مضى على موت رؤوف ما يقارب الشهر لكن عبيدا لم يتسنَ له إخبار خليل بجريمة القتل، أو ربما كان مترددا. "خليل، هل غفوت؟ هنالك أمر أريد إخبارك به" قال عبيد بصوت واطئ لكن خليلا سمعه ففتح عينه وقال "ماذا هناك؟". رمى عبيد بغصن يابس إلى النار وقال "رؤوف لم يمت ميتة طبيعية كما كان يُعتقد ولم تقتله قبيلة بلوي كما يظن بعض الناس". اقترب خليل من النار وظلُّ عبيد غطى نصف وجهه "لقد قالت القبيلة إنه هرب منهم، ذلك الحاذق، ولم يستطيعوا اللحاق به. وأنا أيضا لا أؤيد نظرية قتله من قبلهم. ولكن أتعتقد أنه انتحر؟" كان في لهجة خليل شيء من السخرية. "لقد قتل" أعلن عبيد بلا مقدمات. "قتل، ومن الذي قتله؟" سأل خليل وهو يشرب

مزيدا من النبيذ. كان عبيد ما يزال مترددا ومرتبكا، غيّر وضعية جلوسه ثلاثة مرات قبل أن يقول وهو منقطع النفس "حسين ابن التاجر فؤاد". أشاح خليل بوجهه كي لا يرى عبيد الدمعتين اللتين خطتا خديه. لكن عبيدا رآهما وتملكه عجب شديد فلم يسبق له أن رآه يبكي حتى عندما ماتت جدته لم يذرف دمعة واحدة. تمالك خليل نفسه وقال "حقا، وما دليلك على ذلك؟". "لقد رأيته بأم عيني وهو يخنقه" وحكى عبيد ما جرى في تلك الليلة القمرية وأخبر بكل تفاصيل الجريمة البشعة. "لقد توقعت الكلب أن يفعل ذلك" قال خليل ذلك منهيا جميع ما في الزجاجة من نبيذ دفعة واحدة. "توقعت؟! ماذا تقصد بذلك؟" رائحة الخمر أسكرت عبيد قليلا؛ إذ بدأ يشعر بدوار لذيذ. "لا عليك، دعك من ذلك" قال خليل ذلك كأنما أخطأ في القول. بعد فترة صمت قال خليل فجأة "هل أنت على استعداد أن تشهد على ذلك إن اقتضت الحاجة؟". يشهد على حسين ابن التاجر فؤاد، ملأته هذه الفكرة رعبا أكبر من يوم وقوع الجريمة. ثم أضاف خليل كي يخرج عبيدا من حرجه ومن الموقف الصعب الذي كان فيه " لكن لا أستطيع بالطبع أن أطلب منك أن تفعل ذلك، فإنه يعني ببساطة خراب بيتك وانقطاع رزقك. أنت أخي وصديقي الوحيد في هذا المكان. لا تقلق سأجد طريقة أنال بها من ذلك الخسيس". ازدادت برودة الجو وكانت المزرعة من أكثر الأماكن برودة إذ تقع مباشرة تحت الجبل العظيم. "هنالك أمر ما تخفيه عني يا خليل" في خلال الفترة البسيطة بعد وفاة زوجته شعر كأن خبرته في الحياة قد تضاعفت، أصبح عبيد يفكر جيدا قبل أن يتكلم وصار

يقلب الأمور قبل أن يعطي حكمه، وجلّ وقته كان يقضيه في التأمل والتفكير. نشوة الخمر أطلقت لسان خليل فأصبح يسهب في الكلام وهو على كل حال كان يثق في عبيد كثيرا "ما سأخبرك به الآن يبقى بيننا. أتعدني بذلك؟" هز عبيد رأسه موافقا. «رؤوف كان من أعز أصدقائي ولم يكن هذا الأمر معروفا لدى أهالي القرية لأننا حرصنا على ذلك. لقد خططنا لجمع شيء من المال والذهاب إلى مسقط نعيش فيها. كنا نود العمل في التجارة هناك ولم يكن المال الذي جمعناه، على كثرته، كافيا. لذلك قمنا بالسطو على مواشي القرى المجاورة وبيعها في السوق. ولم نكن نسرق أكثر من رأس أو اثنين كي لا نثير الشكوك وكنت في الغالب أنا الذي أقوم بالسرقة بينما يقوم رؤوف ببيعها في السوق. لاحظنا أن الراعي الذي يعتني بمواشي قبيلة بلوي يتوغل في البرية بعيدا عن قريتهم. كانت أعداد الرؤوس كبيرة إذ كانت لأكثر من عائلة. خطر لنا أن هذه ستكون آخر عملية لنا لذا قررنا أخذ أكبر عدد من المواشي. من أجل ذلك ذهبنا سوية. قام رؤوف بمهمة إلهاء الراعي بينما توليت أنا سقي الرؤوس. من سوء حظ رؤوف وبينما هو كان يحاول اللحاق بي، جاء فرد آخر من قبيلة بلوي كان في الأرجاء يمارس الصيد. استنجد به الراعي الذي كان مربوطا بسدرة. فما كان من هذا الرجل إلا أن هب راكضا في أثرنا ولأنني كنت متقدما فإن رؤوفا هو الذي وقع في الأسر. في أثناء هربي بالمواشي شرد عدد كبير من الرؤوس وأظن أن هذا السبب في أنهم لم يبحثوا عني. ورؤرف كان شهما وصديقا حقيقيا فلم يشِ بي وتلقى اللوم وحده المسكين. لذلك أريد الانتقام له". لقد

خاب ظن عبيد في خليل قليلا، فلم يكن يظنه سارقا وقاطع طريق. وعزا عبيد ذلك إلى روح خليل الثائرة وجرأته وشجاعته وهو لم يكن ليردعه عُرْف اجتماعي أو وازع ديني فلم يكن يؤمن بكليهما. "ولكن ماذا دفع حسين إلى قتله؟" تساءل عبيد كأنما يخاطب نفسه. لم يجبه خليل إذ كان يغط في نوم عميق. نظر عبيد في وجه خليل الطفولي كأنما يراه لأول مرة. تغيرت نظرته له لكن بقي الإعجاب بشهامته ونبله وجرأته. كيف لهذا الصبي أن يفعل كل تلك الأمور؟ وكيف يستطيع إخفاء شخصيته الحقيقية عن الناس من حوله؟ ومن علمه تلك الأفكار عن الدين والمجتمع؟ فهو لم يتعلم على يد شيخ، ولم يكن يقرأ في كتب، ولم يعش بالقدر الكافي كي يقال إن خبرات الحياة قد علمته، إنه حقا أعجوبة بشرية من عجائب الخالق الذي ينكره خليل!

حمل عبيد ذلك الجسد الصغير ووضعه حيث كانت تنام زوجته ثم قام بتغطيته.

«هل يستطيع الكلام الآن؟ هل يستطيع أن يقول بابا؟» «كلا يا عمي هو لا يزال صغيرا». أصبح عبيد يقضي وقتا أطول مع ابنه الآن بعد أن قلّ العمل في المزرعة بسبب فصل الشتاء. شعر عبيد بعاطفة كبيرة نحو مريم ولربما أحبها أكثر من ابنه. فهي تقوم بما كانت ستقوم به زوجته، فكانت مريم كالأم لمسعود وحين يكبر قليلا ستكون له أختا. لكن أليس من المفترض أن يضم عبيد ابنه إليه بعدما يكبر وخاصة حين يبلغ سن الفطام؟ أيتزوج ثانية حين يأتي ذلك اليوم لكي تكون عنده امرأة تساعده في تربية مسعود؟ ومن أين سيتزوج ومن سيرضى بتزويجه؟ من السابق

لأوانه التفكير في هذا الأمر. بعد أن تناول وجبة الغداء مع الشيخ أبي صالح قال عبيد "أرجو ألا أكون أثقل عليك بزياراتي المتكررة". "لا تقل هذا يا ابني. على العكس تماما فإنك تؤنّس وحشة رجل وحيد مثلي ولك الأجر على ذلك" قال الشيخ أبو صالح بنبرة ضاحكة. «بل الأجر هو لك للمعروف الذي تؤديه لي ولابني" قال عبيد بصوت خجول فهو لا يزال يقدر ويحترم الشيخ أبا صالح. "لقد أدخل مسعود البهجة إلى بيتي، فالكل سعيد به خاصة مريم. فهي لا تكاد تفارقه. أظنها قد وجدت زوجها من الآن" قال الشيخ أبو صالح ذلك وغرق في ضحك مجلجل. لم يسبق لعبيد أن رأى أبو صالح يضحك بهذه الطريقة، لكن أسعده أن يكون ابنه سببا في سعادة هذه العائلة الكريمة. بعد أن هدأ الشيخ أبو صالح أضاف "ما رأيك بعمل يكسبك قليلا من المال؟". لم يقل عبيد شيئا فتابع أبو صالح "الجدار الشرقي لمسجد القرية متهدم ويحتاج إلى ترميم، فما قولك أن تؤدي هذي المهمة. سيأتيك الطين المخبوز جاهزا وما عليك إلا أن تقوم بالترقيع وملء الفجوات". كان فكر عبيد ساهيا في لجة أحزانه فظن الشيخ أبو صالح أنه متردد. "باعتقادي الأجر جيد نظرا ليسر العمل وسهولته وهو لن يأخذ منك أكثر من يومين على الأكثر" قال الشيخ مشجعا عبيدا الذي قال مباشرة بمجرد أن أنهى أبو صالح كلامه "سأقوم به بلا أجر".

الفصل الثاني

ومرت الأيام سريعا وسبقتها الأسابيع والأعوام وحدثت أمور كثيرة في قرية (الصفو). يختفي خليل فجأة من غير أن يعلم أحدا. حتى صديقه عبيد لا يدري أين هو لكنه خمّن أنه ذهب إلى مسقط ليبدأ حياة جديدة. وعبيد قد فكر كثيرا في مرافقة خليل وربما الدخول معه في شراكة، حتى أنه قد بدأ يدخر نقودا لذلك. لكنه لم يحسم أمره وخليل لم يأت على ذكر ذلك أبدا بعد موت رؤوف. ومن الأحداث الأخرى موت سالم الأعور إمام المسجد الذي بكاه الشيخ أبو صالح كثيرا. وحل مكان سالم الأعور مطوع شاب جاء من حاضرة نزوى. شاب ملتزم ومتفقه في الدين، يخالط الناس ويتكلم معهم ويعلمهم أمور دينهم. ومجيء خميس المطوع قد غيّر القرية وأهاليها إلى الأبد. فقد تطوع بتعليم الصبية القراءة والكتابة والقرآن الكريم. كما أنشأ حِلق علم في المسجد وأحيا صلاة الجمعة بخطب وكلام عن الدين والدنيا بأسلوب متجدد لم يعهده أهل القرية. لم يطرأ أي تغيير يذكر في حياة عبيد إلا أن ابنه مسعودا قد كبر إذ أصبح عمره الآن خمس سنوات. وصار يرافق مسعودا في حله وترحاله، يساعده في المزرعة وفي أعماله الأخرى بالقدر الذي يسمح له عمره. أحب عبيد ابنه مسعودا فقد تبين أنه يشبه أمه كثيرا كما أحب كلامه وأسئلته الطفولية التي لا تنتهي. أراد عبيد أن

يلحق مسعودا بالشيخ خميس كي يتعلم منه القراءة والكتابة وهو يتذكر الإجلال الذي يحف بأهل العلم كما حكى له أبوه. لكن أمرا ما منعه من ذلك ولم يفهم هو تردده. وذات صباح مر عبيد ومعه مسعود على الصبية وهم يتعلمون على يد المطوع خميس. أحس بأن أحدا يشده من جلبابه "أبي ماذا يفعل هؤلاء الأولاد؟". نظر عبيد إلى وجه ابنه المتساءل واسترجع الموقف الذي حدث معه حينما كان في مثل عمر مسعود حين سأل أمه نفس السؤال. "أتحب أن تنضم إليهم يا حبيبي؟" التفت مسعود ثانية إليهم وهم يرددون "أبجد.. هوز.." ورأى الحماسة تشع من وجوههم. لم ينتظر عبيد إجابة من ابنه الحائر وأخذه من يده إلى حيث الصبية. "السلام عليكم يا شيخ" أوقف الشيخ الدرس وأجاب "وعليكم السلام يا أخي عبيد، كيف حالك؟". دفع عبيد بمسعود إلى الأمام وهو يقول "الحمدلله، اعذرني يا شيخ على المقاطعة. هذا ابني مسعود يود الانضمام إليكم. أحب له أن يتعلم الكتابة والقراءة وشيئا من علوم الدين". "بالتأكيد، على الرحب والسعة. أهلا بك مسعود كيف حالك؟ تعال يا ابني لا تخف" كان مسعود لا يزال متمسكا بجلباب ابيه وهو يصيح "لا أريد البقاء، أريد الذهاب إلى مريم". "لا بأس عليك يا ابني. ستأتي هي لتأخذك لاحقا، ما رأيك بذلك".

مشى عبيد إلى بيت الشيخ أبي صالح وهو ينظر إلى القرية وبيوتها التي لم يغيرها الزمن ولم تؤثر فيها تقلبات الطبيعة. فقبل سنتين هطل مطر غزير كما لم يهبط من قبل. هبطت الشعاب وتدفقت الأودية التي حول القرية فأصبحت كالبحر من عظم الماء الذي بها وقرية (الصفو)

في وسطها كأنها جزيرة. استمر هطول المطر الشديد لساعات وأصيب الناس بالهلع فالمحاصيل قد دمرت والبيوت قد تهدمت بعض أجزائها، حتى صاح البعض أن يوم القيامة قد حان. وعندما أقلعت السماء وبلعت الأرض ما عليها تم تقدير الأضرار التي كانت هائلة، حتى ما كان مخزونا من الغلال أصابه العطب. وفي الأيام التي تبعت ذلك حلت ما يشبه المجاعة بالناس، فلم يجد الكثيرون ما يأكلونه واقتصدوا ما استطاعوا واقتصروا على وجبة واحدة وعلى نوع واحد من الأكل. لكن تكاتف الناس وحبهم لبعضهم بعضا هو الذي أخرجهم من تلك المحنة بأخف الأضرار، فكان الذي عنده الكثير أو القليل يعطي المعدوم. أما عبيد فلم يكن عام الفيضان بالنسبة له إلا ذكرى سيئة. لم يكن يملك الكثير ليخسره لكنه كان على وشك أن يفقد أغلى ما لديه، ابنه مسعود. شارك عبيد في بناء معظم البيوت التي تهدمت، فبيته أو حجرته لم يصبها شيء لذلك كان لديه الوقت الكافي ليساعد أهالي القرية في ترميم الأضرار خاصة العائلات الفقيرة التي لا رجل لها أو التي رجالها كانوا شيوخا عجزة. بينما كان يضع أحجارا في جدار أحد البيوت القريبة من الوادي، التفت فلم يجد ابنه جنبه. ترك ما في يده وأخذ يبحث عنه كالمجنون، أصابه هلع شديد إذ مر وقت طويل وهو بعد لم يعثر على مسعود. شارك حشد كبير من أهالي القرية في البحث عنه وغمامة حزن كبيرة تتلبد في روح عبيد. خشي أن يكون غرق في الوادي، إذ لا يزال التيار قويا وبإمكانه سحب رجل بالغ بكل سهولة. وقد تكونت أيضا بعد نزول كل ذلك الماء مستنقعات وتجمعات مائية كثيرة بعضها كان عميقا

وكانت هي الأخرى تمثل خطرا بالغا . وبعدما يقرب من الساعة أتت مريم وهي تجر في يديها مسعودا وكان ثوبه مبلول الأطراف. هرع عبيد إليه وهو يبكي وأخذه في حضنه وقال "أين ذهبت يا ابني، لقد أقلقتني كثيرا". ثم قالت مريم كأنما تجيب عنه «لقد رأى عصفورا نافقا يحمله التيار فجرى خلف الماء محاولا انقاذ الطائر، وكان على وشك الدخول في الماء لو لم ألحقه في الوقت المناسب» عانقها عبيد بدورها بلا وعي منه على سبيل الشكر ولكنه تركها بسرعة حين عاد إلى وعيه، فهي وإن كانت طفلة إلا أنها تبقى فتاة. ورغم كل ما حدث له حتى الآن فإنه يعتبر قرية (الصفو) موطنه الذي لا يستغني عنه فلم يكن يعرف له موطنا آخر.

طرق الباب المزخرف كما طرقه أول مرة وهمس في نفسه، زينب. وقبل أن يسلم نفسه للحزن فتح الباب وأطلت منه مريم الجميلة. كانت في العاشرة من عمرها لكن طولها وامتلاء جسدها وجمال وجهها وشخصيتها المندفعة، أضاف إليها سنوات أخرى وبدت أكبر سنا. لذلك كان عبيد لا ينظر إليها طويلا ويغض بصره إذا ما مرت من أمامه، احتراما لأبيها واتباعا للأعراف والتقاليد. ودائما ما يقول في نفسه إنها لو كانت أكبر بخمس سنوات على الأقل كان سيطلب يدها. لكنه كان يعلم عدم إمكانية تحقق ذلك، فالبرغم من أن الشيخ أبا صالح يحبه ويقدره لكن الشيخ كان من كان وعبيد هو من هو. «أهلا عمي، كيف حالك؟ أين مسعود لا أراه معك؟» لقد كان صوت مريم من الأصوات المحببة إليه وسماعه لذلك الصوت يبهجه. "مسعود الآن يدرس عند المطوع خميس.. أين أبوك؟" قال عبيد ذلك وهو يشيح بنظره جانبا.

كانت مريم حاسرة الرأس وبعض خصلات شعرها تصل إلى خدها المتورد في نعومة وخفة. "هو في المجلس يشرب القهوة، تفضل يا عمي". كانت تألمه كلمة عمي وتقطع عليه الأمل المفقود أصلا. كانت تملأ حجرة جلوس الرجال غمامة كثيفة من البخور الطيب الرائحة الغالي الثمن. كانت رائحة البخور من الأشياء التي يحبها عبيد في بيت الشيخ أبي صالح وكان دائما ما يقارنها برائحة حجرته العطنة. "السلام عليكم عمي أبا صالح". تعاقب الأيام وطول العشرة ألغت الكلفة الرسمية بين الرجلين لكن الاحترام والامتنان التي يحملها عبيد لهذا الرجل الجليل في تنام مستمر. "وعليكم السلام ابني عبيد. تفضل". والشيخ أبو صالح أحب عبيدا كصديق وكرفيق يحادثه ويشاركه همومه وأحزانه. جلس عبيد بجانبه وأكمل هو صب القهوة. حتى القهوة طعمها أجمل في بيت أبي صالح وكان هذا الأخير يشربها بنهم، ففي الجلسة الواحدة يشرب ما يقرب من العشرة فناجين بينما يكتفي عبيد بشرب اثنين أو ثلاثة. أمسك عبيد بالدلة النحاسية وانتظر حتى ينتهي الشيخ حتى يصب لنفسه فنجانا. لا يعلم عبيد كم فنجانا كان قد شرب أبو صالح قبل أن يأتي لكنه توقف عند الفنجان الثالث. ساد الصمت عدة دقائق، إذ كان الرجلان شاردي الذهن. عبيد كان متلهفا لإخبار أبي صالح عن مسعود. «لقد ألحقت مسعودا بحلقة المطوع خميس هذا الصباح" أعلن عبيد بحماسة واضحة. "حسنا فعلت، أنا فخور بك. كنت في الحقيقة راغبا في حثك على ذلك، لكنني لم أشأ أن أفرض عليك رأيي. أحمد الله على أنه هداك لتفعل ذلك من تلقاء نفسك". سكت الشيخ أبو صالح

لفترة طويلة قبل أن يأمره بصب فنجان آخر من القهوة. لقد كان شيء ما يحزن الشيخ أبا صالح ويحزّ في قلبه وكان عبيد يعرف ماهو هذا الأمر. فبعد ما يقرب من الستة أشهر على مقتل رؤوف اعترفت ابنة الشيخ عبدالرحمن أنها كانت حاملا والفتاة لم تكن متزوجة. لقد هزت الفضيحة أسرة الشيخ عبدالرحمن من الأساس وكادت أن تودي بحياة الشيخ عبدالرحمن المريض أصلا. ومما زاد الأمر سوءا عدم إفصاح الفتاة عن هوية الفاعل واكتفت بالقول إنه مجرد راع من قرية مجاورة كان مارا بقريتهم. طبعا لم يقنع هذا الكلام الشيخ عبدالرحمن ولا إخوانها الذين قاموا بضرب الفتاة وتعذيبها حتى تقر بالفاعل وهو ما لم تفعله. هذا الأمر زاد في ألم الشيخ عبدالرحمن الذي كان يحب ابنته كثيرا وآلمه أيضا أن الفتاة كادت تفقد حياتها أثناء عملية إجهاض الجنين. والشيخ عبدالرحمن كان من أعز أصدقاء أبي صالح منذ أن كانوا صغارا وهو أخو زوجته شيخة وكانت للشيخ عبدالرحمن مواقف عظيمة اتجاه أبي صالح لن ينساها أبدا. وهكذا كان للشيخ أبي صالح نصيب من الهم والحزن وهذا ما كان يكدره. سأل عبيد على استحياء "كيف حال عمي الشيخ عبدالرحمن الآن؟". وضع أبو صالح الفنجان أرضا وتنهد بصوت مسموع «المسكين طريح الفراش كأنه مشلول. قد هده الهم والأسى وأضمر جسده طول التفكير». توقف الشيخ أبو صالح قليلا ثم تابع كلامه كما اعتاد أن يحكي لعبيد "لم يرد ذلك المآل لابنته ولم يكن يرغب لها تلك الزيجة. ودائما يخبرني عن أسفه وندمه على تزويجها بذلك الرجل من أقربائها. كل ذلك من أجل أن يغطوا على الفضيحة. وهو رجل كريه

النفس التقيته عدة مرات، بخيل وقاس له سمعة سيئة لضربه زوجاته إذ كان متزوجا من ثلاث وابنة الشيخ عبدالرحمن أصبحت الزوجة الرابعة. هي أخطأت لا مراء في ذلك ولكنها فتاة صغير قد غرر بها" سكت الشيخ ثم أضاف بصوت عال وبعصبية "ومن منا لا يخطئ يا عبيد أخبرني، ألسنا كلنا بشرا ناقصين؟ من يرضى بذلك المصير لابنته؟ لماذا يدفعنا ذلك الشرف المزعوم لكي نتصرف كالحيوانات بل بصورة أحط؟ لماذا نقيم وزنا زائدا لما يقوله الناس وما يرونه لدرجة أننا نفقد إنسانيتنا؟". لم يحر عبيد جوابا واكتفى بهز رأسه.

قرب صلاة الظهر خرج الاثنان متوجهين إلى المسجد وعبيد في همّ وحيرة. فهو أولا كان مهموما لرؤية الشيخ أبي صالح في تلك الحالة من الحزن. ومن ناحية ثانية كان موضوع بنت الشيخ عبدالرحمن يلح عليه ويدفعه للتفكير. في الطريق إلى المسجد صادف الرجلان مسعودا ومريم عائدين من حلقة الدرس. استغل عبيد الفرصة وأخذ ينظر إلى مريم التي كانت قد غطت رأسها. وانتبه إلى قول الشيخ أبي صالح وهو يحمل مسعودا "أهلا بالبطل. أين كنت اليوم افتقدناك في البيت" ابتسامة الشيخ أبي صالح أسعدت عبيدا "لقد كنت مع الأولاد وكان علينا أن نصرخ عاليا وإلا ضربنا المطوع بعصاه الكبيرة» قال مسعود بكل طفولية. ضحك أبو صالح واضعا مسعودا أرضا وهو يثني عليه.

كانت النيران من حوله في كل مكان. زينب من خلفه تبكي وهي تمسك بطنها وتقول أسرع قبل أن يأتي الوحش. أخذ عبيد يركض بسرعة وزينب في أعقابه تكاد تلتصق بظهره. التفت خلفه ظانا أنه قد ابتعد،

ليرى الوحش قريبا منه حاملا في يد منجلا وفي اليد الأخرى زجاجة بها سائل أحمر. وحين رفع الوحش المنجل ليضرب به عبيدا أفاق عبيد وهو في بحر من العرق. كانت تنتابه الكوابيس منذ أن توفت زوجته زينب. لكنها قد زادت في الآونة الأخيرة وأصبحت أكثر واقعية. استغفر عبيد ربه وقام ليصلي الفجر ليستغل الفترة قبل أن تشرق الشمس ليسقي الزرع. كان التاجر فؤاد مسافرا يؤدي فريضة الحج وكان يود لو استطاع أن يرافقه صديقاه الشيخ أبو صالح والشيخ عبدالرحمن كما ذكر أبو صالح لعبيد. كان الشيخ أبو صالح قد أدى فريضة الحج قبل أن يأتي عبيد إلى قرية (الصفو) لكنه كان عازما أن يؤديها مرة أخرى إذا وفقه الله لذلك أو يذهب للعمرة على أقل تقدير. لكنه لم يشأ الذهاب وترك الشيخ عبدالرحمن الذي اشتد عليه المرض في الآونه الأخيرة. وبعد ذهاب التاجر فؤاد تغيرت معاملة حسين تجاه عبيد. فكان كثيرا ما ينهره أو يحمله أعمالا فوق طاقته وأصبح يتهمه بالسرقة على الملأ في كثير من الأحيان. وهو مالم يكن صحيحا، فطوال هذه السنوات كان عبيد مثالا ناصعا للأمانة والاخلاص. حتى عندما تكون هنالك وفرة في المحاصيل، لا تمتد يد عبيد إلى ثمرة واحدة إلا أن يعطيه التاجر بنفسه. ولم يكن مغيب التاجر فؤاد ليغير في الأمر من شيء. وهذه ليست المرة الأولى التي يسافر فيها التاجر فؤاد، فطالما كان يذهب في رحلات تجارية تمتد لأشهر ولا يطرأ على سير العمل مكروه. كان قد نسي طوال الفترة السابقة جريمة حسين أو أنه لم يعرها أية أهمية. فلقد كان رؤوف مجرما يستحق ما جرى له، وإن كان القتل عقابا مبالغا فيه لجريمة السرقة. لكن تلك

الحادثة طفت على السطح ثانية مع سوء المعاملة التي كان يلقاها من حسين. فكر عبيد كثيرا بكشف تلك الجريمة أو على الأقل يشكو سوء معاملته لأبي صالح، لكنه تذكر إحسان التاجر فؤاد له ولم يشأ أن يزعجه موقنا أن حسينا سينال جزاءه في الوقت المناسب.

في عصر ذلك اليوم عرض عليه الشيخ أبو صالح مرافقته لإحدى القرى من أجل إحضار دواء عله يفيد في شفاء الشيخ عبدالرحمن. "ولكن أين أولاده؟" سأل عبيد ليس على سبيل الاعتراض، فهو سيتبع الشيخ أبا صالح إلى نهاية العالم لو طلب منه ذلك، ولكن على سبيل التساؤل. "أحمد أكبر أبنائه في رحلة صيد مع رفقة له، ذلك الولد العاق، وعبدالملك قد رافق عمك فؤادا إلى الديار المقدسة. وأنت تعرف حالة وليد المعاق فهو لا يستطيع الحراك قيد أنملة ذلك المسكين". وكان فجر اليوم التالي موعد الرحيل بعد صلاة الفجر. "عمي، أستطيع الذهاب بنفسي. لا داعي لأن تتعب نفسك. فقط صف لي المكان وأخبرني بمَنْ عليَّ أن ألتقي". "لا لا، لم أتوقعها منك يا عبيد. أتحسبني قد هرمت ولا أستطيع المشي؟" قال الشيخ أبو صالح ذلك ضاحكا ثم أضاف "القرية على كل حال قريبة من هنا، مسيرة ساعة فقط. ثم إن الطريق إليها سهل منبسط". "هل تقصد قرية قبيلة البلوي؟" سأل عبيد في هلع. نظر إليه أبو صالح وغالب النبرة الضاحكة «نعم تلك هي وجهتنا. ما بالك خفت هكذا؟ هل تقلقك قضية رؤوف وسرقة المواشي؟ لقد حلت المشكلة بموت رؤوف. إذ رغم أنهم قد تسامحوا عن حقهم لمجرد أنهم سمعوا بموت ذلك الشقي المسكين، إلا أنني والشيخ عبدالرحمن أصررنا على

دفع قيمة المواشي المسروقة. عسى أن يخفف ذلك من حسابه عند بارئه، فالله يغفر لحقوقه بالتوبة ولا يغفر لحقوق الخلق إلا أن ترد الحقوق لإصحابها". عند وصولهم لآخر بيت في القرية، ظهر أمامهم حسين ابن التاجر كأنه عفريت مما أجفل له الرجلان. قال حسين بمجرد أن تعرف على عبيد «إلى أين أنت ذاهب يا وجه النحس؟" تلعثم عبيد من شدة المفاجأة ولخوفه من حسين الذي كانت عيناه تلتمع شرا في ذلك الفجر المظلم. إثر ذلك قال الشيخ أبو صالح بحدة "ماذا بك يا حسين؟ أهكذا تكلم الرجال. نحن ذاهبان لإحضار دواء لعمك عبدالرحمن الذي لا يسأل عنه أحد. اذهب الآن ولي حساب عسير معك ، أما كان الأجدر بك أن تقوم أنت أو أحمد الذي، لا يعرف أحد أين هو، بهذا العمل. اذهب من فورك". رمق حسين عبيدا بنظرة نارية كأنه هو الذي كان ينهره ثم مضى في حال سبيله.

غمرتهم الشمس بأشعتها الحانية حينما صاروا في منتصف الطريق، وتثاءبت الطبيعة البكر نسائم باردة تنعش الروح. توقف الرجلان لشرب اللبن و أكل بعض رقائق الخبز بالعسل الذي كان قد أعدته شيخة. "من يصدق أننا في موسم الصيف يا عمي مع هذا النهار البارد" قال عبيد وهو يمسح اللبن من على فمه. "لا تغرنك هذه النسمات الباردة فالوضع هنا في البرية يختلف كثيرا عن قريتنا، انتظر حتى ينتصف النهار حتى تتعرف الصيف الحقيقي" رد عليه أبو صالح. نظر عبيد إلى السماء الزرقاء وانتابه هاجس غريب بأنها تنظر إليه باستهزاء. عاودته الذكرى. الشيطان هو من يرسل إليك تلك الأحلام يا عبيد. في أحد أحلامه رأى

أن مسعودا يذبحه ويقول سأضحي بدمك يا أبي قربانا عله يعفو عنك الإله. تذكر خليلا وكلامه وتمثل له ذلك الحلم جليا الذي رأى فيه يضاجع بنت الشيخ عبدالرحمن. كان يود سؤال أبي صالح عن شيء لكنه نسي فسأله عوضا عن ذلك "كيف نعرف يا عم أن الله موجود؟". نظر إليه الشيخ أبو صالح بوجه غادرته الدماء وقال بصوت هلع "ما الذي يدفعك إلى السؤال عن ذلك؟" لم يجب عبيد ثم بعد برهة أضاف أبو صالح "أظنها العزلة يا ابني. نعم فهي السبب، اطرد الشيطان واستعذ بالله منه فإنه يوسوس لك". لم يقل عبيد شيئا وحدق في الأرض كأنما يتراجع عن سؤاله، لكن الشعور بعدم الندم على طرح ذلك السؤال أخافه. تفطن أبو صالح بأن عليه ألا يدع عبيدا حائرا بلا جواب، لأنه يظن به حسن النية «ابني العزيز عبيد، اعلم اني لا ألومك على تساؤلك وإن كان ينطوي على شيء من الكفر، وإنما لومي يقع على والديك لأنهما لم يعلماك ولم يدعا أحدا يعلمك. اعلم يا ابني أن الخالق يستدل عليه بمخلوقاته. انظر إلى ما حولك. من خلق كل تلك الحيوانات والنباتات والبشر، ومن أرسى الجبال ورفع السماء بلا عمد. وفكر قليلا فيما يكون حالنا بلا شرع إلهي ينظم حياتنا ويضع الحدود ويعاقب المسيء ويردع الظالم. أدعوك بعد أن نرجع بأن تحضر حلق الذكر التي يحييها المطوع خميس بعد صلاة العصر". لكن عبيدا يعرف كل ذلك لأن أمه كانت تعلمه ولم يكن في كلام الشيخ أبي صالح أي شيء جديد، ولم تشبع إجابة أبي صالح الشك الذي ينهش روحه. "ولكن هنالك من يقول إن الطبيعة أوجدت نفسها بنفسها وليس هنالك دليل قطعي بوجود خالق لها؟" لا

يدري عبيد كيف اهتدى لمثل ذلك السؤال وكيف واتته الجرأة على طرحه. فالبارحة فقط راوده حلم من أغرب ما رأى من الأحلام. كان حلما قصيرا لكنه يستطيع التذكر أنه كان جالسا في مدرج مع الألف من الناس وتحته منصة شبه دائرية يقف عليها شيخ ذو لحية بيضاء طويلة ويلبس رداء أبيض غريب الشكل. كان هذا الشيخ يسأل أسئلة وكان يجيب عليه البعض في الصف الأمامي، أما بقية الحضور فكان منهم من يضحك وكان منهم من يتعجب بصوت عال من أسئلة الشيخ التي بدت مستفزة. قام أبو صالح من مجلسه وأكمل مسيره نحو قرية البلوي صامتا وهو مطرق الفكر. ثم قال وهو ينظر أمامه " لا أدري ما الذي دفعك لمثل هذه الأسئلة، لكني أراها بادرة طيبة لتعمل عقلك وتبني ايمانك على هدى واقتناع لا على هوى واتباع. خليل الله إبراهيم عليه السلام مر بتجربة شبيهة بتجربتك. حاول أبو الأنبياء الاهتداء لربه عن طريق العقل والتأمل في الكون والطبيعة. وبعد معاناة مضنية وتجربة كل الاحتمالات هداه الله إلى الطريق القويم بأن ألقى الإلهام في قلبه. على ذلك يا ابني، فإن أعيانا إيجاد الدليل العقلي فإن لدينا الدليل النقلي ألا وهو القرآن الكريم. فانصحك بقراءته، فالقران أيضا يخاطبك عن طريق الحجة العقلية." أحب عبيدا هذه المناقشات مع الشيخ أبي صالح، فهو يحس بعدها بنوع من الامتلاء الروحي. أراد أن يؤسس لنفسه حجة ومنطق، وسعى أيضا لأن يثري عقله وروحه فكريا ببصيرة وعن علم، لكي يربي ابنه على أساس، ليكون هذا الابن قادرا على تحصيل العلم والاستفادة منه، ولِمَ لا، قد يصبح مسعود ابنه عالما أو كاتبا مفكرا

ذا شأن. لذا فكر فعليا في حضور محاضرات المطوع خميس.

وصل عبيد ومعه الشيخ أبو صالح إلى قرية (البلوي) في وقت الضحى. كان المكان يضج بالحياة، فالصبية على الطرقات يلعبون، والنسوة على عتبات البيوت جلسن يتحدثن فيما بينهن وأخريات افترشن الأرض وأمامهن حصر عليها تمر يعد لكي يوضع تحت الشمس. والرجال في الحقول يحصدون الليمون والمانجو والجوافة. مشى عبيد خلف الشيخ أبي صالح إلى بيت معزول في زاوية من خلفه تمركزت صخرة هائلة الحجم كأنها جبل صغير. الظلمة الشديدة في داخل البيت أوحت لعبيد أنه داخل كهف لا تنفذ إليه أشعة الشمس. كانت رائحة غريبة كريهة بعض الشيء ترحب بالزائر، رغم تصاعد سحب البخور في محاولة غير ناجحة لإخفاء الرائحة العفنة. خرج من الظلمة صبي شديد السواد كأنه قطعة من الليل. رحب بالشيخ أبي صالح بوجه طلق بشوش في حين رمى عبيد بنظرة شك خالية من التعابير. "أهلا مرزوق، أين الحاجة؟" سأله أبو صالح. «أهلا بك عمي. هي في الداخل بانتظارك» رد الصبي. ادخلوا إلى حجرة هي إحدى الحجرات الثلاث في هذا البيت الصغير. كان هنالك ضوء وحيد يأتي من فتحة على الجدار مضفيا على المكان بالتعاون مع دخان البخور جو غرائبي ساحر. كانت امرأة سوداء هائلة الحجم بصدر ضخم جالسة على ما يشبه المصطبة. ذكّرت هذه المرأة عبيدا بشيخة زوجة أبي صالح، إلا أن هذه المرأة، هي الحاجة كما دعاها أبو صالح، سوداء البشرة حاسرة الرأس، تزاحمت على رقبتها عقد وقلائد كثيرة صنعت من خرز رخيصة الثمن كما تبدو.

مدت يدها مسلمة على الشيخ أبي صالح واستغرب عبيد عندما مد أبو صالح أيضا يده ليصافحها. "أهلا بك يا عبدالله. كيف حالك، وكيف هي شيخة والبنات؟" قالت المرأة بصوت فخم يوحي بالسلطة والجبروت. وهذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها عبيد اسم الشيخ أبي صالح يخرج من فم مخلوق؛ إذ حتى أصدقاؤه المقربون كالتاجر فؤاد أو الشيخ عبدالرحمن لا ينادونه إلا بأبي صالح مما عمق من دهشة عبيد. «كلهم بخير والحمدلله. عافاك الله وسلمك. هل طلبي جاهز بحول الله؟» سألها أبو صالح كالمستعجل. حين اعتادت عينا عبيد على المكان الخافت الإضاءة، استطاع أن يرى عظام حيوانات وجماجم وصخور ملونة وعلب زجاجية بها شعر وحوافر وأسنان. ملأه ذلك المنظر رهبة وتوجس وسرت قشعريرة خفيفة في جسده. لم يكن المشعوذون غريبين على عبيد، إذ كانوا موجودين بكثرة من حيث أتى. لكن هذه المرة الأولى التي يدخل فيها إلى عرين أحدهم. مخبأ الشيطان. جاءه الخاطر الأخير حين رأى أسنان الحاجة المتناقضة شكلا ولونا، إذ كان بها مجموعة من الأسنان السليمة البيضاء تجوارها أسنان سوداء نخرها السوس مع وجود سنين ذهبين في فكها الأعلى. فتحت الحاجة المخيفة صندوقا خشبيا صغير الحجم كان بجانبها وأخرجت زجاجة صغيرة بها شراب غامق اللون. أمسكت الزجاجة بين إبهامها والسبابة ورفعتها عاليا وقالت "لقد عملت على هذا الدواء مدة شهرين كاملين وكلفني الكثير من الجهد، إذ تتطلب تحضيره موادا لا توجد إلا في الجنوب" وحين سلمته الزجاجة أضافت "عسى أن يكون سببا في شفاء صديقك عبدالرحمن". فتح الشيخ أبو

صالح كيسا كان في جيبه وأخرج قطعة نقدية. لمعان القطعة النقدية الفضي وصورة حاكم البلاد عليها أبهرتا عبيدا. «كلا يا عبدالله أنا لا آخذ نقودا من الذي أنقذ ابني". خرج الرجلان وعبيد ما يزال مأخوذا بما جرى في تلك الحجرة الصغيرة و أسئلة كثيرة تموج في رأسه يريد طرحها على الشيخ أبي صالح.

صلوا الظهر في مسجد قرية (البلوي) وجاء نفر كثير بعد الصلاة ليسلموا على الشيخ أبي صالح، أما عبيد فمنهم من سلم عليه بكل برود ومنهم من نظر إليه نظرة احتقار وتعال. وفي طريقهم للخروج من المسجد سمعوا صوتا من خلفهم يقول "إلى أين أنت ذاهب يا أبا صالح، أتظن أن بإمكانك الهرب بسهولة؟" التفت أبو صالح وراءه وحينها رأى عبيد ابتسامة عريضة مرتسمة على وجه أبي صالح الذي قال "أهلا بالشيخ عثمان، كنت أبحث عنك ولم أجدك بين المصلين". قابلهم رجل به قصر في الطول بجسم ممتلئ وكان يشبه الشيخ أبا صالح بصورة عجيبة كأنهما توأم، لكن الشيخ عثمان هذا كان غامق البشرة كأنه كان قد تعرض لأشعة الشمس لوقت طويل. تعانق الرجلان وطالت فترة الترحيب حتى ظن عبيد أنها لن تنتهي. في نهاية الأمر قال الشيخ عثمان "هيا الآن إلى البيت كي نتناول طعام الغداء". أحس عبيد بحرج شديد؛ إذ حتى تلك اللحظة لم ينتبه الشيخ عثمان لوجوده وشعر أبو صالح بذلك وقال لعبيد "تعال سلم على عمك الشيخ عثمان". وما كادت تلامس يده يد الشيخ عثمان حتى سحب هذا الأخير يده بسرعة. بعد الغداء وبعدما خرجوا من بيت الشيخ عثمان قال أبو صالح "ذلك كان الشيخ عثمان البلوي

شيخ قبيلة البلوي» ثم أضاف بعد لحظة "وأريدك أن تعذره على تصرفه الفظ فهو... هو لا يحب أصحاب البشرة السوداء". لم يقل عبيد شيئا، فبعد كل تلك التجارب التي مر بها تكّون عنده فهم للمجتمع العنصري الذي يعيش فيه رغم أنه يدعي الفضيلة والعدل. حتى في قرية (الصفو) التي أصبحت موطنه الآن، فهنالك من يتجنبه وينظر إليه بفوقية. ففي أحد أيام عيد الأضحى ذهب عبيد ليساعد رجلا في ذبح ثوره الضخم بعد أن كان قد ذبح ثلاثة ثيران قبل ذلك. ولعبيد تأثير عجيب على هذا الحيوان القوي. ففي حين يعجز ثلاثة رجال على تطويع ثور هائج، يأتي عبيد بكل هدوء ويضع يده على رأس الثور ويخاطبه بكلام لا يسمعه الآخرون. يصبح الثور بعدها طوع أمر عبيد كالمنوم مغناطيسيا ثم يأخذه عبيد رويدا رويدا إلى مكان النطع ويطرحه أرضا برقة وتأني. يأمر بقية الرجال بتثبيته جيدا ثم يمرر سكينه الحادة على رقبته ويتقبل نافورة الدم بترحاب كأنها هدية العيد التي كان ينتظرها. استدعاه ابن ذلك الرجل عندما كان عائدا إلى بيته. غمس يديه الداميتين في ساقية الفلج وهو يسأل الصبي إن كانت لديهم سكين معدة للذبح. وجد عبيد أمامه ثورا بنّيا وحشي الحجم ومنظر قرنيه الحادين يدلان على أن هذا الثور كان ثور مناطحة. كان الثور يرفض بعنادِ جبلٍ الخروجَ من الزريبة. أتاه الرجل صاحب الثور وهو يتلوى ألما من النطحة التي تلقاها من الثور وهو يشكو عناد الثور وقوته. دخل عبيد زريبة الثور الصغيرة غير متهيب وهو يترنم بلحن علّمه إياه أبوه من أهازيج البحارة. في البدء جفل الثور من حضور عبيد وأطلق خوارا حادا رافضا وجود رسول

الموت هذا. لمسه عبيد بكل رقة كأنه يلمس فتاة حسناء ودار حوله مرتين قبل أن يضع يده على رقبة الثور ثم قال لصاحب الثور "اذهب أنت وابنك خلف الثور وادفعاه برفق". انحنى عبيد على أذن الثور وقال هامسا "لا بأس... أرضك بيضاء تشرب لبنها دما....ترانكيلا...سماؤك زرقاء عظامها تلعقها الملائكة..". بدأ الثور في التحرك قليلا إلى الأمام، مترددا في قبول الموت كمصيره النهائي، إثر ذلك أعطى عبيد إشارة للرجل وابنه بالتوقف وقام بسحبه من لجامه. تحت شجرة كبيرة وارفة الظلال، استلقى الثور كالمستسلم بانتظار سكين عبيد. نظر عبيد في عيني الثور بحنان مودة، هل كان يستأذنه في أخذ حياته أم كان يودعه معتذرا بضرورة ما يقوم به؟ ثم كبّر وهو يذبح عنق الثور بسرعة رحمة بالحيوان. بعد أن أنهى الثور رقصة الموت ساعدهم عبيد في سلخ الثور وتقطيعه. لا يؤدي عبيد هذا العمل رغبة في أجر لكن العائلات التي يساعدها تعطيه شيئا من لحم الذبيحة صدقة له. لذلك قبل أن يذهب عبيد أمره الرجل بالانتظار قليلا. تأخر الرجل في الداخل كثيرا. بعدها سمع زوجة الرجل وهي تقول بصوت عال كأنها أرادت لعبيد أن يسمع ما تقول "كل هذا اللحم لذلك العبد، إنه كثير عليه ثم إنك تعلم أن هذا الثور هو مؤونتنا الوحيدة من اللحم للأشهر اللاحقة". جاء الرجل بقليل من اللحم وأُعطاه وقال كالمعتذر "سامحني يا عبيد ل... لقد أتعبتك معي". وكانت تلك العبارات والإشارات العنصرية تتكر كثيرا، أحيانا بقصد وسوء نية وفي أحيان أخرى بصورة عفوية، لكن عبيدا كان قد تعود عليها ولا يلقي لها بالا. "دعك من الشيخ عثمان الآن، إنما أريد

أن أسألك عن تلك المرأة التي أعطتك الدواء، هل تعرف هي شيئا عن مداواة الناس؟ ولماذا كنت تناديها بالحاجة؟ ولماذا رفضت أن تأخذ منك مالا؟ وماذا كانت تقصد بقولها بأنك أنقذت ابنها؟" ألقى عبيد بكل تلك الأسئلة دفعة واحدة. نظر الشيخ أبو صالح في وجه عبيد وهو يبتسم "مهلا علي يا عبيد، سأخبرك بكل ما تود معرفته. إنها بالفعل امرأة غريبة تثير التساؤل لكنها طيبة القلب. أعرف ما يدور بخلدك يا عبيد. هي ليست مشعوذة أو ساحرة، هي فقط تصنع التمائم ولها دراية بالأعشاب. وقد أخذت من أمها هذا العلم. أنا شخصيا لا أؤمن بهذه الحروز ولا أعتقد أن التمائم تدفع شرا أو تأتي بخير. فالله هو الحافظ وكل شيء بأمره تعالى. لكن أدويتها العشبية أثبتت فعاليتها في كثير من المناسبات. ويسمونها بالحاجة لأنها تتمنى زيارة الديار المقدسة بشدة وتذكر ذلك أمام الجميع، لكنها وبسبب مرضها لا تستطيع الذهاب". تعجب عبيد كيف أنها تعالج غيرها وتعجز عن مداواة نفسها. ثم تابع أبو صالح حديثه " دعني أحدثك عن قصة ابنها مرزوق. قبل ما يقارب من العشر سنوات كان هنالك نزاع بين قبيلة البلوي التي ينتمي إليها مرزوق وقبيلة يقال لها الشنادقة. والشنادقة أصلهم من جبال الجنوب أتو إلى هنا في ظروف غامضة. قوم جلف غلاظ شداد، نحتت طبائعهم من الجبال التي كانوا يعيشون فيها. يقال إنهم نزحوا بسبب الحرب مع دولة مجاورة وفقدوا نصف ماشيتهم. كانوا كثيرا ما يتعدون على مراعي القبائل والقرى التي تجاورهم. وفي إحدى المرات نزحت عدة رؤوس من ماشيتهم صوب قرية (البلوي) فأمر الشيخ عثمان بمصادرتها عقابا

لهم على تعديهم السافر. لكن الشنادقة لا يردعهم شيء، فأتوا في الليلة التالية واستردوا حيواناتهم وزادوا عليها. وأثناء الجلبة أسروا مرزوقا ابن الحاجة. جاء وفد من الحكومة في مسقط ليجد حلا لمسألة الشنادقة بعد أن تفاقمت الأمور وبدأت تخرج عن السيطرة. في نهاية الأمر وبعد مفاوضات عصيبة رضت القبيلة باقتراح الحكومة إعطاءهم أرضا خاصة بهم بها مراع خصبة بالإضافة إلى تزويدهم بعدة رؤوس من الماشية. لكن مرزوقا المسكين لا يزال في حوزتهم ولا أحد يعرف ماذا سيفعلون به عندما يرحلون. استنجدت الحاجة بالشيخ عثمان الذي كان يكرهها لعداوة قديمة. أرسل الشيخ عثمان رسلا لكي يستقصوا مصير مرزوق. الخبر الذي عاد به هؤلاء الرسل هو أن القبيلة على استعداد لإطلاق الصبي مقابل مبلغ من المال الذي لم تكن تملكه الحاجة. رفض الشيخ مساعدتها أكثر مما قام به، وأهالي القرية منهم من أعطاها ومنهم من اعتذر لكن المال لم يصل إلى مبلغ الفدية. لذلك حملت المسكينة نفسها وجاءت مشيا بمفردها إلى قريتنا طالبة عوني. ولأنها صاحبة فضل علي وعلى والدي من قبلي، لم أجد بدا من مساعدتها. فدفعت كامل المال المطلوب وأرسلت في أثرهم عبدالملك ابن الشيخ عبدالرحمن، إذ كانوا قد انطلقوا إلى موطنهم الجديد. وهكذا تحرر مرزوق وعاد إلى أمه". صوت أبي صالح العميق ونغمته الهادئة أوقعا في نفس عبيد حزنا وأسى على الحاجة وابنها، كما أضافت إلى رصيد أبي صالح عند عبيد من الإعجاب والتقدير الشيء الكثير.

وصل الرجلان قبيل صلاة المغرب بمعنويات عالية وبنشاط ملحوظ

كأنهما عائدان من رحلة استجمام. أحس عبيد بشوق كبير لأن يرى ابنه. رغم قرب وقت الصلاة قال الشيخ أبو صالح "سأذهب لبيت الشيخ عبدالرحمن رأسا لأعطيه الدواء". استغل عبيد الفرصة وقال هو أيضا " وأنا أطلب أذنك في الذهاب إلى بيتك لرؤية ابني". هبت ريح باردة فجأة كأن سبعين ماردا ضخما تثاءبوا في الوقت نفسه. كان هنالك صمت مطبق عمّ قرية (الصفو) في جلال ومهابة، لا يسمع إلا هسيس الريح الخافت ولم يكن هنالك مخلوق واحد يرى على الطرقات. كان هذا الوضع طبيعيا في الحياة القروية، إذ يأوي الناس إلى بيوتهم مع غروب الشمس وتتوقف الحياة خارج تلك البيوت. لكن الأمر بدا مختلفا في هذه المرة. شعر عبيد بجزع وهو يرى وجه أبي صالح وقد شاخ مرة واحدة في تلك اللحظات الغريبة. "نعم بالتأكيد يا عبيد، فأنت أصبحت من أهل البيت يا ابني" لم يزد أبو صالح كلمة واحدة بعدها ولى مسرعا. تراكم الشعور بحزن حاد في صدر عبيد كلما اقترب من بيت أبي صالح ورأسه يدور وأخذ يغني لاشعوريا وهو يتذكر أباه بينما آذان المغرب يرفع. استغفر في نفسه حين عاد إلى وعيه لكن الكآبة التي اقترنت بروحه لم تبارحه. ذكرى زوجته ظلت تعاوده كلما رأى ذلك الباب المزخرف. فتحت مريم الباب وهي تبكي فوقع قلب عبيد تحت رجليه. شلّه الخوف فتجمد مكانه كالصنم وهو يرى دموع مريم تنهمر. استند على الباب كي لا يقع. جاهدت مريم بكاءها وقالت وهي تشهق "تفضل عمي عبيد". "مس... مسعود" همس عبيد وشفتاه ترتجفان. لماذا يا ربي؟ لماذا أخذت ابني مسعودا؟ ماذا تبقى لي لأعيش لأجله؟

لماذا لا تأخذني أنا أيضا؟ فلا رغبة لي في العيش. سمع عبيد صوتا أرجع له جزءا من روحه وحين رأى مسعودا يجري خلف مريم ويمسك بثوبها رجعت له بقية روحه. "أبي، لماذا الجميع يبكي؟" أخذ عبيد ابنه في حضنه ثم التفت إلى مريم والسؤال نفسه مرتسم على وجهه. «خالي عبدالرحمن... قد مات» قالت مريم ثم أجهشت في بكاء مرير.

هل الموت فعلا جزءا من الحياة؟ هل هو قدر كل حي، من قبضته لا يستطيع أحد الخلاص؟ هل بإمكاننا نسيان أحبتنا الراحلون بسهولة ونمضي في حياتنا كأنهم لم يكونوا؟ وهل إن نحن استطعنا أن نتعايش مع رحيلهم نستطيع حينما تحل ذكراهم في نفوسنا أن ننقيها من الحزن الذي يرافقها؟ لماذا إذا يجزع البشر من الموت ويعتبرونه عدوا يتربص بهم الدوائر، يكرهون ذكره ويستعيذون منه؟ اجعل الموت صديقك، والحياة عدوة لك، تعش سعيدا.

الحزن الذي أحسه عبيد بسبب موت الشيخ عبدالرحمن كان مرده إلى أن هذا الموت قد غير حياة أبي صالح إلى الأبد. في بداية الأمر ظن أن وضع أبي صالح كان مجرد حزن مؤقت لا يلبث أن يمحوه الزمن. لكن انقضت خمس سنوات أخرى وحالة الشيخ أبي صالح السيئة تهوي في قاع سحيق وكآبته تزداد محلقة في سماء لا يحدها فضاء. اختفت بسمة أبي صالح التي كانت ترفع من معنويات عبيد حين يكون متكدرا. والآن حينما يأتي عبيد بوجه طلق ويرى وجه أبي صالح الحزين تنقلب سعادته حزنا. واختفت أيضا أحاديث أبي صالح الماتعة والعميقة المعنى التي تنسي عبيدا همومه، وحلّ محلها صمت يزيد جبال الهم

لدى عبيد صخرا. لكن ما هون الأمر وجعله محتملا لدى عبيد هو وجود ابنه مسعود إلى جانبه. فكان يقضي وقتا طويلا مع ابنه مسعود ويحادثه حديث الند للند، إذ أظهر مسعود ذكاء يفوق سنه كما واظب على حضور دروس المطوع خميس. برع مسعود في دروسه وحفظ شيئا من القرآن وكان يقرأه بتجويد وإتقان في الأحكام. وحين يرجع للبيت يجلس مع ابيه ويتدارس معه القرآن وبقية ما يتعلمه. أحب عبيد قصص الأنبياء التي كان يحكيها له مسعود، فما أن يتعلمها من المطوع خميس يأتي البيت ويحكيها لأبيه بشغف وحماسة. ولأن مسعود قد كبر الآن، وإن لم يكن قد بلغ بعد، ولأن مريم قد أصبح عمرها خمس عشرة سنة وهو سن الزواج في ذلك الوقت في الريف، فإن زيارات مسعود لمريم قد قلت الآن وأصبحت في حضور أمها شيخة. وكذلك الحال مع عبيد، فإن زيارته للشيخ أبي صالح كانت في تناقص حتى انقطعت كلية. أصبح الشيخ أبو صالح يتجنب الناس كلما استطاع إلى ذلك سبيلا. انعزل في بيته وكان لا يخرج إلا للصلاة. كثيرون يأتون لزيارته وحثه على الخروج لكنه كان يعتذر ويتحجج بتعبه وكبر سنه ومرضه الذي لم يكن إلا في القلب والروح. حتى زيارات بناته الأخريات لم تعد تبهجه ولم يعد يسعد بقدوم أحفاده الذين كبر بعضهم. وسبب حال الشيخ أبي صالح أسى وحزنا كبيرين لزوجته وابنته وأصابهم قلق شديد وخافتا أن تقضي عليه العزلة.

في عصر يوم شتائي هادئ طُرق باب عبيد. ظن عبيد أن أحدهم يحتاج لخدمة ما. كان مسعود عند المطوع خميس إذ أصبح يلازمه

كثيرا مؤخرا. قام عبيد يفتح الباب ليرى أمامه شيخه زوجة الشيخ أبي صالح. كانت شيخة قد هرمت كثيرا وزادت بدانة، لدرجة أن عبيدا شك أنها هي بادئ الأمر. كان صدرها يعلو ويهبط بسبب المشي وكان العرق يتصبب منها بكثرة رغم أن الوقت كان شتاء. وضعت يدها اليمنى على صدرها وهي تلتقط أنفاسها، بينما رفعت يدها الأخرى على سبيل الاعتذار. "السلام عليكم... سامحني يا ولدي، فلم أمشي هكذا منذ سنين عديدة» قالت وهي تصارع من أجل الهواء. عقد الارتباك والحيرة لسان عبيد ولم يدر ماذا يقول أو كيف يتصرف. كانت شيخة في مثل سن أمه ولم يكن هو بالغريب عليها، لكنه رجل بلا امرأة ويعيش مع ابنه لوحدهما، وهي امرأة على كل حال. اهتدى عبيد لأن يقول "لا عليك يا خالة، لماذا تكبدت عناء المجيء إلى هنا. لو أنك أرسلت أحد الصبية كنت أتيت في الحال". رفعت شيخة رأسها وقد استعادت تنفسها الطبيعي "لم أجد أحدا أبعثه ثم إنني أود التحدث إليك بنفسي" ثم تابعت بصوتها المتسلط المعروف عنها "أريدك أن تلحق بعمك عبدالله قبل أن يقضي". «ما به أبو صالح؟ هل هو مريض؟" قال عبيد باهتمام بدا متصنعا مما تعجب له عبيد بنفسه. "ألا تعلم ما به؟ ألا تعلم وأنت أقرب المقربين له؟ لم أظنك من ناكري المعروف يا عبيد. أهكذا تفعل بالذي أحسن إليك ووقف بجانبك. لماذا انقطعت عن زيارته وتركته في الوقت الذي هو في أمس الحاجة إليك؟» أحست شيخة بتعب مفاجئ فجلست على الأرض غير مبالية بالتراب. نظر إليها عبيد وأخذ يبكي، فلقد تذكر اللحظات الجميلة التي قضاها مع أبي صالح وذكره

حضور شيخة بزوجته زينب. نظرت إليه وقالت تواسيه " لا عليك يا ابني، لا تبكي. ولست ألومك كل اللوم، فلم يعد عبدالله كسابق عهده. لكن زيارتك له تبهجه وتسري عنه. حتى ابنك، بل ابني، مسعود لم يعد يزورنا مثل ما كان. ماذا حل في الدنيا يا ربي؟ ماذا صار للناس؟ لماذا كل هذا البعد، كل هذه القطيعة، كل هذا الحزن... كل هذا الرحيل».

صلى عبيد صلاة المغرب في بيته ثم خرج متوجها إلى بيت الشيخ أبي صالح. صادف ابنه وهو خارج من المسجد بصحبة المطوع خميس وعبدالملك ابن الشيخ عبدالرحمن. نظر إليهم عبيد وألقى السلام وتابع طريقه من غير أن يتوقف. فكر عبيد ما حدث قبل يومين حين دعي فجأة إلى بيت التاجر فؤاد الذي كان مسافرا كعادته. قابله ابنه حسين بعينين حمراوين لسبب لم يعد خافيا على عبيد. أحس عبيد بخوف مفاجئ حين أصبح بمفرده مع حسين في غرفة جلوس الرجال. لم تتغير الغرفة البتة فهي كما هي حين دخلها عبيد أول مرة لكن وقعها الساحر قد زال من نفس عبيد ولم يعد لزخرفها أي قيمة في عينيه. انتظر عبيد التقريع والإهانة من حسين كما تعودها دائما. لكن حسين قال بصوت هادئ متزن «كيف حالك يا عبيد وكيف مسعود؟». لم يكن إحمرار عيني حسين بسبب الكحول، فهل... هل كان يبكي؟ "الحمدلله نحن بخير بفضل الله ثم فضل أبيك الذي أدعو له بالصحة وطول العمر" رد عبيد بصوت لم يبد عليه التأثر من هذه الطيبة الغير متوقعة. "لقد دعوتك هنا لأخبرك أنني قررت الرحيل عن القرية والذهاب إلى مسقط بعد أسبوع كي أستقر بها نهائيا، لذلك...". أنزل حسين رأسه ثم تابع

كلامه كالمستحي "لذلك أريدك أن تسامحني على معاملتي السيئة لك". لم يقل عبيد شيئا من هول المفاجأة وظن حسين أنه لم يكن مقنعا في كلامه فأضاف "لقد خدمت أبي لسنوات عديدة ومازلت، ولم يبدر منك أي سوء بل كنت مثالا للأمانة والإخلاص وحبك للقرية وأهلها واضحا في الأعمال التي تقوم بها من أجلهم. لذا أطلب منك العفو والمغفرة وأرجو أن ندفن الأحقاد. واعلم أني لن أغادر القرية إلا بعد أن تسامحني». هز عبيد رأسه وهو ينظر للأسفل كي لا يظهر انفعاله ثم قال بعد صمت قصير «الله هو العفو الغفور. لم أكن أحمل لك أي ضغينة يا حسين. فلا بأس عليك لا تقلق". "أريدك أن تقولها، أريدك أن تنطق بها" قال حسين بإلحاح كأن رحلته كانت متوقفة على تلك الكلمة. ربما كان خائفا من أن يدعو عليه عبيد، فدعوة المظلوم لا ترد. "بالتأكيد أنا أسامحك وأدعو أن يوفقك الله في مسعاك ويمنحك السعادة". حين عاد للبيت أخبر عبيد ابنه مسعودا ما حدث معه ومع حسين. إثر ذلك قال مسعود أنه سمع أحدهم يقول إنه عُثر على الفتاة التي خطبها حسين مقتولة شر قتلة. فقد عثروا على جثتها وبها دم على عنقها ودم بين فخذيها؛ إذ القاتل اغتصبها ثم ذبحها أو العكس. ويعتقد أن ذلك الأمر هو سبب تغير حسين الذي يظن أن الله يعاقبه على ظلمه للناس.

فتح الباب وظهرت شيخة من ورائه. لم تكن مريم في البيت ولم يسأل عبيد عنها. وجد عبيد الشيخ أبا صالح يقرأ القرآن في زاوية المجلس قريبا من النافذة. "السلام عليكم عمي أبا صالح". توقف أبو صالح عن القراءة ورد السلام. جلس عبيد مقابل أبي صالح وصار وجها لوجه معه

وقال "كيف حالك يا عمي وكيف صحتك؟ سامحني على عدم زيارتك كل هذا الوقت". وضع الشيخ أبو صالح المصحف على رف محفور في الجدار عليه قطعة قماش ثم قال "لا بأس عليك يا ابني، فأنا الملام". جاءت شيخة بالقهوة والتمر وانضمت إلى الرجلين. أخذو يتحدثون في الأمور المعتادة لكن في اقتضاب شديد. حين غادرت شيخة قال أبو صالح "أريدك في مهمة يا عبيد". "أنت تأمرني يا عمي، اطلب أي شيء" قال عبيد في حماس. "حين تذهب لصلاة العشاء هذا المساء أريدك أن تخبر القوم أنني أريد الاجتماع بهم هنا في بيتي غدا ضحى". كان عبيد قد توقف عن الصلاة في المسجد لكنه عاهد أبا صالح على القيام بما كلفه به. نظر عبيد إلى وجه أبي صالح الحزين وروحه تقطر أسى من الحالة التي وصل إليها الشيخ. حينما طال الصمت أكثر مما يجب قال عبيد كي يدفع أبا صالح للكلام " ماذا سيدور في الاجتماع يا عمي؟». لم يجب الشيخ أبو صالح لفترة طويلة كأنما كان يفكر في الإجابة. ثم قال "اسمعني يا عبيد يا ابني. لم يشأ الله أن يرزقني بذكور، ولا اعتراض على مشيئته. وأنت ترى حالتي وقد تقدم بي العمر وليست لدي الطاقة لإدارة شؤون القرية. من أجل ذلك قررت أن أتخلى عن المشيخة وتسليم مقاليد القبيلة لمن هو أكفأ مني". لم يسبق لعبيد أن سمع عن شيخ تخلى عن منصبه بملء إرادته. "لقد أعددت جميع المخاطبات الرسمية كي أعلم الحكومة بذلك" أضاف الشيخ أبو صالح الذي بدا مشتت الأفكار. انتاب عبيدا فضول قوي لمعرفة خليفة أبي صالح في المشيخة لذلك سأله "وكيف سيتم اختيار الشيخ الجديد؟ هل

لديك مرشح معين أم ستترك الأمر بين يدي رجال القبيلة؟". "عبدالملك ابن الشيخ عبدالرحمن" قال أبو صالح بصوت أتى من أعمق بقعة في صدره. أعجب عبيد بقرار أبي صالح الشجاع ووافق على الشيخ الجديد وزكاه. فقد كان عبيد يحب عبدالملك لشهامته وعلمه وشجاعته وكانت له مواقف عديدة في الدفاع عن المظلومين ومساعدة الفقراء والمحتاجين. لكن ماذا عن أخيه أحمد وهو الأكبر سنا، ألن يعترض؟ باح عبيد بالخاطر الأخير فكانت ردة فعل أبي صالح نارية إذ قال "ليس له الحق في الاعتراض ذلك الفاسق العاق. ومن ثم قل لي بالله عليك هل رأيته مرة يشارك أهل القرية في فرح أو ترح أو في أي من الأمور المهمة؟ بل أخبرني هل تراه على الإطلاق في القرية؟ لكأنه غريب عنها وليس فرد من أفرادها". أراد عبيد أن يسأل عن مريم لكنه لم يستطع. وبالمقابل فإن الشيخ أبا صالح سأل عن مسعود ثم أثنى عليه "إني فخور جدا بابنك مسعود، لقد قمت بعمل جيد في تربيته. إنه مثال للولد البار والصالح. لكني أعتب عليه انقطاعه هو الآخر عن زيارتنا» لمح عبيد طيف أبي صالح القديم يعود ثانية واستبشر خيرا. وقبل أن يخرج عبيد من حجرة جلوس الرجال عانقه أبو صالح بحرارة وهو يقول «أرجو ألا تنقطع عن زيارتي يا عبيد فإن هذه الوحدة لا تطاق".

أدمن عبيد مناجاة الليل وتأمل سمائه المزدحمة بالنجوم. ينهض فجأة في منتصف الليل، يرى ابنه مسعودا غاطا في نوم عميق ويحمد الله على هذه الذرية الطيبة. فهو يعلم مدى تعلق مسعود بدينه وسمو أخلاقه والصحبة الحسنة التي يرافقها. يملأ ذلك طمأنينة وسلاما وراحة

بال، فهو يعلم أيضا أن الله إذا أخذ أمانته فسيوجد من خلفه من يدعو له ويطلب له الرحمة والمغفرة. يخرج عبيد في الظلمة الحالكة معتمدا على عينه الداخلية وعلى إحساسه ليهتدي إلى مغارة خليل ويطل من الكوة السرية ويجلس يراقب الليل والقرية النائمة تحت سطوته. تصبح نفس عبيد في سلام تام وعقله يتحول إلى صفحة بيضاء خالية من التفكير والقلق. في هذه الساعة فقط يصبح بمقدوره استرجاع الماضي والأحداث القديمة من غير أن تجرحه الذكريات الأليمة والسيئة. حيوانات هذا الليل تذهله وتبعث في نفسه الدهشة. فهديل ذلك البوم وصرير صرصار الليل مع همهمة مجهولة المصدر تعاونوا كسمفونية في إصدار موسيقى تماشت مع الوضع الساحر الباعث للاسترخاء. كان عبيد يجلس في موضعه ذلك من غير أن يشعر كم مضى عليه من الوقت. بعد ذلك يستغل وقته قبل طلوع الفجر في السقي وترميم ساقية الفلج والقيام ببعض الإصلاح إذا تطلب ذلك. بعد أن يصلي الفجر منفردا يخلد للنوم الذي لا يطول على أية حال، لكن إن جافاه النوم يقوم لتأدية مهام أخرى. في الليلة التي سبقت موعد رحيل حسين بيومين جاءه زائر غير متوقع. لاحظ عبيد وجود شبح يتنقل بين الطرقات في حذر وخفة كأنه لص. غاب ذلك الشبح لمدة ساعة داخل القرية ثم خرج ثانية باتجاه الوادي في سرعة. لم يهتم عبيد كثيرا للأمر، وحتى إذا أراد فعل شيء فإن الوقت قد فات الآن. لم يشعر عبيد بأية مسؤولية لأنه لم يتبين وجه اللص. بعد نصف ساعة فقط كان قد نسي الأمر تماما تحت تأثير الليل الجليل. فكر في الحديث الذي سمعه من بعض الرجال

حين كان الشيخ أبو صالح مجتمعا بهم. فلقد افتتحت الحكومة مدارس جديدة بها معلمون من مختلف الدول العربية يعلمون شتى العلوم. إن هذه فرصة جيدة كي يتعلم مسعود تحت يدي أساتذة خبراء لعله يرتقي سلم المجد ويصبح ذا شأن ذات يوم. ولكن هل تقدر على فراقه يا عبيد؟ ماذا... أتريد أن ترافقه، وماذا ستعمل في مسقط؟ هل ستعيش على ما ادخرته طوال عمرك؟ ترك التفكير في هذا الأمر في الوقت الحالي وقرر مشاورة المطوع خميس الذي زار مسقط عدة مرات. سمع عبيد أصواتا تأتي من داخل المغارة وتملكه العجب من ذلك إذ لم يسبق لأي حيوان أن دخل إلى هذا المكان، اللهم إلا من بعض الحشرات والزواحف. هل هي حية إذا؟ لكن الأفاعي والثعابين المرعبة السامة لا توجد في قرية (الصفو). كل ما هنالك هو أفعى الحشائش غير السامة التي لا تؤذي أحدا بل على العكس فإن الأهالي يحبون وجودها في مزارعهم لأنها تتغذى على الجرذان. بدا أن الصوت يتجه نحوه فتوجس عبيد وظل ينتظرعما يسفر عنه الأمر في ترقب وحذر. صرخ عبيد بصوت حاول ألا يكون عاليا "من هناك؟" وبصورة لا إرادية تكومت يداه على شكل قبضة. فجأة أطل وجه بشري متلثم. تراجع عبيد للوراء إلى حافة الفتحة وقال في خوف "من أنت، ها؟". أماط الرجل عن لثامه وهو يقول "لا تحدث أي صوت يا عبيد.. هذا أنا خليل".

« خليل...» كان ذلك كل ما قاله عبيد لمدة دقيقة على الأقل كردة فعل لحضور خليل. «ماذا تفعل هنا» أضاف عبيد في هلع شديد. «ما بك خائف هكذا يا عبيد؟ هذا أنا صديقك خليل» جلس خليل بجنب

عبيد متجاهلا نظراته المتسائلة والحائرة وأخذ يحدق نحو القرية كأنه يراها لأول مرة. وكأنه يتدارك ما فاته أخذ عبيد خليلا في حضنه، استقبل خليل هذا العناق في ذهول. حين ترك عبيد خليلا قال له "أين كنت كل هذه السنين؟ لماذا رحلت من غير أن تخبرني أو تودعني؟ ماذا حدث معك يا صديقي العزيز؟" قال عبيد في لهفة فضحت شوقه لصديقه الغائب. نظر خليل في وجه عبيد وقال مبتسما "اعذرني يا صديقي العزيز، كان لابد لي أن أرحل بتلك الطريقة كي أحقق غايتي"، ثم تابع "لقد بدأت في تأسيس تجارتي في مسقط والأوضاع تبشر بالخير مع قدوم الحكومة الجديدة التي تبدو أكثر انفتاحا من سابقتها، ربما سأدعوك لاحقا إلى زيارتي بعد أن استقر بشكل لائق". لم يتغير شكل خليل ولا وجهه الطفولي ولم يتغير حجمه الضئيل كذلك، لكن صوته أصبح أكثر فخامة وأعمق نغمة. قدر عبيد سن خليل بما لا يقل عن الثلاثين سنة. «وما تفعل في مسقط الآن؟ أي نوع من التجارة تزاولها هناك؟" سأل عبيد بصدق. تنهد خليل قبل أن يجيب "لم يكن الأمر سهلا في البداية كما اعتقدته سيكون. اتضح لي أنك في حاجة إلى أكثر من المال لتكون تاجرا في مسقط، فالتجار القائمون هناك لا يرحبون بأي منافسة. عملت نادلا في نادي الضباط التابع للقاعدة العسكرية في الحامية البريطانية كي لا أنفق من المال الذي ادخرته للتجارة. وحسنا فعلت. فبالإضافة إلى المال الذي جمعته من هذا العمل، استطعت أن أكوّن علاقات مع شخصيات مهمة تأتي إلى الحامية لتعاقر الخمر الذي لا يوجد مثله خارج القاعدة العسكرية. احترت في نوع التجارة التي سأقوم بها. أردت أن أعمل في مجال جديد وله مستقبل في ظل التغيرات التي

تشهدها البلد. تحدثت مع كل أصناف التجار كبيرهم وصغيرهم وراقبت البضائع التي تأتي إلى الميناء. ولم أهتدِ إلى نوع التجارة أو البضاعة التي سأجلبها إلى أن سمعت بالاختراع الجديد الذي وصل البلد، الكهرباء. وهكذا توصلت إلى أن أستورد المصابيح الكهربائية وبعض الأدوات التي تعمل على الكهرباء كالمذياع والتلفاز وبعض الأجهزة الأخرى. وبعد بحث طويل وجهد أكبر دخلت في شراكة مع ضابط بريطاني تكفل هو بإحضارالبضاعة إلى هنا على متن السفن العسكرية التي تأتي من انجلترا". تملك عبيدا عجب ودهشة شديدان مما حكاه له خليل وبدت له مسقط كأرض أحلام مليئة بالفرص. لكنه قد تخلى عن فكرة الذهاب إلى هناك للعمل وأراد ذلك لابنه مسعود، على أن يحظى بشيء من التعليم أولا. "تعال يا خليل أريد أن أعطيك شيئا" نزلا إلى حيث المغارة. اتجه عبيد إلى الزاوية الأشد إظلاما. رفع حجرا كبيرا وحفر قليلا ثم أخرج كيسا صوفيا ثقيل الحجم. من الصوت الذي أتى من داخل الكيس استطاع خليل أن يعرف محتوياته. وضع عبيد الكيس تحت قدمي خليل وقال "حين أخبرتني عن نيتك الذهاب إلى مسقط والعمل فيها، خطر لي أن أرافقك ولكن حدث ما حدث وتخليت عن الفكرة. لكني كنت قد بدأت في ادخار المال الذي كنت أكسبه حتى بعد اختفائك. والآن أنا أضع بين يديك عناء أكثر من عشر سنين". "ولكن لماذا تعطيني كل هذا المال يا عبيد، إنها نقود كثيرة؟" سأل خليل في فزع. "لن تكون ذا فائدة وهي مدفونة تحت التراب. ستنتفع أنت بها أكثر، ثم هنالك أمر ما أريدك أن تفعله لي". لم يقل خليل شيئا وظل ينظر إلى الكنز الذي أمامه وهو لايزال في حالة من عدم التصديق.

ثم تابع عبيد "كنت سأترك هذا المال لمسعود، لكني أفكر في أرساله إلى مسقط ليلتحق بإحدى المدارس هناك. لذلك أريدك بهذا المال أن تهيئ ذلك الأمر". "لا أستطيع يا عبيد... أرجوك لا تحملني هذه الأمانة... أنا لا أستحق كل هذا المال" تراجع خليل إلى الوراء كأنه يبتعد عن خطر يحدق به إلى اصطدم بجدار الكهف. لم يسبق لعبيد أن رأى خليلا بهذا الانكسار... بهذه الانهزامية... بهذا الضعف. فأحس أن هنالك أمرا آخر ما جعل خليلا في هذه الحالة. اقترب عبيد من خليل وأمسكه من كتفه وسأل "ما الأمر يا خليل؟ ماذا حدث؟ هل كان ذلك أنت الذي دخل القرية قبل ساعة من الآن؟ نحن إخوة يا خليل وأنت تعلم أن بإمكانك إخباري بأي شيء". دفن خليل رأسه في كفيه وقال "رؤوف... رؤوف". "ما به رؤوف؟" "اسمعني يا عبيد، ما أنا على وشك إخبارك به، بالغ الخطورة. وكما أنت ائتمنتني بمالك، فإنني سآتمنك على سري". مشى خليل حتى صار تحت الفتحة في أعلى سقف الكهف. انسكب ضوء القمر الفضي على وجه خليل، ورأى عبيد عمرا طويلا من الشقاء والألم منعكسا على صفحة وجه خليل. "لقد انتقمت لرؤوف أخيرا... غدا سيتخلص العالم من الظالم ومن ظلمه... سيحل السلام أخيرا على روح رؤوف وستنال العدالة الذي تستحقها». لم يكن من الضروري أن يستفهم عبيد أكثر ليخمّن ما جرى، لكن عقله فاجأه في سرعة ربطه للأحداث لذا سأل العبيد "هل أنت من قتل تلك الفتاة المسكينة أيضا؟". لم يقل خليل شيئا لكن الإجابة بدت جلية على تعابير وجهه. أَحْكم عبيد قبضته لخليل وقال "لماذا يا خليل؟ لماذا كل

هذا الجنون؟" «دعني يا عبيد، أنت لا تفهم العالم الذي نعيش فيه. إننا نعيش في غابة حيث القوي يأكل الضعيف. لكن القوة ليست كل شيء إن كنت ذكيا". "كلا يا خليل، نحن بشر لدينا قوانين وشرائع. لن أخاطبك باسم الدين لأنك لا تؤمن به، لكني أخاطبك باسم الإنسانية. نحن لسنا حيوانات يا صديقي. وإن كنت تود الانتقام لصديقك رؤوف فهنالك أساليب أخرى غير القتل. دعنا الآن نذهب للشيخ لنطلعه على جريمة حسين وسأكون أنا شهيدك على ذلك". حاول خليل محاولة غير جادة للإفلات من قبضة عبيد ثم قال "شريعتك هذه تقول إن القاتل يقتل وأنا لم أفعل غير ذلك". "وماذا عن تلك الفتاة المسكينة؟ ما ذنبها إن تقتلها. تعال معي يا خليل لأجل صالحك". أمسك عبيد بذراع خليل بكلتا يديه ثم دخلوا في صراع وعبيد كله عجب من القوة المفاجئة التي اجتاحته. في أثناء ذلك قال خليل الذي كان مجهدا مسبقا "دعني يا عبيد، أنا لن أعترف لهؤلاء المتخلفين. ضميري مرتاح ولست نادما على شيء. لم أشأ قتل الفتاة، كل ما أردت فعله هو سلبها عذريتها لكي أسبب بعض الألم لحسين لأنني كنت أعرف أن الحيوان كان يود الزواج منها. لكنها تعرفت علي فذبحتها. فعلت ذلك انتقاما لأجل أصيلة ابنة الشيخ عبدالرحمن، فالسافل هو الذي كان يواقعها. عرفت ذلك من رؤوف الذي رآهما في مرة من المرات وهما يفعلان الفاحشة. وهو لسوء حظه كان قد رآه حسين. فاستغل الوضع عندما كان محتجزا لدى قبيلة البلوي فهربه ثم قتله. ولهذا استحق الحيوان الموت، فلقد سلب الحياة والأمل من أناس كثيرين، وما لا نعلمه كان أعظم". بعد

ذلك دفع خليل عبيدا بكل قوة، فوقع الأخير وارتطم رأسه بحجر ناتئ. كان من الواضح أن عبيدا أصيب إصابة بالغة، فقد كان يتنفس بصعوبة وصدره يعلو وينخفض بسرعة. "عبيد هل تأذيت يا أخي؟ اعذرني لم أتعمد دفعك بتلك القوة لكنك لم تكن لتتركني. إن لدي مستقبلا باهرا ينتظرني في مسقط ومن المستحيل أن أفرط به". كانت الحياة تغادر عبيدا ببطء وكانت الكلمات التي تخرج من فمه متقطعة وغير مفهومة. شعر خليل بموجة هائلة من الندم لم يسبق له الشعور بمثلها من قبل. رأى خليل في عيني عبيد الزائغتين صديقه رؤوفا فشعر أنه قتل الاثنين مما زاد الشعور بالذنب في صدره. لم يدر خليل كيف يتصرف فالوقت يمر والفجر على وشك الانبلاج. لم يكن يستطيع حمله إلى القرية ولم يشأ أيضا تركه على تلك الحالة. أشار عبيد لخليل بأن اقترب فهوى خليل على ركبتيه كأنه قد طعن في ظهره. "اعتنِ.. اعتنِ بمم.. مسعود.. وأخبره بهذا السر عندما يحين الوقت المناسب..." أمسك عبيد بخليل من رقبته وسحبه إليه ثم همس له بكلام كثير في أذنه كأنه كان خائفا من أن يسمعه أحد. بعد أن انتهى عبيد ورفع خليل رأسه أضاف عبيد بصوت بالكاد كان يسمع "لا تقلق يا خليل... إني.. أس.. أسامحك... أشهد أن.. أن لا إله..." ثم تدلى رأس عبيد وأصبح جثة هامدة. استغرق خليل حوالي العشر دقائق في بكاء مرير ثم نهض ليغادر، لكنه توقف للحظة ورمق كيس النقود مترددا بشأنه. قرر أخيرا أخذه ثم ركض خارجا لتبتلعه ظلمة الليل.

الفصل الثالث

اسمي مسعود عبيد معيوف الساحلي. أحكي لكم قصة حياتي لأنها تلح علي بالخروج. تحاصرني الصور في يقظتي وتطاردني الرؤى في أحلامي. ثقيلة هي الأحداث في روحي. أصوات أسمعها باستمرار لأناس أعرفهم وغيرهم أجهلهم. لا تدعني هذه الأصوات في حالي حتى أخط شيئا على الورق. فالكتابة تساعدني على إسكات الأصوات التي في عقلي. أنفّس عن قلبي وأضع شيئا من ذلك الحمل الثقيل من الأحلام الكثيرة التي تغزو منامي حين أمسك بالقلم وأكتب، ولا يهم ماذا أكتب، المهم أنني أكتب وإلا عاودتني تلك الأصوات. حين أخبرت أحد زملائي في الجامعة عن هذه الأصوات نظر إلي كالمجنون وأشار إلي بصديق له يدرس علم النفس ولكني لم أهتم لمعرفة سبب هذه الأصوات أو كيف أتخلص منها. فهي، لغرابة الأمر، كانت تؤنسني وأحيان كثيرة تساعدني في الدراسة. فالفلسفة هي من تلك العلوم التي تحتاج إلى شيء من الجنون لأنها تدفع بالدارس لها إلى حدود العقل القصية وتغوص في تعقيدات الوجود بكل أنواعه، سواء كان وجودا ماديا أو الوجود في العقل. فشيء من الجنون ضروري لكي لا تصدمك المواضيع الفلسفية التي تتحدى المسلمات التي يعتقدها الناس.

حجرتي في الطابق الرابع تطل على شارع مزدحم بشتى أنواع النشاط

البشري، شارع يختزل الحياة المصرية في أدق تفاصيلها. ففي نهاية الشارع يوجد مقهى شعبي لا يخلو من رواد في أي ساعة من اليوم، كأنه يفتح على مدار الساعة. اعتدت الجلوس فيه بعد تناولي للعشاء، أشرب الشاي المصري وأقرأ الصحيفة وأستمع للناس وأرحل في أحاديثهم وأحيا معهم في قصص حياتهم. يوجد في الشارع نفسه محل للأغلال يبيع مختلف الحبوب والبقوليات. يجلس صاحب المحل، المعلم، خلف مكتب خشبي لا يوجد عليه إلا دفتر هائل الحجم كأنه محضر محكمة يسجل فيه على ما أظن حسابات الزبائن الذين يشترون بأجل. يعاونه رجل يماثله في السن، فهو الذي يستقبل الزبائن ويحضر لهم طلباتهم . ودائما ما أستيقظ على صيحات بائع الفول وهو يدفع عربته ليتمركز في وسط الشارع. وطبعا لا يفوتني أن أشتري صحن فول آكله على عجل واقفا لضيق الوقت. وهنالك بائع الفواكه الذي يحتل قسما كبيرا من الرصيف ومعروضه من الخضروات أكثر من الفواكه. ويوجد بين البناية التي أسكن فيها والبناية المجاورة فرن يبيع الخبز الطازج التي رائحته تحتل شقتي كلما أعود من الجامعة. تتراءى لي المآذن الطويلة والبنايات المتراصة والشوارع وكمية هائلة من البشر. هنا تزدحم الحياة، هنا تزدحم المشاعر، هنا تزدحم القصص.

أمي ماتت وهي تلدني، لذا عشت مع أبي وحيدا. لكن لحظة... هذا ليس صحيحا. لم أكن وحيدا. كانت هنالك مريم. أحببت أبي كما لم أحب أحدا غيره. لكنه رحل. اختفى ذات ليلة وعمري كان وقتها حوالي الرابعة عشر. كان أبي كل ما لدي في هذه الحياة. كان الصديق الذي

أحادثه. وكان الأخ الذي أشكو إليه. وكان كالزميل في مناقشته لي كل ما كنت أتعلمه في ذلك الوقت من المطوع خميس. وكان أكثر من ذلك كله. كان أبي منبع الحنان الذي لا ينضب. لكنه رحل، ولا أدري لماذا؟ كنت أصحو على وقع ترقرق الماء في الفلج حينما كان يسقي في وقت الفجر. أعتب عليه لأنه لم يوقظني لأداء الصلاة. أساعده قليلا ثم أذهب لحضور الدرس. في ذلك الصباح المشؤوم لم أسمع صوت الماء، فعلمت أنه الموت أو الرحيل. لم أذهب للدرس يومها وقررت انتظاره حتى يعود من حيث ذهب. لكن وقت صلاة الظهر قد حان وأبي لم يظهر بعد. صليت الظهر وذهبت بعدها إلى بيت عمي أبي صالح. وقفت أمام الباب وتذكرت كيف كان يتغير وجه أبي حين يواجهه ذلك الباب المزخرف. فتح لي الباب عمي أبو صالح بنفسه، وكنت أتمنى أن يفتحه شخص آخر. لم يكن يدري هو أيضا أين ذهب أبي وزاد من قلقي الحيرة التي بدت على وجهه. وقبل أن نتناول طعام الغداء سمعنا أصوات صراخ وعويل فانقلب صحن الأرز الأبيض الذي أمامي أسود كالليل. تركنا الصحن كما هو وهرعنا خارجا لنرى من الذي يحدث. لقد عثر على حسين ابن التاجر فؤاد ولي نعمتي ميتا في فراشه. كان أهله يظنون أنه كان نائما، لكن حين تأخر به الوقت ذهبوا ليوقظوه، لكن لم يمهله القدر. لم أكن أحب ذلك الإنسان، ولم يكن ذلك بسبب سمعته السيئة فحسب ولكن بسبب فظاظته في المرات القليلة التي تعاملت فيها معه. ولكن أين أبي؟ بعد الانتهاء من دفن حسين ساعدني شباب القرية في البحث عنه. قلبنا عنه كل حجر وسألنا كل من صادفناه، حتى إننا

وصلنا للقرى المجاورة ولم نعثر عليه. وأصبحت أنا كالمجنون من شدة القلق. ليس من عادته الذهاب إلى أي مكان من دون إخباري أو إخبار عمي أبي صالح. اختفى فجأة كما اختفى من قبله صديقه خليل. ربما يكون قد مات. ولكن إن كان ذلك صحيحا فأين جثته؟ الموت كان أمرّ الخيارات مدعاة للراحة. لكن المصير المعلق بين الموت والحياة كان أشدها مرارة.

في الأيام التي تلت غياب أبي تقربت كثيرا من مريم، وتوقدت الشعلة من جديد. كنت مشغولا عنها بهمي وجزعي على أبي. ولكن حين آوي إلى فراشي في الليل أستعيد رقتها وكلامها الحاني وبسمتها الرائعة. كنت أحب مريم كأخت لي، فهي التي ربتني في طفولتي وهي التي رافقتني في سنوات عمري الأولى. لكن حين كبرت وأصبحت أعي ما هو الجمال الأنثوي تغير ذلك الحب الأخوي إلى إعجاب ثم هيام طافح. لكن فارق السن بيننا منعني من إظهار ذلك. ولكن هل كان ذلك حبا حقيقيا؟ كمعظم الشبان في مثل عمري لم أهتم كثيرا في تحليل ما كنت أشعر به، بل كنت عبدا مطيعا لكل ما يأمرني به قلبي. كنت لا أزال يافعا وربما لم أحسن فهم مشاعري، وربما أيضا كنت في حاجة إلى رفيق ناعم يكون بجانبي. لكن الأمر استمر ولم تتغير مشاعري، بل كانت في تصاعد. عدت ثانية إلى زيارة بيت الشيخ أبي صالح بشكل يومي متذرعا بغياب أبي لكي أرى مريم. كانت نظرة خاطفة إليها تكفي لكي أغرق في حلم يقظة يبعدني قليلا عن واقعي المرير. فكرت كثيرا في مفاتحة عمي أبي صالح في الموضوع، لكن حداثة سني ستجعل مني

أضحوكة ثم كان هنالك أمر آخر. فعائلة الشيخ ذو نسب رفيع وكنت أنا.. كنت غير ذلك. معاملة الناس الطيبة لي في قرية (الصفو) أنستني أصلي ولون بشرتي. وأحسست، وأنا المداوم على حِلَق العلم والملازم للمطوع خميس وزمرة المتعلمين، بأنني لم أكن أختلف عن بقية أهل القرية في شيء، بل شعرت بأنني أحسن من كثير منهم. بعد حوالي أسبوعين من اختفاء أبي، جاء إلى بيت الشيخ أبي صالح رجل غريب. بعد أن غادر الرجل استدعاني أبو صالح ليخبرني وهو يضع بين يدي قطع نقدية بأن الرجل كان يعرف أبي. لقد ترك أبي لدى هذا الرجل مبلغا كبيرا من المال وأوصاه إن حدث له مكروه بأن يسلمه لي لكن بدفعات كل شهر. ولكي أحصل عليه كاملا كان علي الرحيل إلى مسقط لأنهي تعليمي. سألت عمي إن كان يعلم الرجل عما حدث لأبي أو إذا كان قد أخبره بأي شيء يدل على مكانه. لكن الرجل لم يكن يعلم أي شيء.

كان كياني مقسما بين البحث عن أبي ومعرفة مصيره وبين بركان العشق الهائل الذي كنت أكنه لمريم. لم نكن نتبادل إلا القليل من الكلمات ولم أكن أعلم كيف أخبرها أنني أحبها وأريد الزواج منها. المال الذي تركه لي أبي منحني شيئا من الشجاعة والثقة بالنفس وقررت إخبارها مستهينا بالعواقب. إنني أتثاءب. غدا لدي محاضرة الساعة الثامنة ولا مجال للسهر الليلة. آه كنت أود تدخين أرجيلة وشرب كأس من الشاي. سأضعك يا قلم الآن وأعود ثانية في الغد.

آذان الفجر في القاهرة له وقع ساحر وهو يشق ذيل الليل الأرجواني. يملأك بروحانية جليلة ويداعب حواسك في خشوع وتبتل. كنت

محظوظا جدا في الحصول على شقة فيها حمام خاص بها، رغم أن إيجارها باهظ الثمن ومبالغ فيه على حسب رأي الذين أخبرهم بماهية المال الذي أدفعه. لم أكن أفكر كثيرا بالمال، ولم أفكر كذلك في المستقبل. بل كنت أصرف بسخاء واضعا في الحسبان إمكانية رجوعي إلى قرية (الصفو) إذا ضاقت بي السبل. وعلى أية حال فوظيفتي شبه مضمونة كما أخبروني قبل المغادرة. فالحكومة في حاجة ماسة إلى موظفين لسد النقص في الموارد البشرية. فالبلد يشهد نقلة نوعية مع قدوم الحكومة الجديدة، فالكثير من المؤسسات الخدمية كالمدارس والوزارات تبنى والطرق تشق والعمران يرتفع. أما الوظيفة التي أفكر باتخاذها فهي مدرس، متأثرا بالمطوع خميس على ما يبدو. أعجبتني فكرة أن يكون لي طلاب أعطيهم من نهر معرفتي وأغرف أنا بدوري من بحر فضولهم ودهشتهم وتوقهم للعلم. أتناول صحراء أرواحهم وألقي فيها بذرة المعرفة علها تنمو لتصبح شجرة باسقة. ومن خططي القليلة المستقبلية رغبتي في تأليف الكتب. ربما أنا أكتب ما أكتبه الآن على سبيل التمرين تمهيدا لكتابة فكرية أو فلسفية.

في صباح هذا اليوم لم يتسنَ لي التوقف عند العم عبده الفوال لضيق الوقت، وكم تأسفت لهذا الأمر إذ ظلت معدتي تعزف لحن الجوع طوال المحاضرات الصباحية. انتظرت صديقي حمدي وذهبنا إلى كافتيريا الجامعة. ولولا حمدي هذا لكنت أتهادى في شوارع القاهرة وحيدا لحبي الشديد للوحدة والعزلة. في قاعة المحاضرات أجلس بعيدا عن بقية الطلبة لا أتكلم معهم إلا إذا اقتضت الحاجة، وهم بدورهم احترموا

رغبتي وتركوني في حالي. في السنتين الأوليتين درست اللغة العربية وحصلت على شهادة المعلمين ولكن الفلسفة استهوتني، متأثرا لمقالة للفيلسوف المصري زكي نجيب محمود في جريدة الأهرام، فأخذت سنتين أخريتين لدراستها. كنت قد تسلحت قبل أن أدخل معترك الفلسفة بقراءة مكثفة لكتب الفلسفة وكل ما يقع في يدي من مقالات ودراسات، وكانت قد آتت أكلها. فها أنا في سنتي الأخيرة في انتظار الامتحانات النهائية خلال أقل من شهرين. يستقبلني حمدي بابتسامته المخلصة ذات النكهة الصعيدية. "آيه يا عم، مالك مش على بعضك؟ شكلك مش نايم كويس". أمنت على كلامه، فلم أنم بشكل جيد ليلة البارحة. فقد أيقظني كابوس في منتصف الليل. سمعت طرقا على الباب يعلو ويخفت. كأن الطارق كان مترددا. انتابني خوف شديد من طارق الليل هذا. كانت الظلمة تلف المكان كعناق حبيبين تلاقيا بعد غياب طويل. لم أهتدِ إلى مفتاح الضوء فتلمست طريقي نحو الباب مصطدما بهذا الكرسي وتلك الطاولة. كان الزائر يلبس البياض وكان مولي ظهره ناحيتي. استدار في بطء وإذا بوجهه تشتعل فيه النيران. مد يده التي كان بها نقود ملطخة بدماء ثم استفقت من حلمي المركب. كان تلك هي طبيعة أحلامي، شديدة التعقيد، حلم داخل حلم، وفي أحيان أكون أغرق في ثلاثة أحلام مما يجعلني غير متأكد حينما أصحو، هل أنا في عالم الواقع أم لازلت أحلم. من أجل ذلك أجلس على سريري قرابة الخمس دقائق قبل أن أنهض بشكل تام.

حمدي يدرس الفلسفة مثلي. لكنه، والحق يقال، أذكى مني. فهو

يكتب في صحيفة الجامعة وله مقالات في الصحف الكبرى كذلك. ينظم الشعر ويشارك في قراءات شعرية كثيرة. شاعراه المفضلان هما أمل دنقل وصلاح عبدالصبور الذي خلد قريته دنشواي في قصيدة شهيرة له بعد المذبحة التي قام بها الإنجليز. شاب أسمر وسيم، خفيف الدم مقبل على الحياة وذو خلق عال. لم أكن لأطلب صديقا أفضل منه، فقد جعل حياتي في القاهرة أكثر سهولة. "ولكن لماذا اخترت الفلسفة؟" سألته ذات أصيل بينما كان يرافقني إلى محطة الباص. نظر إلي بابتسامته السمراء وقال "همي الأكبر في هذا العالم هو أن أغير حياة الناس نحو الأفضل ولم أجد أنسب من السياسة لفعل ذلك. رغم أن الناس تحترم الشخص المثقف صاحب الشهاداة والتعليم العالي، إلا أن السياسي الناجح يجب أن يكون مفوها وفصيحا، لديه منطق وأسلوب مقنع في الكلام. والفلسفة تعلم دارسها كيفية التحدث بمنطق وإقناع. ومن ناحية أخرى فإني أعتبر الفلسفة من أنبل العلوم؛ لأنها ببساطة تعنى ببقية العلوم. وأنا على أية حال أود دراسة القانون كذلك وما الفلسفة إلا تمهيد نحو هدفي ذاك". في طريقي نحو الشقة مررت بشواء واشتريت كباب واشتريت أيضا بعض الخبز من الفرن اليدوي الملاصق لبنايتي. وجدت في الفرن ابنة الفران التي تتولى أمر البيع بينما يقوم أبوها بالخبز. لكنه في ذلك اليوم لم يكن موجودا. كانت البنت في حوالي السادسة أو السابعة عشر من عمرها تلبس جلبابا نسائيا كالذي تلبسه الفلاحات. لم يكن بها ما يشد الانتباه. كان جمالها عاديا وهادئا. لكني أعجبت بابتسامتها الخجولة وصوتها الخافت الناعم.

أكلت عشائي وعملت بعض الشاي. أخذت أقرأ قليلا في كتب دراستي ثم قررت الخروج للجلوس في المقهى على الزاوية وكان يدعى قهوة المعلم بدوي. في السلم صادفت الست عواطف وهي مطلقة تعيش وحدها مع خادم لها وكانت امرأة جميلة رغم انها قاربت الأربعين كما سمعت من العم جابر المالك للشقة التي استأجرها. «مساء الخير» «يسعد مساك يا أستاذ، أزيك؟" لم نكن نتبادل أكثر من كلمات الترحيب والسلام. كان بالي دائما ما يذهب إلى مريم كلما رأيت فتاة أو سيدة جميلة وأشعر بالجرح يفتح ثانية لتجدد فيه دماء الألم.

بعد صلاة العصر بعد حوالي السنة من اختفاء أبي اجتمع بي المطوع خميس. كنت قد سلمت باحتمالية موت أبي رغم أني لم أبعد الأمل في العثور عليه. بالإضافة إلى ذلك فإن حبي لمريم كان يؤرقني ويشغل عقلي وتفكيري. وجدت نفسي أكثر جرأة حين أكون معها مع التساهل الذي كان يبديه العم أبو صالح والعمة شيخة فيما يخصنا. كانت مريم تنتظر أن يجيئها خاطب في أي لحظة. وبالفعل فلقد تقدم لها ثلاثة شبان من بينهم محمود ابن شيخ قبيلة البلوي، لكنها رفضتهم جميعا. وكنت في عز هلوستي وأحلام يقظتي أعزو ذلك إلى رغبتها في الاقتران بي. لكني لم أقل لها أي شيء ولم ألمح كذلك إلى رغبتي في الزواج. كنا نتحدث في كل شيء ونسترجع ذكريات الطفولة. حدثتني عن أمي في الفترة قبل أن تلدني وعجبت من قدرتها على تذكر كل تلك التفاصيل وهي في تلك السن الصغيرة. لكني لم أستطع حتى تلك اللحظة إخبارها عن حقيقة مشاعري. كنا في الغالب نقف أمام البيت لنتحدث حينما لا يكون

عمي أبو صالح موجودا في البيت، وإلا فإنها كانت تقتحم علينا مجلس الرجال وتشاركنا الحديث بكل أريحية. كان ذلك الفعل يزعجني لأنه كان يوحي بأنها كأختي ليس إلا. "أبشر يا مسعود لقد استطعت تسجيلك في مدرسة في مدينة مطرح بعد أن كنت قد استخرجت لك وثيقة الهوية" قال لي المطوع خميس بوجه بشوش. أسعدني ذلك الخبر وأحزنني في نفس الوقت. كنت أتوق للخروج من قرية (الصفو) ومن الجو الحزين الذي خيم على حياتي. كنت أريد أن أرى عالم آخر وأقابل أناسا جددا. وكنت كذلك في فضول لرؤية البحر. لكن أحزنني فراقي لمريم وابتعادي عنها. ولم أكن أود التفريط في التقارب والتفاهم الذي بنيناه سوية. كنت أود أن أخطبها من نفسها على الأقل قبل أن أذهب. ولكن السؤال الذي كان يقلقني هل ستنتظرني حتى أنهي دراستي وأعود لأتزوجها؟ وفي خضم كل ذلك كنت قد نسيت، أو تناسيت فارق السن بيننا. إذ لم أشعر بأنها كانت تكبرني بخمسة أعوام. فقد كنا غاية في الانسجام والتفاهم، أفكارنا تتشابه وأحلامنا تلتقي والوقت كان يمر بسرعة حينما نكون معا. إن لم يكن ذلك يسمى حبا، فلا أدري ما هو. "ستلتحق بالمرحلة المتوسطة وتدرس بعدها خمس سنوات أخرى من بينها الثانوية بسبب سنك ولأنك كنت قد تلقيت علوم اللغة والدين وباستطاعتك القراءة والكتابة. كما استأجرت لك غرفة قريبة من المدرسة ودفعت إيجار سنة كاملة مقدما. وهذه الأخيرة هي هديتي لك" أضاف المطوع خميس. كان المطوع خميس من الذين كنت سأفتقدهم في قرية (الصفو) مع الشيخ أبي صالح والعمة شيخة

ومريم. أما أصدقائي الآخرون بل بالأحرى صديقاي فكانا قد رحلا أيضا. سالم ذهب إلى أبوظبي بحثا عن عمل وسامي قد ارتحل إلى العراق ليكمل دراسته وكنت أغبطه على ذلك. "شكرا جزيلا أستاذي العزيز، جزاك الله عني كل خير. لكن لماذا كلفت نفسك بدفع إيجار الغرفة؟ هذا كثير جدا" قلت له على سبيل المجاملة. "ليس هنالك أية مشكلة فالخير كثير وإنما أنت ذاهب لطلب العلم والمنفق على طالب العلم له الأجر العميم".

قبل يومين من رحيلي إلى مسقط ذهبت إلى بيت العم أبي صالح وفي بالي هدف واحد. بعد أن جلست مع عمي أبي صالح وقبل أن أستأذن في الانصراف، أعطيت مريم إشارة بأن تتبعني إلى الباب كأنها تشيعني. كنت أمشي ببطء ومريم من خلفي وقد حرصت ألا ألتفت. كنت كأورفيوس الذي نزل إلى العالم السفلي ليسترجع زوجته المتوفاة التي كان يحبها حبا شديدا. وافق بوسيدون إله العالم السفلي على إرجاع يوريديس زوجته أورفيوس على شرط أن يمشي هو في الأمام وهي تتبعه من الخلف وألا يلتفت إليها حتى يخرجوا من العالم السفلي. ولكن قبل أن يصلوا بقليل لم يستطع أورفيوس مقاومة شوقه لزوجته ولأنه كان قد انتابه الشك أيضا من أنها تمشي وراءه، فالتفت وإذا بزوجته تختفي وتعود إلى العالم السفلي إلى الأبد. لم أكن على علم بهذه الأسطورة في ذلك الوقت بالطبع ولكني لم أشأ أن أبدي تلهفي وشوقي. وقفنا أمام الباب من غير أن نقول شيئا للحظات. نظرت هي إلى الأسفل بانتظار أن أقول ما أردت قوله. "إني راحل بعد يومين إلى مسقط لأكمل

تعليمي" كانت تعرف ذلك إذ كانت حاضرة عندما نقلت الخبر إلى عمي أبي صالح لكنها قالت كأنها تسمعه لأول مرة "أتمنى لك التوفيق والسداد وأطلب منك أن تعتني بنفسك في الغربة وأن تبتعد عن الرفقة السيئة". كانت لا تزال تنظر إلى الأسفل، لا عن خجل وإنما لأنها لم تشأ أن تضغط علي ولم ترد استعجالي. "مريم" قلت ذلك ثم سكت. ثم تابعت بعد بلعت ريقي "لقد كنت رفيقة دربي طوال هذه السنين ومؤخرا كنت الصديق الذي أعانني في عبور محنة فقدان أبي. وأنت لست في حاجة لأن تتعرفي علي أكثر فإنك تعرفيني أكثر من نفسي". شعرت بحاجة ملحة للتبول. أظنها بسبب ارتباكي فعاجلت بالقول "أنا أحبك يا مريم وأريدك أن تكوني زوجة لي". حين قلت هذه الجملة الأخيرة رفعت رأسها ونظرت في عيني بعمق لكنها لم تقل شيئا. اختفت الرغبة في قضاء الحاجة للحظة فانتهزت الفرصة لأقول "لن أخطبك رسميا الآن لكي لا أربطك معي. بل سأفعل ذلك حين أعود من مسقط وأنا.. وأنا أكبر سنا وقد أنهيت دراستي". بنصف ابتسامة ولكنها كفيلة بهز كياني قالت "لقد فاجأتني.. لكن... آه... لن أقول إنني كنت أعتبرك كأخي ولكن أنا أكبر منك و.. لا أدري ماذا أقول.. أنا لست في عجلة من أمري كي أتزوج لكن... لا أعلم يا مسعود لا تنتظر إجابة مني الآن". شعرت بأن قطرات من البول تتدحرج على فخذي لكني لم أكن لأخرج من غير نتيجة واضحة "لا أريد منك أجابة الآن بل وعد بأن تنتظريني" قبضت بقوة على مزلاج الباب الحديدي كأنني أستعين بذلك في التغلب على رغبتي الملحة بالتبول «أنت تعلم أنني لا أستطيع أن أعدك بذلك.

إنني في سن العشرين من عمري والبنات في مثل سني لا يبقين طويلا من دون زواج. ماذا سيقول الناس عني وأنا أرفض الخاطب تلو الآخر وماذا سيظن بي والداي". وحين رأت الجزع على وجهي أضافت كي تواسيني "ولكن سأعدك بالتالي، إن لم أرَ في أي متقدم الزوج الصالح لي فلن أقبل به حتى لو بلغت الثلاثين" ولأول مرة منذ أن كنت صغيرا لمست يدي ثم أغلقت الباب بسرعة. لو أن الملامسة استمرت لوقت أطول لكنت أطلقت شلالا من البول في مكاني ذاك.

من موقعي على الرصيف ألقيت بنظرة على الفرن فرأيت الفران وابنته يغلقان المحل. تلاقت نظراتنا أنا والفتاة لكنها أشاحت ببصرها بسرعة. تابعت طريقي نحو المقهى. ألفيت العم جابر فدعاني للجلوس معه. العم جابر أرمل في الأربعين لكن جسمه الضئيل والتجاعيد الكثيرة التي تملأ وجهه توحي بأنه في الستين أو السبعين من عمره. طلب لي أرجيلة على حسابه وأعاد مدحه المتكرر لي بسبب عدم تأخري في دفع الإيجار ولأنني لا أتذمر من رفع قيمة الإيجار سنويا. لعبنا الطاولة سوية وكعادته غلبني. كان صوت السيدة أم كلثوم يصدح في ذلك المقهى باستمرار والعم جابر يهز رأسه طربا ويردد الكلمات بصوت خافت. دائما ما كان يعيد نفس أسئلته عن المكان الذي أتيت منه وكنت أنا بدوري أعيد عليه نفس الكلام. لم يكن، أغلب الظن، يبحث عن إجابات لتلك الأسئلة، إنما يريد أن يسمع صوت إنسان يحادثه بغض النظر عما يقوله. كان العم جابر يدخن الحشيشة في أرجيلته وكان يدعوني لأن يضع شيئا منها في أرجيلتي لكني كنت أرفض. ففي المرة الوحيدة التي جربت

فيها تدخين الحشيشة انتابني صداع هائل أحدث صدعا في دماغي من قوته. حتى المعسل العادي كان يوفر لي من السطل ما يكفيني لكي أشعر- وأنا أمشي- أن الأرض التي تحتي هي التي تتحرك وأنا واقف في مكاني. حين عدت من المقهى عدت لأكتب ما تقرأونه وأنا أرى القمر يبتسم إلي بينما هو يقترب.

وجدت نفسي في غرفة بيضاء بلا نوافذ ولم يكن هنالك باب مكان الباب. كنت أنفث دخانا بسبب تدخيني الأرجيلة وصدري كان تشتعل فيه النيران. بحثت عن ماء أشربه. خرجت من الغرفة لأجد نفسي في ردهة وغرف كثيرة كالتي خرجت منها مصطفة على جانبيه. جعلت أركض وأركض لكن مزيدا من الغرف كانت تظهر لي. من ترى كان يحتجزني ولأي غرض؟ وبينما أنا أركض وقعت في حفرة وأنا أسمع صوتا مألوفا لدي لامرأة تقول "لا تنظر خلفك يا أورفيوس". كنت على وشك السقوط داخل البئر الموجود قرب بيتنا في قرية (الصفو). لم أتأنى حيث وقعت أرضا. نهضت واقفا ورأيت أبي يحمل امرأة تبدو ميتة بين يديه. أبي أين ذهبت. كان ينظر نحو المرأة وهو يبكي ويصرخ هو ليس مجنونا أنتم المجانين. يا أبي عد إلي إني في حاجة إليك. ابتعد عنها يا وحش وإلا قتلتك. ابتعدي عن النيران يا زينب. مشى أبي نحو البئر غير عابئ بوجودي ورمى الجثة داخل البئر ثم قال لي كيف نعرف أن الله موجود. ثم استفقت.

في صباح يوم رحيلي إلى مسقط قمت بزيارة بيت عمي أبي صالح. وجدت عمتي شيخة تبكي لفراقي أما عمي أبو صالح فقد ضمني بقوة

مرتين، مرة حين دخلت عليه ومرة حين كنت على وشك المغادرة. "لن أوصيك بشيء يا ولدي فأنت أعقل من أي طيش. فقط لي رجاء بأن تزورنا متى ما سنحت لك الفرصة". كان عمي أبو صالح غائر الوجه بسبب الأعوام الإضافية التي أضافها الحزن إلى عمره الأصلي. لم تكن مريم في الجوار وكنت جزعا من الذهاب من غير أن أراها. خرجت من حجرتها كأميرة تطل على رعيتها. لحظتها كانت أجمل من أي وقت مضى، تجللها ابتسامة ملائكية ذات سحر نافذ. كان هيامي على وشك دفعي لاحتضانها وتقبيل خدها الوردي. لكن بالطبع لم يكن ذلك ممكنا. وحتى لو أردت تسليم قيدي إلى جنوني، فلم أشأ أن أسبب الأذى لعمي أبي صالح وعمتي شيخة فلقد كانا كل ما تبقى لي من عائلة. "خذ بالك من نفسك ولا تدع لمسقط أن تنسيك إيانا. وفقك الله ورافقتك السلامة" الصورة الرسمية التي ودعتني بها مريم آلمتني قليلا مثل ما آلمني قبل ذلك عدم حماسها لعرضي بالزواج منها. كان المطوع خميس ينتظرني في الخارج ليرافقني إلى المكان حيث توجد السيارة التي ستأخذني مسقط. لم أكن قد رأيت سيارة من قبل، فلم يكن بإمكان أي سيارة القدوم إلى قريتنا أو أي من القرى المجاورة بسبب وعورة الطريق. اجتزنا الوادي الذي كان يخطه سواق صغيرة من الماء. كان هنالك الكثير من الطيور المهاجرة تحلق في الأجواء هربا من فصل الشتاء القارص من حيث أتت. صادفنا كذلك ظبي صغير كان يشرب الماء في واقعة نادرة لأن هذه الحيوانات تتجنب عادة الأماكن المأهولة بالبشر. سمعت المطوع خميس يترنم ببيت شعر لقيس مجنون ليلى الذي كان قد صادف ظبيا

أيضا فألقى عليه هذا السؤال شعرا: «أقول لظبي مر بي وهو شارد ** أأنت أخو ليلى فقال يقال». بعد ذلك عبرنا سهلا فسيحا منبسطا حيث صلينا الظهر تحت ظل سدرة. ثم نزلنا من منحدر إلى قرية كانت كثيفة البساتين وأشجار النخيل، وتراءت لي من ذلك العلو الشاهق كواحة في قلب صحراء جرداء. تناولنا طعام الغداء في بيت أحد الإخوة وبعد صلاة العصر سمعنا هدير مركبة كانت واقفة أمام المسجد. كانت من نوع اللاندروفر، رمادية يغطيها غبار كثيف كأنها فرس عائدة بظفر من ساحة الوغى. كانت حقيبة السيارة ملأى بالمنتوجات الزراعية المحلية تنقل لكي تباع في أسواق مسقط كما أخبرني بذلك السائق. انطلقنا على وقع أنين السيارة الصاخب التي كانت تتقافز بسبب الطريق الوعر في رقصة يشاهدها الموت باستمتاع.

كانت تنتابني حالات صداع حادة مؤخرا، أعجز فيها أحيانا من الرؤية جيدا. لم أهتم بها كثيرا إذ كانت تأتي في فترات متباعدة شأنها شأن الأصوات. حين عدت مساء اليوم طُرق بابي فجأة. كنت أقرأ رواية لنجيب محفوظ والنعاس يراود مآقيَّ في خجل. بين كل إغفاءة سريعة وأخرى كنت أرى حلما قصيرا. أقرأ صفحة أو اثنتين ثم يسرقني النوم للحظات. كانت أحلاما غير مترابطة وغير واضحة وأحيانا أحلم بأحداث الرواية التي كنت أقرأها. وضعت الكتاب جانبا ونهضت لكي أفتح الباب. كانت هنالك فتاة واقفة تنظر بين قدميها حياء مني. ظننتها ابنة الفران بادئ الأمر لكن حينما قالت أن سيدتها ترغب في رؤيتي عرفت أنها خادم الست عواطف. أخبرتها بأن تخبر سيدتها بأني سوف

آتي بعد قليل. ترى ما الذي تريده مني الست. غسلت وجهي من آثار النعاس وخلعت جلباب النوم ولبست قميصا وبنطالا. اجتاحني وأنا أنزل الدرج متجها إلى شقة الست عواطف صداع قوي اضطررت بأن أستند إلى الجدار كيلا أقع. أصبحت الرؤية غائمة، حتى ذاكرتي تأثرت فظننت أنني في مكان آخر. وقفت أمام الباب وطرقته بعد أن خف الألم قليلا حيث تركز في جهة عيني اليمنى. فتحت نفس الخادم الباب لكنها بدت لي أقصر طولا. كنت متأكدا من أنها هي لأنني استطعت تذكر ثوبها المغطى بورود زائفة. لمست خدها كي أتأكد من أنني لا أحلم. تراجعت الفتاة خائفة وهي تقول لي تفضل يا أستاذ. حين جلست على أريكة في غرفة الجلوس طلبت منها أن تحضر لي ماء. أفادني الجلوس والماء حيث تراجع الألم كلية. أعلن صوت الخلاخل والحلي عن قدوم الست عواطف التي كانت في حلة بهية من الحسن والجمال. كانت تلبس جلبابا من الحرير الباهظ الثمن كما يبدو، لونه أحمر يكشف عن أكثر الذراعين وبالكاد يصل إلى منتصف رجليها. كان شعرها معقوفا إلى الوراء وشفتاها حمراوتين. «آنست وشرفت. زارنا النبي» رحبت بها أنا بدوري وشكرتها. طلبت من خادمها أن تحضر لنا الشاي. وضعت رجلا على رجل وهي تلقي علي مزيدا من عبارات الترحيب. «أعتذر عن الإزعاج. يبدو أننا أيقظناك من نومك" كان خط نهديها العامرين بارزا وهي في تلك الوضعية. خفت أن تضبطني أنظر إليها لذلك كنت أوزع نظراتي حول المكان رغم أن عيناي كانتا تعودان إلى ذلك المكان المحرم الشهي كأن مغناطيسا يجذبني إليها. بعد أن

شربنا الشاي عرضت علي مبتغاها. "تعلم يا أستاذي العزيز أنني مطلقة وأعيش لوحدي، ليس لي من أحد إلا الله. المحكمة حكمت لي بالنفقة من زوجي السابق لكنها بالكاد تكفيني. وقد علمت أنه ورث مؤخرا من عم له مبلغا كبيرا من المال. لذلك أريد سؤالك هل يحق لي قانونيا بأن أطالب بزيادة في مبلغ النفقة؟". كان أسلوب كلامها وحركات جسدها شديد الإغراء وكنت أود في تلك اللحظة حضنها ولثم شفتاها القانيتين ودفن رأسي في صدرها حتى الموت. لكن من خلفها ظهرت مريم التي كان جمالها طبيعيا وعفويا من دون مساعدة خارجية أو تكلف. جلست في الكرسي المقابل للأريكة التي كنت أنا عليها. ابتسمت في هدوء وتذكرت حينما كانت تلاعبني في طفولتي. لم تقل شيئا، لكن في عينيها رأيت كل شيء. الألم حين علمت أنها قد تزوجت لا يزال غائرا. والأمل في الوقت نفسه متعلقا بقشة في خضم هذا البحر الهائج من الشقاء والحرمان. في أول زيارة لي للقرية بعد ذهابي إلى مسقط بستة أشهر علمت بالخبر المفجع. دخلت على عمي أبي صالح وهو جالس مع عمتي شيخة يحتسيان القهوة. بعد نصف ساعة من السلام والكلام وأخذ الأخبار سألت بكل شجاعة ولهفة عن مريم. كان عمي أبو صالح على وشك الإجابة لكن عمتي شيخة عاجلته بقولها "مريم والعقبى لك قد تزوجت وهي في بيت زوجها الآن". تصارعت طويلا مع نفسي المكلومة كي أخفي انفعالي وكذلك لكي أنطق بعبارات التهنئة. "ما بك شارد الذهن هكذا يا أستاذ؟" قالت الست عواطف بينما طيف مريم كان قد رحل. "سامحيني... مع الأسف فأنا لم أدرس القانون ولم أطلع عليه...

ولكن سأستعلم لك وأخبرك بالإجابة" أجبت باقتضاب ونهضت مغادرا. كنت أشك أنها استدعتني لهذا الغرض وشعرت بأنني أخون مريم مع كل دقيقة تمضي وأنا لا أزال منفردا بتلك المرأة.

حياتي في مسقط كانت عادية ورتيبة وحتى الخبر المؤلم لزواج مريم لم يؤثر في نمط عيشي. لم أكن أخرج إلا لتناول العشاء والتنزه على الشاطىء القريب من الميناء. كنت أظن أنني سأرى عالما مختلفا وحياة مليئة مثيرة بالمغامرات في مسقط وكانت القصص التي حكاها لي أبي مازالت ماثلة في رأسي. ما عدا منطقة السوق والميناء فإن مسقط لم تكن بذلك العمران والنشاط الحضاري. وكعادتي كنت منعزلا، لا أخالط الناس، أقضي أوقاتا طويلة في القراءة في حجرتي أو أخرج للتمشي في السوق أو الشاطىء وفي أحيان أستيقظ في ساعة متأخرة من الليل وأخرج. أمشي بين الأزقة الضيقة، أسمع أسرار الناس. أدخل السوق المهجور وأشتم الروائح الباقية وهي تحرس المكان. يلفظني السوق نحو البحر الذي لا ينام. أجلس على صخرة أقلب نظري بين النجوم وأحس أحيانا أن الجمادات هي أحسن حالا منا نحن البشر. فهي لا تشعر بحزن أو فقد أو ملل أو بؤس أو بخوف أو قلق أو غيبة... أو رحيل. في مثل هذه الأوقات بدأت الأصوات والرؤى في الظهور. كنت أتخيل أن صوت حسيس الأشجار هو صوت أبي يتكلم أو أرى وجهه في النجوم مبتسما أو عابسا. تمنيت أن أرى أمي فأنا لا أعرف شكلها. ومريم تكون دائما سعيدة حينما تظهر لي وتمنيت أن تكون فعلا كذلك. يؤذن الفجر فأذهب لأصلي ثم أعود لحجرتي وأستعد للمدرسة.

حين صرت في المرحلة الثانوية تعرفت على أمجد. وهو شاب به قصر واضح في الطول مشاغب كثير الكلام متمرد على القوانين والأعراف وحتى الدين كما علمت لاحقا، لكنه كان ذكيا ومتفوقا في دراسته. أعجبتني شخصيته المتناقضة وسعيت للتعرف عليه لكنه هو الذي جاءني ذات يوم عارضا علي فكرة أذهلتني. أتاني بعد انتهاء اليوم الدراسي ليعرض علي المساهمة في إنشاء صحيفة مدرسية. "جميل جدا ولكن أتسمح لي بسؤالك كيف اهتديت لهذه الفكرة؟" كنت مرتبكا ولم أدر ماذا أقول. "أبي شغوف بقراءة الصحف التي تأتيه من لبنان ومصر. وكنت أراقبه وهو يجلس يقرأ لوقت طويل. كان يتناقش هو وصاحبه من الجيش في الأحداث الجارية في العالم. أحببت أن أكتب مثل تلك الصحف فأبي دائما يقول إن الصحافة هي من أنبل المهن". "ولماذا اخترتني أنا؟" سألت بعد أن شعرت بثقة مفاجئة في النفس. "أنت من الطلبة المتميزين، ومن ثم تعجبني آراؤك غير الاعتيادية. إني أرى فيلسوفا فيك". كان أبو أمجد ضابطا كبيرا في الجيش وكانت عائلته ذا ثراء واضح. ففي السنة الأخيرة من الدراسة سيرحل أمجد مع عائلته إلى المملكة المتحدة ولن أراه بعد ذلك أبدا. دعاني ذات يوم إلى بيتهم، بل قصرهم الكبير. كان القصر متربعا على تلة في منطقة حديثة الإنشاء تسمى القرم. أقلتنا سيارة أمريكية فارهة تدعى الكاديلاك يقودها هندي يتكلم العربية بشناعة. دخلنا حديقة كبيرة غناء لم أعتقد بادئ الأمر أنها جزءا من القصر. كان أبو أمجد جالسا في شرفة أرضية يقرأ صحيفة ويشرب شرابا بلون الذهب. «أبي أعرفك على زميلي في

المدرسة مسعود عبيد ومن مؤسسي صحيفة أخبار البلد « رفع الجنرال رأسه قليلا ومد يده في تكاسل. استلم يدي بكل برود وقال «أهلا يا ابني كيف حالك؟» لم أفهم سبب انزعاجه؛ هل لأننا قطعنا عليه خلوته أم بسبب أنني... صعدنا السلّم نحو غرفة أمجد وفي الطريق صادفتنا خادمة من الفلبين، كما أخبرني لاحقا أمجد، جميلة بشكل استثنائي. "هذه جاريتي ماري آن" قال أمجد ثم صفعها بخفة على مؤخرتها وهي تبتسم. كنت حتى تلك اللحظة أظن أن بيت التاجر فؤاد في قريتنا (الصفو) هو مثال للفخامة والثراء، لكن قصر عائلة أمجد جعلني أراجع معتقداتي. دخلنا غرفة أمجد التي كانت ثلاثة أضعاف حجم غرفتي. جلسنا على كراسي بلاستيكية غير رخيصة الصنع وأخذنا نتحدث. كانت هنالك الكثير من الصور لرجال أجانب ولنساء شبه عاريات. شدني صورة رجل في بدلة أنيقة ويدخن سيجارة كبيرة نافثا الكثير من الدخان. "ذلك هو (الدون كريولي) بطل فيلم العراب واسمه الحقيقي (مارلون براندو) شاهدته في موطنه أمريكا". كان أمجد قد زار بلدانا عدة من بينها الولايات المتحدة وفرنسا ومصر ولبنان فهم يسافرون كل صيف خاصة بريطانيا موطن أمه، وكانت تدهشني القصص التي يحكيها والعجائب التي رآها. أعجبها عندي كانت القطار. تمنيت أن أسافر أنا كذلك وعبرت عن هذه الرغبة علناً لأمجد الذي قال "ذلك ليس بالصعب صديقي العزيز. وأظن أن أفضل طريقة بالنسبة لك هو أن تسافر بقصد الدراسة". استغرقت في حلم يقظة ورأيت نفسي صاعدا برج أيفل في فرنسا وأشرب القهوة في مقاهيها. "أريد الرحيل إلى مصر» قلت وأنا

لازلت في خضم أحلامي. نهض أمجد من مقعده وربت على كتفي وهو يقول «خيار جيد. ستذهلك مصر بعجائبها التي لا تنتهي وأظنها أفضل مكان لحالم مثلك» ثم أضاف «ما رأيك في بعض المشروبات الغازية؟». حين عاد بزجاجتي كوكاكولا قال كأنه اكتشف شيئا عظيما للتو "على فكرة، سمعت أبي يقول: إن الحكومة تبتعث الكثير من الطلبة للخارج. ما رأيك أن أخبره عن نيتك في السفر وأنا متأكد أنه باستطاعته أن يُلحقك بإحدى البعث؟» وهكذا في ثوان معدودة ما كان في حكم التمني أصبح واقعا وتحقق حلم في لمح البصر.

تكفلت الحكومة بكل مصاريف السفر والدراسة وأعطيت مصروف جيب لمأكلي وملبسي ومسكني. ومع هذا كله فإن المال الذي تركه لي أبي لم ينقطع عني البتة وكنت أستلمه عن طريق ناظر المدرسة. ففي رأس كل شهر يأتي رجل إلى المدرسة بينما أكون في حصة الدراسة ويترك المال عند الناظر. لم أرَ الرجل قط لكن أحد الطلبة قد رآه وحكى لي أنه رجل متوسط العمر شديد التأنق ورائحة عطره الباهظة تحيط به كهالة وسيارته فاخرة هي الأخرى. "أنت كثير الشرود يا مسعود. هل أنت على ما يرام... لحظة واحدة أنت عاشق، وعاشق وفيّ أيضا. لقد لاحظت كيف تغض بصرك عن الفتيات والنساء" كان مذاق الكوكاكولا منعشا ومهدئا كذلك. "أنا أعرف ماذا يلزمك. سيجارة واحدة تطرد عنك الهم والتفكير وترخي لك بالك. لكن مع الأسف أنا لا أدخن حين يكون أبي بالبيت" . كان المنظر جميلا من غرفة أمجد حيث يطل على البحر. الشمس تبدو في الأفق وهي تستعد لكي تغطس في الماء. انتشلني من

سرحاني صوت آذان المغرب. "هيا لنصلِّ يا أمجد" قلت لأمجد الذي كان مستلقيا على سريره وهو يعبث بجهاز المذياع. نظر إلي بانزعاج وقال بلا مبالاة "توجد دورة مياه في نهاية الرواق على جهة اليمين". "وماذا عنك؟" أحسست بأنني كنت أعرف الإجابة مسبقا لكني كنت أريد أن أسمعها تخرج من فمه "أنا لا أصلي".

«لا أصدق أنك لم تزر الأهرامات طوال فترة إقامتك هنا" احتج حمدي بعدما أنهينا آخر امتحان لنا. "هل من المعقول أن تعيش في القاهرة كل تلك السنوات ولا تزور أعظم عجائبها. ولكن لا تقلق، ابن خالتي يعمل في شركة سياحية وسيكون من دواعي سروره أن يأخذنا مع إحدى الحملات السياحية المتجهة إلى هناك". ما كان من المفترض أنه نصف ساعة أصبح ساعة ونصف بسبب الزحام الشديد لكن كان لدي ما يلهيني. مخيلتي هي البساط السحري الذي أسافر به حول العالم إلى أماكن قصية وبلدان مجهولة تثير الحواس وتبعث على الدهشة. إني أرى جدي معيوف عائدا إلى تلك البلاد الإفريقية وهو يمنّي النفس بأن يلتقي بتلك الحسناء من جديد. لقد مضى ما يقارب من السنة على المرة الأولى التي رآها فيها. هل يا ترى سيراها مجددا؟ وإذا رآها ماذا سيفعل، هل يكلمها أو سيكتفي بمتعة مشاهدة جمالها بينما نار الوجد تصطلي في روحه؟ وماذا عن ذلك اللص، هل تراه توقف عن سرقاته؟ إن لم يكن قد توقف فسيذهب معيوف بنفسه إلى الآمر بالسوق ويخبره. كان أبو عبيد كثير الالتفات حين أصبح في السوق كأنه يبحث عن أحدهم. وقبل ذلك أخبرهم ربان السفينة أنهم سيمكثون ثلاثة أيام هذه المرة. ولكي

يتنقل أبو عبيد بخفة وسهولة، فإنه قرر أن يترك شراء الأغراض التي يحتاجها إلى آخر يوم. دار أبوعبيد حول السوق عدة مرات مراقبا الباعة والمشترين وفكر في نفسه في أهمية هذا السوق لأهل البلد كمكان التقاء وتبادل خبرات ومعارف واطلاع على أحوال الناس في قرى أخرى. وهو مصدر رزق للكثيرين إذ يأتون لبيع ما جادت به أرضهم من محاصيل وثمار. بعضهم يبيع الأطعمة التي كانوا أعدوها في بيوتهم مثل الحلوى والمكسرات المحمصة. ونفر من الناس يأتي إلى السوق لا لشيء إلا لمجرد سماع آخر الأخبار أو لتقضية الوقت والتسلية. توجه أبوعبيد بعد ذلك إلى المرسى. رحبت به نسمة باردة آتية من البحر الذي اكتنفت سماءه غيوم غاضبة. امتدح أبوعبيد حصافة الربان وبعد نظره إذ توقع قدوم العاصفة. وفكر أيضا هل بإمكانه هو قيادة مركب في يوم من الأيام؟ هل سيقدر على اتخاذ القرارات الصحيحة؟ هل بمقدوره السيطرة وفرض النظام وجعل كلمته مسموعة بين أفراد طاقم المركب؟ طوال ما يقارب العشرين عاما تكونت لديه خبرة واسعة في الإبحار وفنونه من قبيل توقع الطقس وقراءة النجوم لمعرفة الوجهة وتفاصيل أخرى تتعلق بالمركب. لكنه سعيد بموقعه ذاك ولم تكن لديه الرغبة في الحصول على السلطة الجالبة للعداوة والبغضاء. وأما ما يتعلق بالمال فهو قانع إلى حد ما بما يجنيه؛ إذ تكفيه رؤية أبنائه سعداء بالقليل الذي يأتيه لهم. كان هنالك ما يشبه المقهى بالقرب من المرسى جلس فيه أبوعبيد وطلب شايا. كان المقهى عبارة عن كوخ بلا جدران ولا أبواب يجلس صاحبه خلف ما يشبه طاولة يضع عليها قدور القهوة والشاي وبعض المأكولات الخفيفة

كالفصولياء المنقوعة في شراب النارجيل والبطاطا الحلوة. شرب أبوعبيد شايه واقفا وقريبا من المقهى إذ توجب عليه إعادة الكأس بمجرد أن ينتهي. ارتفع هدير مركب كبير كان يقترب من المرسى نافثا سحبا كثيفة من الدخان. كان ذلك المركب عبّارة تعمل على المحركات البخارية تابعة للقوات البريطانية التي كانت تحتل تلك البقعة الإفريقية. أخذ أبوعبيد ينظر إلى ذلك الوحش الأبيض بإعجاب وهو يرسو ببطء وروية. بدأت أفواج المسافرين، القليلي العدد على أية حال، بالنزول من العبّارة وعلامات الثراء والأبهة واضحة في ملابسهم وأمتعتهم. إذ كان لا يسمح إلا للبيض ولذو الوجاهة وأفراد العسكر البريطاني بالركوب في تلك العبارة مع استثناءات تعمل للأفارقة من الأسر المرموقة والثرية أو أفراد الأسرة الحاكمة. راقبهم أبوعبيد بنفس خالية من الأحكام المسبقة، فليس لديه أي شيء ضد هؤلاء القوم، إلى أن وقعت عيناه على وجه مألوف لديه. كانت نفس الحسناء التي رآها في المرة السابقة والتي سُرق منها حافظة نقودها. كانت تلبس فستانا شبيها بما تلبسه النسوة الإفرنجيات وعلى رأسها قبعة كبيرة بها ريش نعام أو طاووس وتحمل مظلة تقيها من زخات المطر الخفيفة. كانت ترافقها تلك الوصيفة الكبيرة بالسن وكانوا لوحدهما. أنزل أحد البحارة حقيبة هائلة الحجم ووضعها بجنب الامرأتين. أخذت الوصيفة تلتفت يمنة ويسرة وتنادي بصوت عال. من الواضح أنها تبحث عمن يحمل لها الحقيبة. لم يكن هنالك في الحقيقة أي أحد على المرسى في ذلك الوقت. وبصورة لاواعية ذهب أبوعبيد إلى حيث الامرأتان مهرولاً، إذ رأى بعض الفتية قادمين من صوب السوق

وخاف أن يقوم أحدهم بدور الحمال. وقف أبوعبيد أمامهن وهو ينظر صامتا نحو الوصيفة وكان في الحقيقة يود لو أنه كان ينظر نحو الحسناء. كلمته بالسواحيلية لغة أهل البلد وفهم منها أنها تخبره عن الأجرة ومكان إقامتهن الذي لم يكن بعيدا كما ادعت المرأة. هز أبوعبيد رأسه موافقا على ما فهمه وعلى ما لم يفهمه. وحين أشارت نحو الحقيبة حملها على ظهره كما تعود أن يحمل البضائع. استدارت الحسناء التي كانت مشغولة بالنظر نحو البحر الذي بدأ يكشر عن أنيابه في غضب ودهش أبوعبيد لرؤية عيناها الزرقاوين. كانت الحسناء ذات بشرة سمراء فاتحة وشعر ناعم متسلسل، فاستنتج أبوعبيد أنها من عرق مختلط، نتاج جميل من تلاحم الشرق والغرب. لم تكن الحقيبة بذات الثقل ولم يجد أبوعبيد عناء في حملها وهو ذو البنية القوية. بل وجد أبوعبيد في هذه المهمة متعة بالغة وهو يمشي خلف أميرة الحسن والجمال تلك وهو يستنشق أيضا عبير الياسمين المنبعث من ذلك البستان المتحرك. سلكوا طريقا بعيدا عن السوق ودخلوا منطقة سكنية لم يسبق لأبي عبيد أن زارها من قبل. كانت تلك المنطقة السكنية مكونة من بضعة بيوت كبيرة الحجم حسنة المنظر والبناء وكل قصر تحيط به حديقة منسقة مختلفة الأشجار وكثيرة الورود. تعجب أبوعبيد وجود مثل هذا المكان بجوار قرى بائسة يسودها الفقر ويمُضّها المرض والجهل. توقفت المرأتان أمام بيت أصغر من بقية البيوت وإن كان يظل كبيرا في نظر أبي عبيد. عند عتبة الباب الكبير أشارت الوصيفة لأبي عبيد بالتوقف ثم وضع الحقيبة أرضا. أخرجت الوصيفة قطعة نقدية ووضعتها على راحة أبي عبيد وهي

ترمقه بنظرة احتقار وتكبر «بإمكانك الذهاب الآن». خيم حزن خفيف على روح أبي عبيد إذ أزف موعد الرحيل بتلك السرعة. أعطت الحسناء المظلة لوصيفتها التي حملت الحقيبة أيضا إلى داخل المنزل. لم يتحرك أبوعبيد من مكانه وهو يحمل القطعة النقدية على راحة يده المفتوحة كأنه ينتظر أن يعطى المزيد. قبل أن يغيبها الباب داخل البيت نظرت الحسناء نحو أبي عبيد وقالت بالفرنسية «مرسي». كان نصف جسدها أصبح داخل البيت والنصف الآخر خارجه ورأسها باتجاه أبي عبيد. حين لم يأتِها الرد المعتاد خرجت كلية ووقفت أمامه وسألته بالسواحيلية بعد أن أمعنت النظر إلى وجهه "أنت لست من هنا على ما أعتقد؟" هز رأسه نافيا ثم أضافت بعد برهة تفكير "أنت عربي، أليس كذلك؟" "نعم" قالها بالعربية كأنه يؤكد على هويته. "ولا أظنك تعمل حمالا أيضا". صارع أبوعبيد مع لغته السواحيلية لكي يجيبها "كلا... أعمل في البحر أنا...فوق مركب". ابتسمت الحسناء وأحس أبوعبيد أن قلبه على وشك الانفجار. ثم قالت وهي تدخل من الباب ثانية "كنت سأدعوك لتناول بعض الشاي، لكن زوجي سوف يأتي بعد قليل" ثم دخلت وأغلقت الباب خلفها بسرعة من غير أن تنتظر إجابته.

كانت الأهرامات بالفعل أعجوبة حية تثير الدهشة وتستحق المشاهدة. كان الجو جميلا معتدلا رغم سطوع الشمس الصيفية. انفصلت عن المجموعة السياحية التي تجمعت حول ابن خالة حمدي تستمع إلى شرحه عن الآثار. وقفت أمام أبو الهول المجدوع الأنف وتذكرت حين كنت ألعب في الوادي وعمري حوالي ثمان سنوات.

الوادي حينها كان قليل الماء لكنه كان كالنهر العظيم بالنسبة لي. أمشي مع مسار الوادي حتى أصل إلى تجمع صخري وهنالك يتغير مسار الساقية بسبب انخفاض الأرض مما كون شلالا صغيرا. أدخل يدي في الماء محاولا اصطياد الأسماك الصغيرة. أراقبها وهي تنازع من أجل الهواء فأرجعها ثانية إلى الماء. بين الصخور وجدت حقيبة جلدية وبعض الفخار المكسور وقناعا خشبيا عليه أغصان قش وشعر حيوان. أرعبني ذاك القناع فوضعت جميع ما وجدته مرة أخرى حيث كان وقفلت راجعا. سكن ذلك الوجه المرعب لذلك القناع مخيلتي لمدة أسبوع، عانيت خلالها من كوابيس وأحلام أقلقت روحي؛ إذ كنت أرى القناع يكلمني في تلك الكوابيس ويخبرني بأشياء لا أفهم معنى جلها. ويتراءى لي في بعض الكوابيس أني أرتدي القناع وأرحل بعدها عبر الزمن. لكني لا أدري هل للوراء إلى الماضي أم للأمام نحو المستقبل. كان القناع يريني مشاهد قتل مرعبة كلها تحدث في مكان واحد؛ إذ أرى نفسي داخل كهف مظلم رغم أن هنالك فتحة في السقف يدخل عبرها شعاع قوي كأن الشمس كانت تنزف ضوءا من تلك الفتحة. في البداية أسمع أنات مكتومة ولهاثا متسارعا. بعدها تتحرك الأشباح حتى تصبح تحت شلال الضوء فأرى حينها القاتل والمقتول. القاتل كان هو هو في كل مرة، هي الضحية فقط من كانت تختلف. ومن بين الضحايا أستطيع تذكر فتاة صغيرة كانت تضحك بينما القاتل يسلب أنفاسها واضعا يديه على عنقها. وفي آخر حلم رأيت أبي لكنه لم يكن من ضمن الضحايا. بعدما أنهى القاتل من الإجهاز على شيخ جليل ذي لحية بيضاء ثلجية، التفت

خلفي لأجد أبي. كان جالسا أرضا وهو يبكي. حين رآني نهض وقال لي بصوت حزين "مسعود، تعال إلي يا ولدي". وجه أبوالهول ذكرني بذلك القناع الرهيب. وأبوالهول نفسه شاهِد على تاريخ طويل من الأحداث التي وقعت على مر آلالف من السنين.

يوم التخرج السعيد كنت حزينا. وقف أمامي الشقاء وأراني حياتي على مرآة مذهبة الأطراف. كنت قد اعتدت الحياة في القاهرة وأحببت العيش فيها. وفكرة الرحيل عنها أشعرتني بالفقد كأنني كنت أبادل البؤس القبل. كانت الضحكات تعطر الجو وعبارات التهانئ تملأ الأسماع. أصابتني الكثير من السهام الشهية المسمومة بابتسامات الحسان من الطالبات السعيدات بالتخرج. وتساءلت في نفسي: لماذا لم أنغمس في قصة حب مع إحداهن؟ وكيف استطعت أن أنفذ بجلدي من هذا الكم الهائل من الجمال؟ هل كنت بذلك الوفاء لامرأة لم أكن لأحضى بحبها أبدا؟ أم كنت شديد الاستغراق في حياتي الداخلية بحيث كنت أحيا داخل عقلي فقط منعزلا عن الحياة الخارجية؟ خرجنا أنا وحمدي للاحتفال، كان احتفالا محتشما على أية حال، فكلانا لم يكن يشرب الخمر ولا حتى الحشيش. دعاني إلى مطعم يقدم السمك المشوي الطازج من خيرات نهر النيل. جلسنا نتحدث إلى وقت متأخر من الليل. عرضت عليه أن يبيت عندي لكنه أبى فلقد كان ذاهبا إلى قريته في ساعته تلك إذ كانت تنتظره إحدى السيارات المتوجهة إلى هناك. أعطاني عنوانه في قرية (دنشواي) وأعطيته أنا وعد بأن أراسله، وهو وعد لم أحافظ عليه. في يوم عودتي ذهبت إلى العم جابر لأودعه. استغربت

جفاءه في التكلم معي رغم أنه أطلق قائمة طويلة من صفات الثناء علي. لكني وأنا أخرج من شقته التفت ورأيته دامع العينين. توقفت قليلا أمام شقة الست عواطف وكنت على وشك قرع الباب حين سمعت صوت ضحكات خليعة بينها صوت رجل. على عكس مجيئي فإن رحيلي كان على متن طائرة ولم أكن قد ركبت طائرة من قبل. فلقد كنت أتيت على باخرة لنقل البضائع وكان نزولي في ميناء بورسعيد. وأنا الآن أكتب خواطري الأخيرة عن مصر محمولا على ظهر هذا الطائر المعدني الهائل الحجم وكان لذلك وقعا مختلفا. الهموم تكون خفيفة وهي تطفو في الهواء وليس للذكرى ذلك الطعم اللاذع. والروح على ذلك العلو الشاهق تنفصل قليلا عن الجسد. لكنه ليس الموت. كلا. فالموت لا يعرف الطيران.

على الرغم من تولي حكومة جديدة مقاليد السلطة، فإن النهضة المزعومة كانت تمشي على خطى بطيئة. فمسقط الثمانينيات كانت تبدو كأنها ضاحية بائسة منسية لإحدى المدن الكبيرة. لكنه الوطن. والوطن له تأثير طاغ مثل الروح، لا يرى وإنما يحس. رجعت إلى غرفتي مخترقا المزيد من الأزقة بسبب بناء بعض البنايات الجديدة. في الصباح ذهبت إلى الوزارة لاستكمال بعض الإجراءات المتعلقة بالبعثة ولكي أضع طلبي للحصول على وظيفة معلم. كانت موجات الصداع الحادة قد عادت إلي، وشعرت بأول بادرة لها حينما ترجلت من الطائرة. وفي الوزارة شعرت بدوار في رأسي ظننته بادئ الأمر بسبب عدم تناولي لطعام الإفطار ولكني كنت قد مررت بإحدى المقاهي وأكلت بما فيه الكفاية.

وحدث ما كنت أخشاه. فحين أصبحت تحت أعين الشمس الحارقة مادت بي الأرض وسقطت مغشيا علي. صحوت في مستوصف صحي منسدحا على سرير أبيض وأنبوب مغروس في ذراعي اليمنى متدليا من عمود معدني به كيس يحوي سائل شفاف. جاءتني ممرضة تبدوهندية الملامح وحقنتني بإبرة وسحبت كمية من دمي. ثم جاءني الطبيب بابتسامته المهنية وقال إن الفحوصات الأولية لم تظهر ما يثير القلق لكنه سيقوم بفحوصات إضافية للدم والبول. عند قوله الكلمة الأخيرة وضع عبوة بلاستيكية صغيرة على الطاولة بجانب السرير ثم قام بفحص الكيس الذي به السائل الذي كان على وشك الانتهاء. سحبت الممرضة نفسها الأنبوب من وريدي وقالت وهي تعطيني العبوة الصغيرة "روح حمام سوي شوي بول". كنت قد خططت للذهاب إلى قرية (الصفو) لكن هذه الوعكة الصغيرة أجلت مشروعي ذاك. حين انتهيت من جميع الفحوصات طلب مني الطبيب أن أراجعه بعد يومين وأعطاني بعض الأدوية.

«ابني اسع نحو الحقيقة... واغفر لي".

في غرفتي كان الظلام رفيقي. كنت أقرأ رواية جوستين للروائي الفرنسي (الماركيز دو ساد) على ضوء شمعة. أخذت في القراءة حتى انطفأت الشمعة. كانت الكهرباء مقطوعة لسبب أجهله. لم أجد الرجل الذي أجّرني الغرفة لكن لحسن حظي لم تكن الغرفة مقفلة. الفضيلة دائما متهمة. والطيبة والبراءة ترى في كثير من الأحيان كدليل ضعف. ربما ليس هنالك ثواب عادل للذين يتمسكون بالقيم والمبادىء وليس

هنالك عقاب للعصاة والأشرار والمجرمين والقتلة. ربما ليس هنالك جنة أو جحيم. ماذا لو كان الدين خدعة؟ تهرب جوستين من جحيم إلى آخر متمسكة بالشرف كأنها تصعد جبل وفوق رأسها بيضة تحاذر ألا تقع وتنكسر. يتحدث الرجال في محافلهم عن الفضيلة والأخلاق بكل فصاحة وحماسة ويشتهون أول امرأة تظهر لهم. كنت أود الخروج والمشي على الشاطئ لولا هذا التعب الذي يشل عظامي. ماذا تريد أن تقوله لي يا أبي؟! لا أفهم الإشارات التي ترسلها لي. تحدث بوضوح. «تعال لي يا مسعود». «من؟ مريم». «أنا بانتظارك يا حبيبي». «لا أراك جيدا، أين أنت؟». «افتح عيناك وستراني». كنت بين الصحو والحلم. معلقة روحي بين الأرض والسماء. شعرت بعطش شديد. حلقي جاف أريد أن أرطبه بشيء. كم يا ترى الساعة الآن؟. هل سأجد محلا أو مطعما مفتوحا في هذه الساعة. خرجت على أية حال وكانت الظلمة في الخارج تضاهي الظلمة بداخلي. مشيت نحو أضواء تراءت لي من بعيد. كانت هنالك بناية جديدة بعد السوق على بعد عشر دقائق مشي. اهتديت بالنجوم الناعسة فلقد كان وهجها يخبت شيئا فشيئا. لم يكن هنالك ما يدل على أن ذلك الكرنفال الضوئي كان مطعما ما. فلم يكن هنالك باب من الخارج ولا لافتة عليها اسم المطعم. درت حول البناية فوجدت بابا صغيرا دخلت منه. على عكس توقعي فإن الباب أدى إلى سلم أرضي. نزلت السلم وصادفني باب آخر كانت تأتي من خلفه أصوات موسيقى وكانت أضواء عديدة الألوان تتسرب من جوانب الباب. حين فتحت الباب صمّت أذنيّ صوت الموسيقى الصاخب وأعمت للحظة الأضواء

عينيّ. كانت غرفة كبيرة تملأها سحب من الدخان كأنها كانت تحترق. المكان يشبه المطعم فلقد كانت هنالك طاولات وعليها رجال منتشون. كان هنالك مسرح صغير عليه ثلاث نساء شبه عاريات يرقصن على أنغام الموسيقى. جاء إلي رجل ضخم الجثة تعلو وجهه أمارات الشر. "ماذا تريد يا فتى؟ هذا ليس مكانا للأطفال" "أريد بعض الماء" لم يسمعني على ما يبدو فأعدت عليه قولي "أريد أن أشرب ماء". فرد علي المارد وهو يضحك "لا يوجد ماء هنا. لدينا بيرة وويسكي وفودكا فأيهما تريد؟".

في صباح اليوم التالي ذهبت للمستوصف من أجل معرفة نتائج الفحوصات. أصبحت الأصوات أكثر إبهاما الآن، فهي تبدأ كطنين قوي في مؤخرة رأسي وتنتهي بكلمة واحدة تقال همسا. تجاوزت حجرة التسجيل ودخلت على الطبيب رأسا. طرقت الباب وأذِن لي بالدخول. رغم أن الطبيب لم يكن لديه أحد إلا أنه تضايق لرؤيتي ودخولي عليه هكذا. اصطنع ابتسامة بجهد كبير وقام ليسلم علي. ضغط زرا تحت مكتبه ودوى صوت كأنه جهاز إنذار. جاءت نفس الممرضة السابقة وتساءلت ألا يوجد سواها. أخبرها أن تأتي بملفي الذي جاءت به في وقت قياسي. أخذ يقلب الطبيب في الملف لفترة طويلة كأنه يحاول أن يحل لغزا ما ثم ضغط ذلك الزر المزعج مرة أخرى. دخلت الممرضة بوجه غاضب بنظرة كأنها تقول للطبيب أليس لديك عمل آخر غير إزعاجي. سألها الطبيب "فين فحص دم مشان هذا مريض؟". تنهدت الممرضة بصوت مرتفع وذهبت لتحضر نتائج فحص دمي. "لا يا أستاذ ما تخفش، سليمة والحمدلله" قال لي الطبيب بصوت مرح. شكرته

وأثنيت عليه ثم سكت. كان على ما يبدو ينتظرني أن أسأله عن أسباب انتكاستي، لذلك قال بعد أن يأس مني «كلها شوية تعب، لازم ترتاح وما تتعبش حالك وما تطلعش بقه في الشمس القويه دي، ده في ناس بيموتو منها". وقبل أن أغادر سألته إن كان بمقدوري السفر إلى قريتي. طمأنني وحثني على تناول شيء من الطعام قبل الرحيل وشرب الكثير من الماء.

لقد أنشِئت بعض الطرق لربط المناطق الداخلية بالعاصمة مما جعل التنقل أسهل وأسرع بعض الشيء. ألقى بي التاكسي على حواف القرية لعدم وجود طريق مسفلت يؤدي إليها. مشيت تلك القفار كما كنت أفعل من قبل حاملا على ظهري حقيبة صغيرة. السهل المتسع والوادي السحيق والجبل الذي يحضن القرية من الخلف والقرية نفسها هي أشياء قدت من الأزل، لا يطرأ عليها أي تغيير. عصية على النسيان ذكريات الطفولة لكني أراها تهرب من مسرح حدوثها. فأني أدخل (أورشيلوم) طاهر الروح، لا يلطخ القلب كره ولا يعلوه حب. حيادي المشاعر بلا توقعات، فهذا من شأنه أن يخفف الألم. بعض البيوت قد تم تحديثها، انسلخت من جلدها الطيني لتلبس حلة إسمنتية صماء. ومن تلك البيوت كان بيت عمي الشيخ أبي صالح. اختفى الباب الخشبي الكبير المزخرف بنقوش تاريخية عريقة وحل محله باب معدني عديم الروح وبلا لمسة فنية. طرقت الباب متحملا سخونة المعدن الذي ألهبته الشمس. لم أنتبه إلى وجود زر الجرس بجانب الباب إلا حينما سمعت مزلاج الباب وهو يفتح. ظهر لي وجه رجل كبير في السن بعينين

التصقت بمحجريهما وبلحية بيضاء كصفحة الجليد. «عمي أبو صالح" وضع أبو صالح يده فوق عينيه كي يقيها أشعة الشمس المتطفلة ولكي يرى بشكل جيد من القادم. "من... ابني مسعود» تجاهل اليد التي مددتها لكي أصافحه وارتمى في حضني كطفل صغير. أحسست بجسمه الضئيل حول جسمي ورأيت ما يفعله الحزن والزمن بالإنسان. "كيف حالك يا ابني؟ متى رجعت من السفر؟ ياه ما أقساها من غربة. تفضل ادخل يا ولدي" حينما دخلت صادفت عمتي شيخة التي حضنتني هي الأخرى وانهالت علي بعبارات الترحيب مخلوطة بالأسئلة. جلسنا كلنا في مجلس الرجال كما كنا نفعل في الأيام الخوالي. كان الزوجان قد شاخا كثيرا خلال هذه السنوات، لكن البدانة أبت أن تغادر عمتي شيخة. تحاملت على نفسها لتحضر لي القهوة والتمر وبعض الفواكه. وخلال حديثنا دخل علينا طيف مريم فأردت أن أسأل عنها، ولكن ذلك لم يكن طيفا بل هي مريم نفسها.

لم أصدق ما تراه عيناي، وددت فعلا لو كان خيالا. فالتي أمامي كانت امرأة مهدودة الجسم ذابلة الوجه يسكنه حزن أبدي وصوتها عندما تحدثت معي كان شديد الانكسار. إلا عيناها الجميلتان لم تتغيرا، إذ تركز كل حسنها فيهما. أزعجني أن أرى مريم بتلك الحالة وتمنيت لو لم أرها على الإطلاق. جلست معنا قليلا ثم ذهبت. بحثت في وجه عمي أبي صالح وعمتي شيخة عن إجابة لما رأيت آنفا. وحين سمعت عمتي شيخة تقول بعدما غادرت مريم "لهفي عليك يا ابنتي" تجرأت أن أسأل "ما بها مريم؟ هل هي مريضة؟". نكس عمي أبو صالح رأسه

وساد صمت قصير قطعته عمتي شيخة بقولها "المسكينة لا تستحق ما حدث لها. لكنه قدر الله ولا راد لقضائه" ثم تابعت بعد أطلقت تنهيدة طويلة "مات زوجها بعد سنة من زواجها، والأدهى أنه مات في فراشه بلا مرض أو أي مكروه وهو الشاب الصحيح المتعافي. لا حول ولا قوة إلا بالله". لا أدري لماذا شعرت بسرور حينما علمت بموت زوج مريم. هل ما زلت متعلقا بذلك الأمل؟ ولم لا، أنا شاب متعلم ومقبل على حياة مهنية ناجحة. وهولاء هم أهلي ولا أظنهم ينظرون إلي بتعال بعد كل هذه السنين. ثم ماذا هنالك لأخسره؟ لن تحدث قطرة من أسى أي تغيير في بحر الحزن الذي يموج في قلبي. لم أستطع الإعلان عن رغبتي بعد أن علمت بذلك الخبر المفجع مباشرة، فليس ذلك من اللياقة في شيء. قررت المكوث في القرية حتى يتسنى لي أن أفاتح عمي في هذا الموضوع. رجعت لبيتنا القديم في مزرعة التاجر فؤاد. نظفت البيت وهيأته للمبيت وأعطتني عمتي شيخة بعض الفرش والأغطية. عمي أبو صالح هو الآخر كان قد تغير، طبعه أصبح أكثر حدة. ولأول مرة في حياتي كلها أراه ينهر عمتي شيخة بتلك اللهجة الحادة وبذلك التقريع القاسي. أحسست أنه بدأ يعاني من أعراض الشيخوخة إذ أصبح كثير النسيان ويشكل عليه الوقت، كما كان يظهر بعض أعراض الوسوسة كما أخبرتني عمتي لاحقا.

وجدت المزرعة مهملة وفي وضع مزري، فالثمار على الأغصان لم تقطف، والحشائش الضارة التي كانت في كل الأنحاء لم تقلع، وأشجار النخيل لم تشذب كما ينبغي كي يسهل جني عسق التمر. حينما جلست

مع عمي فؤاد التاجر أخبرني أنه حاول الإتيان بعمال أجانب لرعاية المزرعة لكنهم كانوا يهربون الواحد تلو الآخر. فلم يكن هنالك من يراقبهم ويشرف عليهم. فبمجرد أن يكمل العامل سنة واحدة حتى يجمع محصول العام كاملا ثم يبيعه ويحتفظ المال لنفسه ثم يهرب. لذلك تركها فؤاد التاجر كما هي على أمل أن يجد لها مشتريا. بعد صلاة العصر التقيت بالمطوع خميس الذي أدخلت رؤيته الطمأنينة والسعادة إلى قلبي. جلسنا نتحدث حتى أذن المغرب. الوقت يمضي سريعا مع هذه الصحبة الحسنة. أخبرته عن مصر وعجائبها وكان وجهه يتهلل خاصة حين أتكلم عن المساجد، الأزهر ومقام سيدنا الحسين. أكملنا حديثنا حتى صلاة العشاء وتناولنا طعام العشاء في بيته. كنت طوال الوقت أفكر في مريم. فعلى الرغم من حالتها تلك إلا أن رؤيتها أيقظت الحب النائم في قلبي، فكأنها العنقاء بعثت من الرماد ثانية. في تلك الليلة رأيت أجمل حلم في حياتي. كان على شكل مشاهد قصيرة، حيث بدأت من ليلة زواجنا أنا ومريم التي كانت في أبهى حلة. ثم انتقلنا إلى بيتنا في مسقط المطل على البحر وكنا أنا ومريم وابني الصغير نلهو على الشاطئ ترافقنا الضحكات وتحفنا السعادة. ثم وجدت نفسي مع مريم في مسرح كبير مع جمع غفير من الناس وكان ابننا على المسرح يستلم شهادة التخرج.

أمضيت سحابة النهار التالي في المزرعة الكثيفة الأشجار كأنها دغل صغير. النسيم البارد الذي يأتي من ناحية الجبل جعلني أنسى أنه الصيف. جلست بجانب البئر على التراب أتذكر أبي وهو يعمل

وأنا أحاول مساعدته بطرق شتى. تارة أجمع البرسيم الذي يجزه وأكومه بعناية وتنسيق كي يأتي الحمار لاحقا ليجمعه. وتارة أقف أسفل النخلة التي يجمع ثمارها وأنتظر سقوط حبات الرطب لأضعها في حضني بعد أن كنت قد رفعت ثوبي وجعلته على شكل كيس. في أثناء كل ذلك كان أبي يحدثني عن أمي في رقة وحنان و يتخذ وجهه تعبيرا واحدا لم يسبق لي أن رأيته يتخذه في أي موقف كان. كان صوته يوحي أنه بين حالة البكاء والضحك. وكان ذلك يملأ نفسي بحزن جليل. كنت دائما أتخيل أمي كتلك الأميرات الخيرات التي تعيش في قصص ألف ليلة وليلة كما حكاها لي أبي. وكنت أعتقد أن لو كان للملائكة أن تتخذ شكلا بشريا، فإنها ستأخذ شكل أمي. شعور غريب يجتاحني وأنا أنظر بين الشقوق والصخور الجبلية. خيل لي أنني أسمع صوت أبي يناديني فجفلت لذلك. تملكني العجب كيف لشخص أن يعيش وحيدا كل تلك السنين في مكان مثل هذا ولا يصيبه الجنون أو السأم. أظن أن أبي كان يحيا لأجلي وإلا كان ليرحل. لكنه في النهاية رحل. ترى إلى أين ذهبت يا أبي؟ وماذا عساك تفعل الآن، ذلك إن كنت حيا. وهل سأراك يوما ما؟ نهضت من مقعدي مغبر المؤخرة ومشيت نحو الجبل وصوت أبي يتلاشى داخل رأسي. تركت المزرعة خلفي لكن أشجار أخرى اصطفت فوق بعضها البعض على جانبي الطريق كأنها حاشية ملك. كانت الطريق الطبيعية تؤدي نحو بطن الوادي لكني انعطفت قبل ذلك بدافع خفي وسلكت طريقا لم يسبق لي أن رأيتها من قبل إذ كانت مختبئة بين أحراش كثيفة لنباتات ذات أشواك. كانت طريقا

ضيقة عميقة تؤدي إلى قلب الجبل. في نهاية الطريق كانت هنالك ظلمة شعرت أنها ليست من هذا العالم. وقبل أن أمضي قدما سمعت أحدا يناديني. أبي هل هذا أنت؟ صرخت بصوت عال. هل كان عقلي يقوم بخداعي. لكني أسمع اسمي بكل وضوح. تجمدت في مكاني من شدة الهلع. لكن لماذا كان أبي يناديني (بعمي مسعود). اتضح لي أنه أحد الفتية كلفته عمتي شيخة بدعوتي إلى الغداء. ألقيت نظرة أخيرة على تلك المغارة العجيبة ثم قفلت راجعا ورجفة الرعب ماتزال تسري في جسدي.

في بعض الليالي كنت أسمع صراخ رجل كأنه يعذب. وأحيانا يخيل لي أنني أستمع إلى جمع غفير من الناس يتحاورون في صخب. أكون في تلك الحالة بين الصحو والكرى. عيناي أثقلهما النعاس ورأسي تتملكه الأفكار. لدي هذا الشعورالطاغي بأن شيئا ليس على ما يرام. لا أعرف له سببا. كما لا أعرف سبب كآبتي والثقل الهائل الذي أحسه جاثما على صدري وروحي. هنالك فرصة كبيرة أن أجد السعادة مع مريم إن هي قبلت بي زوجا لها. والمشاريع التي خططت لها التي من بينها التأليف والكتابة وقد أزاول بعض العمل في الصحافة. فكل ذلك كفيل بأن يشغلني ويعطي معنىً ما لحياتي. ولكن حين يختبئ الأسى خلف كل ضحكة وابتسامة وتسبح غيوم الحزن الرمادية على صفحة السماء، يكون التفاؤل والتشاؤم سواء. سيان عندي حينها إن عشت حزينا أو مت سعيدا. غالبت سطوة النوم الطاغية وخرجت من الكوخ الطيني. لم يكن هنالك أي صوت في الخارج سوى صوت الليل الهادىء. النجوم

وحدها ترعى هذا الصمت المطبق والبدر حارسه الأمين. رجعت إلى مطرح نومي واستلقيت على ظهري. كيف لهذا الكوخ الخرم المصنوع من تربة الأرض وبعض القش أن يقاوم تقلبات الطقس وغضب الطبيعة وقسوة الإنسان. جعلت أحدق في سحلية جدار كبيرة انعكس ظلها بفعل أشعة القمر البدرية. واقفة بلا حراك كأنها جزء من الجدار ولم أستطع إلا التساؤل في الغرض من وجودها ووجود الكثير من الحيوانات والحشرات التي تبدو غير نافعة للوهلة الأولى. ولولا إخبار الدين لنا لكان وجودنا بلا معنى نحن البشر أيضا. سحابة هائلة غطت على القمر وأظلم المكان فجأة. شعرت بشيء يمشي على رجلي، كأنها حشرة بأرجل كثيرة. قد تكون إحدى العناكب الكبيرة السامة أو حشرة أم أربعة وأربعين. رفعت جذعي الأعلى ببطء محافظا على سكون رجليّ كي أتجنب لدغتها. اتضح أنها عقرب صحراوية شديدة السمية، عرفت ذلك من حجمها المخيف. تركتها تمضي في سبيلها من غير أن أضر بها وأعفتني هي من اللدغ في اتفاق غير معلن من أجل البقاء. "مسعود... مسعود" كحفيف الأوراق في يوم عاصف سمعت أحدا يناديني. "مسعود هذا أنا أبوك" تجمدت مكاني من هول المفاجأة. "أبي..." حالة عدم التصديق أشلتني فلم أستطع الحراك. لم أدري من أين كان يأتي الصوت فالظلام كان يعم المكان. "أبي... أين أنت يا أبي..." "لا تقلق يا بني، فإني قد وجدت السلام". وجدت نفسي أبكي بلا حول مني "أبي عد إلي يا أبي... أنا في حاجة إليك..." وقبل أن تطلق تلك الغيمة سراح أشعة القمر قال أبي بصوت كأنه قادم من مكان سحيق "ستجد كل

الإجابات التي تبحث عنها في نفسك... اسعَ نحو الحقيقة يا ولدي... واغفر لي...".

"ابني الحبيب... مِتّ أنا كي أهبك الحياة... فجزء من روحي علق بروحك..."

مضى علي أسبوع وأنا في شوق لكي أتحدث مع مريم على انفراد. كنت أنتظر أيضا اللحظة المناسبة كي أفصح عن نيتي في الاقتران بها. اقتضت خطتي أن أخطبها في الوقت الحالي ثم أعود إلى مسقط لكي أستلم وظيفتي وأهيئ مسكنا جديدا يليق بإنشاء عائلة. بعد ذلك أرجع في أول إجازة لي وأتزوج مريم. لكن كنت أريد أن أكلم مريم أولا كي أعرف رأيها في الموضوع. فأنا لا أريد أن أتفاجأ برفضها لاحقا ولا أريد لعلاقتي مع عمي أبي صالح وعمتي شيخة أن تتأثر. حينما أجلس مع عمي أبي صالح أحس كأنني جالس مع غريب. كلامه مقتضب وبارد الوقع. نظراته زائغة كأنه ينظر إلى عالم خفي لا يتراءى لعامة الناس. في يومي السابع صادفت مريم عائدة هي وأمها من الخارج. سلمت عليها وعلى عمتي وتعمدت أن أطيل الحديث، لكن لم يبدو على مريم الاهتمام. وحين خلص الكلام ولم يعد هنالك ما يقال استعدّت المرأتان للذهاب. شعرت أنني إن لم أستغل تلك الفرصة فسأخسر مريم إلى الأبد. استجمعت شجاعتي وطلبت التحدث إلى مريم بكل جرأة. احترمت عمتي شيخة رغبتي واستأذنت بالذهاب هي، فلم ترَ ما يعيب في تحدثي إلى مريم خاصة وأننا في بيتهم وينظر إلي هنا كفرد من العائلة. لم نجلس على الأرض بل ظللنا واقفين قرب الباب المؤدي

إلى خارج البيت كما كنا نفعل في السابق. استطعت أن أمعن النظر في مريم. هي لاتزال جميلة بشكل مختلف. أزعجني أنها كانت تبدي كل ذلك الحزن على زوجها المتوفى. كان يدل ذلك أنها كانت تحبه. ترى هل كانت تعرفه قبل الزواج؟ كلا، ليس مريم. غيرتي من رجل لم يعد من الأحياء أشعرني بالسخف من نفسي. "مريم... لقد تغيرت كثيرا" لم أجد غير ذلك لأقوله لها. بعد عاصفة من التنهدات قالت هي "اعذرني على جفائي لك يا مسعود.. لكنك تعرف الحال.. كيف هي مصر، هل زرت الأهرامات؟" كانت تحاول جاهدة أن تكون لطيفة معي. "مصر جميلة جدا ومذهلة.. ربما سآخذك ذات يوم" اكتفت بالابتسام وشعرت أن المناورة واللف والدوران في الكلام لن يوصلني إلى مبتغاي. "أتذكرين على ما اتفقنا عليه يا مريم قبل أن أرحل إلى مسقط" لم تجبني بل أخذت تحدق في الأرض. ثم تابعت أنا كلامي "لا أريدك أن تعتقدي فيَّ عدم اللياقة والاحترام... مريم.. لم أتوقف عن التفكير بك طوال هذه الفترة... أنا متأكد أنني لن أجد امرأة أفضل منك ترافقني في رحلة الحياة هذه". كان ارتباكي واضحا لكنها لم تكن أقل ارتباكا مني. عالجت هي ارتباكها بالصمت بينما حاولت التخلص منه أنا بالتفوه بكلام غير مترابط. ارتسمت ابتسامة جديدة على وجهها، ابتسامة هادئة، طفولية، صادقة، محبة. ابتسامة تترجم ما يحسه قلبها من مشاعر. كلا، تلك ليست ابتسامة جديدة. على العكس تماما. هي ابتسامة مريم القديمة. مريم التي داعبت طفولتي بلمستها الناعمة. مريم التي أضرمت نار العشق في روحي. مريم التي رسمت لي الأمل

بوهج من النجوم التي لا تموت. فأنا لا أزال أعيش على ذلك الأمل. «وأنا متأكدة أيضا أنني لن أجد رجلا أفضل منك. فأنت متعلم وإنسان خلوق.. ولكي أريحك من عناء التفكير والترقب، فاعلم أنني ليس لدي مانع مادام أبي موافق" قالت ذلك والابتسامة تشع منها كنور الشمس ثم هرعت إلى داخل البيت.

ولكي أمهد للأمر لدى عمي أابي صالح أخبرت عمتي شيخة أولا. فرحت عمتي لدى سماع ذلك وهللت. وقالت أن ذلك من شأنه أن يسعد مريم ويبعدها عن جو الحزن الذي تعيش فيه. "بعد أن تنتهي من تناول طعام الغداء أريدك أن تخرج وتعود بعد صلاة العصر. سأتولى تمهيد الأمر لدى عمك". على مائدة الغداء لم تكن لدي شهية للأكل، لكني حاولت الأكل قليلا على سبيل المجاملة. جلست وحيدا تحت ظل نخلة بينما مياه الفلج تجري بجانبي. صرير الحشرات العالي مع صوت تغريد الطيور وخرير الماء العذب، خلق كل ذلك جوا من الاسترخاء أتاح لي تصفية ذهني وتهدئة نفسي المضطربة. أين يا ترى أصدقاء الطفولة؟ لماذا ارتحلوا وتشتت شملهم؟ لكن من أنا لألومهم، ألم أكن أول الراحلين. حين أذن العصر توجهت إلى المسجد للصلاة. لم يكن المطوع خميس هناك، أُخبرت أنه قد غادر إلى مسقط حين سألت عنه. كان من شأن الحديث مع المطوع خميس أن يخفف عني حدة توتري وقلقي. ولا أدري لماذا كنت متوترا، أهنالك شك بأن يقبلني عمي أبو صالح؟ أم أنا متوتر من المرحلة القادمة؟ هل مستعد أنا للارتباط بامرأة مدى الحياة؟ وهل أنا على استعداد للتخلي عن أسلوب حياتي الحالي

والتخلي عن عزلتي التي تكاد تكون عشيقتي الأبدية؟ بعدما ما انتهيت من أداء صلاة العصر عصف بي ألم حاد في رأسي، اضطررت من شدته للجلوس أرضا لبضع دقائق. إن لم يكن هذا الألم عضويا، أمن الممكن أن يكون بسبب تفكيري المستمر. ولكني لم أكن لأتخلى عن ذلك، فعالم الأفكار يوفر لي ملاذا جميلا حين أكون بمفردي. أوقفني أكثر من شخص يسألني عن حالي وعن غيبتي الطويلة وأنا في طريقي نحو بيت عمي أبي صالح. معظم تلك الوجوه لم أكن أهتم لها في السابق. ولكن الآن ملأني اهتمامهم الصادق بشعور غامر من الامتنان.

كان عمي جالسا بصحبة رفيقته الدائمة دلة القهوة. كان في مزاج جيد فأسعدني ذلك وجعلني أستبشر خيرا. أمرني بالجلوس بالقرب منه فامتثلت لأمره. ساد الصمت طويلا حتى أشار علي بصب القهوة له ولنفسي. بعدها رجعنا لحالة الصمت السابقة. "أبوك كان رفيقي الوحيد بعد رحيل عمك الشيخ عبدالرحمن. كنا نجلس جلستنا هذه ونتحدث طويلا. لن أنسى وقفته معي وإخلاصه وحسن عشرته. وأنت يا ابني لم تشذ عن ذلك. فأنت رجل ذو أخلاق عالية وتعرف الأصول وتحترم العادات. كل بناتي ولله الحمد يعشن في أحسن حال مع أزواجهن وبعضهن أصبحن جدات. ومريم هي الأعز على قلبي فهي آخر من تركني. ولقد حزنت أيما حزن حين مات زوجها، فلقد رأيت ما عانته من ألم وشقاء ولا أريد لذلك أن يحدث معها مجددا. أعرف ما تفكر به، فلا يوجد أحد يستطيع رد قضاء الله. لكن الله سبحانه وتعالى أعطانا حرية الاختيار وأمرنا بالأخذ بالأسباب" كف عمي عن الكلام فجأة كأنه

نسي ما يود قوله. رغم أن كلامه كان غامضا إلا أن قلبي وخزته إبرة الشك والخوف من الأسوأ. حين طال صمت عمي أبي صالح قلت أنا كغريق يتشبث بقشة "أشكرك على حسن ظنك بي يا عمي.. وتأكد بأنني سأكون الزوج المناسب لمريم. وأنا كما تعرف قد تربيت مع مريم وإننا بذلك كالأهل و..» نظر إلي عمي بنظرة نفذت إلى روحي وشعرت بأنني قد تعريت أمامه. فكل أخطائي ومساوئي وضعفي وشروري الداخلية قد أصبحت ماثلة أمامه.

زاد ذلك من خوفي وشعرت بأن قلبي يرتعش داخل صدري. كلا، لم يكن قلبي الوحيد الذي كان يرتعش، بل أيضا يداي ورجلاي. كأنني كنت عاريا في ليلة باردة عاصفة. خشيت أن يلاحظ عمي أبو صالح ذلك. غيّر عمي من جلسته واتخذ هيئة جدية "اسمع يا ابني مسعود. أنا ليس لدي شك في ذلك ولكن لا أظن أن مريم مستعدة لأن تخوض تلك التجربة مرة أخرى" ازدادت حدة الارتعاش وانضمت بقية أعضاء جسمي لحفلة الرعاش تلك واستغربت كيف لم يلاحظ عمي أبو صالح حالتي تلك، أو ربما لم يهتم. ولكن ماذا يعني كلام عمي أبي صالح؟ هل أنا أتغابى أم أني لم أرد التصديق بكل بساطة. لم أشأ التخلي عن تلك القشة فلم يحن أوان الغرق بعد "لكن يا عمي أنت لم تسأل مريم عن رأيها.. لقد تحدثت إليها وهي موافقة... و» في تلك اللحظة تجسدت أمامي مقولة الهدوء الذي يسبق العاصفة، فلقد تغيرت سحنة عمي أبي صالح وتملكه غضب شديد وصاح بأعلى صوته "لكن الكلمة الأخيرة لي وأنت بالذات يجب عليك احترام ذلك" حين غادرتني الرعشة فجأة

قلت مستغلا الفرصة "هدّئ من نفسك يا عمي، لا تنفعل أرجوك ليس عليك أن تعطيني رأيك الآن ثم..." "لم يبق إلا عديم الأصل مثلك يملي علي ما يجب فعله" اسودت الدنيا في عيني حين قال عمي جملته الأخيرة. لقد كانت صدمة عنيفة بحيث أخرستني وجرحتني عميقا. كان عمي أبو صالح آخر إنسان أتوقعه يتفوه بمثل ذلك الكلام. جميع من تعاملت معهم لم يصدر منهم هذا التصرف. قمت من مقعدي وهرعت خارجا من غير أن أقول شيئا وأنا في حالة نفسية عصيبة.

قررت الرحيل في اليوم التالي بلا تباطؤ، فالألم كان أعظم من أتحمله وكان وجودي في ذلك المكان يزيده غورا. لعل رجوعي إلى مسقط يخفف من لهيب النار التي تحرق قلبي. لحسن الحظ كان المطوع خميس ذاهبا إلى مسقط فأخبرته برغبتي في الذهاب معه. كان المطوع خميس قد اشترى شاحنة صغيرة بيك أب يترزق منها في نقل البضائع من سوق إلى آخر ويؤجرها للراغبين في نقل أي شيء، بدأ من محصولاتهم الزراعية وانتهاء إلى نقل مواشيهم وثيرانهم. لم أخبره بما دار بيني وبين أبي صالح كما لم أخبره قبل ذلك عن نيتي في الزواج بمريم. لم أنم ليلتي تلك. ضاقت علي الدنيا في ذلك الكوخ الصغير ولم أجد المهرب الذي كنت أتمناه في أفكاري. فكل فكرة أنجح في امتطائها تأخذني وتدور بي في عوالم العقل المتشابكة. حتى إذا حسبت أنني تماهيت في خيالات تفصلني عن الواقع؛ تعود بي إلى ذلك الموقف مع عمي. لم أعد أستطيع التحكم في عقلي. أصبحت أسير تلك الأفكار، تسيرني حيث تشاء. ولكي يزداد الأمر سوءا فإن تلك الآلام في رأسي قد

عاودتني في تلك الليلة العصيبة. وأبت الظلمة الحالكة إلا أن تشاطرني وحدتي. تتشكل أمامي أشباح غامضة المعالم تتهامس فيما بينها وتتطير من زاوية إلى أخرى. لسبب ما لم أشعر بالخوف ولكني كنت تحت تأثير عجيب بحيث لم أستطع الحراك أو التكلم. من بين تلك الهمسات أستطعت أن أميز اسمي. كان صوتا نسائيا حانيا يناديني. رغبت في أن يكون صوت مريم لكنه لم يكن. "من هناك؟" استطعت أن اتفوه بذلك السؤال بعد أن استأنست للصوت. "مسعود ابني.. كيف حالك.." ماذا؟ هل كان ذلك صوت أمي. لم يسبق لي سمعت صوتا لإنسان لم ألتق به في حياتي. لكني خرجت من رحم أمي، فأنا قطعة منها وهي جزء مني. "من...أماه..؟» قلت بصوت متهدج. «لقد اشتقت لك يا ضنى قلبي..." كان صوتها يأتي ويذهب كأن أحدا أو شيئا ما يقف أمامها حين تتكلم. لم تقل شيئا بعد جملتها تلك فخفت أن ترحل "أمي إني أشعر بوحدة وبخذلان... ليس لي أحد في هذه الدنيا يا أماه" "يا حبيبي يا ابني.. ألا يزورك أبوك من حين لآخر؟ لقد نبهته على ذلك". حين غادرني الألم حل محله الكرى "هو يزورني لكن لا يلبث أن يذهب.. أين رحل أبي يا أمي؟" جفناي مثقلتان بالنوم. "لا تقلق عليه يا ولدي هو بخير.. بل هو في أحسن حال". وكالمحتضر ينطق بآخر كلماته قلت "لا ترحلي عني أنت يا أمي... ابقي إلى جانبي". وقبل أن تجرفني دوامة النوم إلى قعر محيط عالم الأحلام سمعت أمي تقول "أنا أعيش بداخلك يا ولدي... ابني الحبيب... متّ كي أهبك الحياة... فجزء من روحي قد علق بروحك...".

كان ذلك الصباح أشبه بصباح رحيلي إلى مسقط لأول مرة. تجنبت أن أمر ببيت عمي أبي صالح. عمتي شيخة ومريم ليس لهما ذنب فيما حدث، ولكن كرامتي قد انهانت وكبريائي قد جرح. وما لم يبدِ عمي أبو صالح أسفه ويعتذر لي فإنني لن أطب في بيته ما حييت. صلينا الفجر سوية أنا والمطوع خميس. حين كنا في إيهاب الصباح الباكر ونسائمه الباردة المنعشة تلثم وجوهنا سألني المطوع الخميس إن كنت أود أن أعرج على بيت عمي أبي صالح للسلام عليه، فأخبرته أنني قمت بتوديعه في الليلة السابقة ولا أريد إزعاجه الآن. بالطبع كنت كاذبا، حتى أنني لم أصلِّ المغرب والعشاء من شدة الألم. لم أخبره بأني أمضيت مسائي ذلك وحيدا في رحم حجرتي ألعن الوجود ومن فيه ذرة ذرة. ومع كل دمعة كنت أطلق شتيمة لاذعة في وجه كل من يخطر على بالي. كنت أغني أغاني فاجرة و أضحك بهستيرية بينما الدموع تنهمر من مآقيّ. شككت بكل شيء، شككت بنفسي وسبب وجودي، شككت بالمجتمع وبتقاليده وعاداته، شككت بالتاريخ وبالإنجازات المزعومة، شككت بالدولة وبالحكومة وشككت بمشاريعها وخططها، شككت بالدين وب... سمعت بطني يطلق صرخة استغاثة، فإنني لم أذق طعاما منذ ظهر أمس كذلك. وكأن المطوع خميس أحس بجوعي فعرض علي تناول طعام الإفطار في بيته. مررنا ببيته وأكلنا الرقاق بالعسل الذي عملته زوجته وشربنا الشاي بالحليب. كانت حقيبة البيك أب محملة بالبرسيم وبعلف الأبقار في طريقها إلى إحدى المزارع الكبيرة. كان وجه المطوع خميس من عجائب هذه الحياة. فهو باشّ الوجه على طول

الخط. حتى حينما يكون وحيدا فإن باستطاعتك أن ترى أثرا لابتسامة تصارع للبقاء على شفتيه. وهو إنسان عجيب بدوره. تزوج وعمره لا يتجاوز السابعة عشر كما أخبرني من ابنة عمه. لم يرزقه الله بذرية وهو الآن يناهز الأربعين من عمره، ولم يسع كذلك لأن يتزوج بامرأة أخرى رحمة بزوجته ومراعاة لمشاعرها. فصبره وتفانيه وتضحيته ورقة مشاعره وسموها لهي أشياء يعجب لها. ركبنا الشاحنة وانطلقنا في طريقنا وأنا أنظر للقرية كالمودع، كأنني لن أراها بعد ذلك أبدا.

توقفنا في مزرعة كبيرة الحجم، لكنها لم تكن كبقية المزارع. كانت هذه المزرعة متخصصة في إنتاج الحليب، إذ يوجد بها ما يقارب العشرين بقرة. وكانت متخصصة أيضا في إنتاج البيض، حيث يوجد القن الهائل الحجم الذي يحوي المئات من الدجاج جنبا إلى جنب مع مسكن الأبقار. حين انتصف النهار هدر مكيف الشاحنة كعفريت خرج من فانوس وغمرنا بنسائمه الباردة التي أنستنا حرارة الجو في الخارج. السفر مع المطوع خميس له طعم آخر. فالحديث الشائق معه هون علي متاعب الطريق. وهكذا اندمجنا في حديث متشعب عن القرية وأهلها، وعن العيش في مسقط والثقافات الجديدة والمختلفة التي غزتها. كما قادنا الحديث إلى السياسة و أخبار العالم. تساءلت معه كيف أن العالم ينجر للحروب بكل سهولة وكيف أن معظم الحروب كانت بسبب هذيان فرد واحد، دكتاتور متسلط يظن أن الحق هو اسمه الثاني ولربما ظن أنه الإله الأوحد وأن الجميع عليهم طاعته. وبمناسبة الحديث عن الحروب أخبرني المطوع عن صديق له ذهب ليحارب مع الأفغان ولم يعد إلى

الآن. كان الرجل واسمه سعيّد- بتشديد الياء- من البدو الرحل الذي ناله الحظ في التعليم الديني حينما كانت قبيلته تستوطن القسم السعودي من صحاري الربع الخالي. انضم إلى دائرة أحد الشيوخ وانضوى تحت جناحه وأصبح من المقربين له بسبب حماسه للدين وورعه الظاهر. التقى المطوع خميس بسعيّد حينما كان ذاهبا ليؤدي العمرة وجمعهم بتلك السرعة مألف القلوب. حضر المطوع خميس حلقة الشيخ عبدالله السبع وكان ذلك اسمه الحقيقي. أعجب المطوع خميس بغزارة علم هذا الشيخ وتأثيره الإيجابي على مريديه، لكنه أحس منه شيئا من الغلو لذلك توقف عن حضور دروسه. كان المطوع يرافق معظم حملات الحج والعمرة التي تنطلق من منطقتهم. وبذلك توطدت علاقته مع سعيّد الذي هجر حياة البداوة ليستقر في مكة ويتزوج من أهلها. وحدث أن احتل الاتحاد السوفيتي أفغانستان وأعلن الجهاد في العالم الإسلامي على إثر ذلك. كان الشيخ عبدالله السبع من الذين أخذوا على عاتقهم تجنيد المجاهدين وإرسالهم إلى ساحة الوغى في أرض الأفغان. وكما كان متوقعا فإن سعيّد تطوع للذهاب للجهاد في سبيل الله. وصادف أن التقاه المطوع خميس قبل رحيله. «مالك أخي سعيّد أرى وجهك متغيرا» كان أثر فنجان الشاي منطبعا على يد سعيّد الذي كان يمسكه كأنه ممسكا ببندقية ونظراته المفكرة تخترق الأرض من تحته. «لقد قررت الجهاد في سبيل الله" قالها بكل اعتيادية ونظره لم يتزحزح من على الأرض. لم يقل المطوع خميس، الذي بدا أنه مستمتعا بالشاي الذي كان يشربه، شيئا. كان الجهاد يحتمل معاني كثيرة من بينها الانقطاع

للدعوة إلى الله فترة من الزمن يعتزل فيها مغريات الحياة الدنيا من بينها الاختلاف إلى الأهل. وقد يعني الجهاد الدعوة إلى دين الله أيضا ولكن عبر السفر إلى دولة مسلمة فقيرة ومساعدة المسلمين فيها وتفقيههم في أمور دينهم ورد ضالهم إلى جادة الحق. وكل ذلك قد سبق لسعيّد أن قام به ولم يكن بالشيء الجديد لدى المطوع خميس. لكن هيئة سعيّد غير الطبيعية أثارت المطوع خميس الذي سأله "هنيئا لك، لكن لم أفهم قصدك؟". رفع سعيّد رأسه وتكلف الابتسام "لقد قررت الالتحاق بإخواني في أفغانستان لمجاهدة الروس الملاحدة". نظر المطوع خميس مليا في الجسم الضئيل الجالس أمامه وعجب من كل هذا الإيمان القوي الذي يشع من وجه هذا البدوي المغبر. "وعلى هذا أدعوك إلى أن تنضم إلى قافلة الجهاد أخي خميس. وليس هنالك حاجة إلى تذكيرك بفضل الجهاد في سبيل الله وما يناله المجاهد والشهيد من قرب من الله تعالى. فلا يوجد جزاء للشهادة إلا الجنة". استمع المطوع خميس وهو يهز رأسه موافقا وحين جاء دوره في الكلام قال "الحق ما تقول يا أخي ولا مراء في ذلك. والجهاد وإن كان واجبا فهو على كل حال فرض كفاية. وهل يوجد مسلم يؤمن بالله لا يتمنى الشهادة؟ بل هل يوجد إنسان في كامل عقله يرفض الجنة؟ لكن يا أخي سعيّد الجهاد لا ينحصر في قتال المشركين والكفار فقط. فنشر دين الله والدعوة إليه جهاد. ومساعدة الفقراء من المسلمين وتعليم الجاهل منهم جهاد. والصبر على طاعة الله والابتعاد عن معاصيه جهاد، بل هو الجهاد الأكبر كما أخبرنا رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام. وعلى كل حال أدعو من الله تعالى أن

ينصرك وينصر جميع المجاهدين لإعلاء كلمته". بدا على وجه سعيّد الإحباط وخيبة الأمل لأنه لم يكن لديه شك في موافقة المطوع خميس على الذهاب للجهاد.

«السعادة هي لعنتي... والرحيل قدري... لا تبحث عني... ابحث عن الحقيقة...»

ازدادت حرارة الجو في الخارج حين انتصف النهار. حتى برودة المكيف الهادرة لم يكن بمقدورها أن تخفي هذه الحرارة الشديدة، إذ كانت أشعة الشمس تنهمر علينا كشلال نهر عظيم، وكقارب صغير كنا نحن، تلعب بنا الأمواج الهادرة. توقفنا تحت ظل سدرة لأداء صلاة الظهر. كان هنالك جدول صغير بين صخور على مستوى أرضي منخفض عن الشجرة. جلسنا قليلا تحت تلك الشجرة الصحراوية التي تتحدى قسوة الطبيعة بقسوة مماثلة وأكلنا من الطعام الذي أعدته لنا زوجة المطوع خميس الذي تكون من خبز عماني ولحم مجفف ولبن. تكلمي أيتها الصحراء. أخبرينا بأسرارك وخباياك. قولي لنا ماذا تخفي هذه الجبال الرملية؟ أية عوالم مدفونة تحتها؟. لم تكن هنالك بالطبع أية صحراء حولنا، ليس على مرمى بصري على الأقل. مجرد سهل قاحل فسيح. ربما توجد الصحراء خلف تلك الجبال البعيدة. نبهني المطوع خميس إلى كثرة سرحاني وشرودي. لم ينتظر مني إجابة أو تفسير بل اقترح علي أن أبادر بالزواج، فالوحدة سبب لشرور كثيرة، منها الأفكار السوداء التي يسكبها الشيطان في رأس المنعزل. الحديث عن الزواج جعلني أود إخبار المطوع خميس عما حدث معي ومع عمي أبي صالح. وكنت

فعلا على وشك فعل ذلك لولا أنني شعرت بحاجة للتبول. حمدت الله على ذلك فلم أكن مستعدا بعد لمناقشة هذا الموضوع مع أي كان، فما زال الجرح حارا في داخلي. استأذنت من المطوع خميس وذهبت للبحث عن مكان ملائم لقضاء حاجتي. لم يكن يسمع أي حس لكائن في عز هذا النهار الملتهب، إلا صوت أنين البرية وهي تعانق الوهج الشمسي في هيام ومحبة. كأن الوقت توقف في هذا المكان محدثا شرخا في الزمن، فلم تكن القوانين الفيزيائية تسري في هذه البقعة الموحشة. الصمت المطبق ملأني رهبة وجلالا. أي شر ينذر به هذا الصمت الرهيب؟ يتراءى لي أن هذا الخلاء الفسيح هو المكان الأمثل لارتكاب الجرائم. فلا شاهد هنا، ولا من معين. ولهذا لم يكن أحد يسافر بمفرده حتى مع وجود هذه المركبات التي تعمل على البنزين في هذا الوقت. اتجهت نحو الصخور أسفل الجدول. كان أنين البرية في ازدياد متخذا صوتا بشريا الآن بينما كنت أتهيئ لاتخاذ وضعية الجلوس من أجل أداء غرضي. حينما انتهيت رأيت فردة حذاء من النوع البلاستيكي مغبرة وعليها بقع حمراء. استغربت ذلك، وزاد الأمر غرابة عندما رأيت الفردة الأخرى على بعد عدة أمتار قرب صخرة كبيرة. اتجهت نحو تلك الصخرة والأنين في تصاعد مستمر. حين ألقيت نظرة خلفها وجدت نفسي أصرخ بكامل قوتي "خميس... خميس".

لقد كان هنالك رجل ملقىً على ظهره، مضرجا بدمائه ويئن من شدة الألم. لون الدم غطى على لون ثوبه الأبيض. أتى المطوع خميس هرولة ثم عاونته في حمل الرجل إلى القمرة الخلفية من الشاحنة. كان هنالك

شج في رأس الرجل كان هو المصدر الأساسي لنزيف الرجل بالإضافة إلى الرضوض الكثيرة على يديه ورجليه. كان يهذي بكلمات غير مفهومة من بين أنة وأخرى لكني فهمت منه بعضها إذ كان يقول "الأوغاد... لقد غدروا بي..." . كان المطوع خميس يحاول معرفة ما حدث له "من فعل بك هذا يا رجل؟ وما اسمك؟" لم تكن هنالك جدوى من ذلك، فلقد كان الرجل في حالة سيئة وكان في شبه غيبوبة غير واع عما يحدث من حوله. كان المطوع خميس يقود في سرعة كبيرة على ذلك الشارع الترابي محاولا إيصال الرجل إلى أقرب مستشفى أو مستوصف صحي. أصبح الرجل يرتعش بشدة وسمعناه يقول "اسمي حليط ابن..." "لا عليك يا حليط، ارتح الآن ولا تتعب نفسك بالكلام» قال له المطوع خميس. تراءت لنا مساكن من بعيد. جُلنا داخل القرية لكن لم نعثر على مركز صحي بها. سألنا أحد أهالي القرية إن كان يوجد هنالك طبيبا في القرية. أخبرنا عن وجود مركز صحي يبعد خمس عشرة دقيقة من هناك. حين ابتعدنا عن القرية خفت أنين الرجل وكف عن الكلام. أشار علي المطوع خميس بأن اطمئن على الرجل. كان لا يزال على قيد الحياة إذ كان صدره يعلو ويهبط بسرعة كبيرة. لكنه كان يحتضر. حين نظرت إلى وجهه الأسمر بدا لي مألوفا. هذا الأنف الضخم وتلك العينان العميقتان وذاك السواد الشديد الذي غطى وجهه، أين رأيت كل ذلك؟ بعد عشر دقائق فقط ظهر لنا مبنى صغير عليه علم البلاد. حين أصبحنا على مقربة من المركز عاود الرجل أنينه وقبل أن يسلم الروح قال بأعلى صوت تسمح له حالته "سامحني يا أبي... سامحني يا أخي..."

«غادرتنا طالبا وعدت لنا أستاذا» كان مصطفى السيد لا يزال مديرا للمدرسة التي درست فيها حين أتيت إلى مسقط. لم تتغير هيئته كثيرا، إلا أن رأسه فقد الكثير من الشعر وزادت رقعة صلعته. لقد تم تعييني في نفس المدرسة التي تعلمت فيها على الرغم من وجود الكثير من المدارس التي بنيت حديثا. لم أسعَ أنا إلى ذلك، لم أكن مهتما صراحة أين يتم تعييني. كنت أود البدء في العمل في أقرب فرصة، علّ ذلك يشغلني عن التفكير في إخفاقي الأخير. كان ذلك من حسن حظي فلقد اعتدت على المكان واعتدت كذلك على المدرسة ولم أرغب في تغيير سكني. أخرج الناظر مصطفى مظروفا منتفخا ورماه على الطاولة محدثا صوتا عاليا. أطلت عملات نقدية برأسها من فوهة المظروف ولما رأى الناظر دهشتي قال "لقد واظب الرجل على إحضار المال إلى هنا كل شهر، على الرغم من أنني أخبرته بأنك قد سافرت". ماذا! أمعقول من أن المال الذي تركه لي أبي لم ينفد بعد؟ ومن أين سيأتي أبي بكل هذا المال وهو المزارع الفقير؟ هل يا ترى عثر على كنز؟ "لم يعد يأتي الرجل بنفسه بل سائقه» أضاف الناظر. أخذت المظروف من على الطاولة وألقيت بنظرة خاطفة على المبلغ. لقد كان يكفي لشراء الغرفة التي أسكن فيها، بل ويفيض على ذلك. فتح الناظر درجا في مكتبه وأخرج محفظة جلدية كبيرة الحجم. "هاك، خذ هذه وضع فيها المال، فليس من السليم أن تأخذ كل ذلك المال في يدك هكذا. وأنصحك كذلك أن تفتح حسابا في البنك وتودع المال فذلك أدعى للأمن ويحثك على الادخار". أزعجني الكرسي الخشبي المتهالك التي كنت جالسا

عليه "هل تعلم اسم الرجل؟" "من تقصد، السائق؟" "كلا، صاحب المال". خلع نظاراته الكبيرة وأخذ يدعكها بطرف قميصه ثم قال "كلا، لم يخطر لي أن أسال.. ولكن ظننتك تعرف بما أن المال هو من عند أبيك". هززت رأسي واستأذنت بالذهاب.

على عكس ما كنت أتوقع فلقد أحببت عملي واندمجت فيه بسرعة وبدا لي أن الحياة بدأت تأخذ مجراها الطبيعي. تسلمت تدريس أول صف من المرحلة المتوسطة لوجود نقص في المعلمين في هذه المرحلة. ومرة أخرى كان الحظ حليفي، إذ كان من المفترض أن أبدأ من الصفوف الابتدائية الأولى بسبب حداثة عهدي بالتدريس. لكني لم أكن لأصبر على شقاوة وصراخ هؤلاء الصبية الصغار، ولعمري فإن التعامل مع هذه السن أصعب من التعامل مع من هم أكبر. رغم أني هادىء لا أصرخ غاضبا بسبب أو بغير سبب، ولا أحمل عصا غليظة في يدي تسلق ظهر من تصادفه، ولا ألقي بالشتيمة يمنة ويسارا، إلا أن الطلبة كانوا يحترمونني ويقدرونني. وبمجرد أن يروا ظلي عند مدخل الباب يعم السكون ويسكت عنهم الشغب، بعد أن قد كانوا في هرج ومرج. كان لدي أحد من الخيارين، إما أن أدرس مادة التربية الإسلامية أو اللغة العربية، فاخترت هذه الأخيرة لعشقي الشديد للأدب.

المدينة من حولي ازداد عمرانها وكثرت بها المقاهي. اخترت أقربها للبحر كي تكون مكاني الأثير. كان يعمل في هذا المقهى رجل يقال له النوخذة، في منتصف عمره قصير وممتلىء الجسم، به عرج خفيف حين يمشي وروحه على الدوام مرحة. هو ليس حقا بنوخذة أو قبطان،

إنما عمل في البحر على ظهر أحد المراكب فترة لم تدم كثيرا بسبب مرض زوجته، اضطر بعدها إلى التخلي عن عمله كبحار وفتح هذه القهوة يترزق منها. لم أكن أتداخل كثيرا مع رواد القهوة لكن هنالك شاب مثلي كان دائما يأتي ويجلس لساعات طوال بيده قلم وورق يكتب عليها. لكنه لا يأتي إلا حينما تغرب الشمس ليكتب، إذ يمضي جل نهاره يجمع الأخبار والمعلومات لمقالاته التي يكتبها في صحيفة البلد. وكان مكان عمله هو الذي شد انتباهي له وحثني على التعرف عليه. إذ كانت تحمل نفس اسم الصحيفة التي أنشأناها أنا وأمجد حينما كنا ندرس في الثانوية سوية. اكتشفت لاحقا أن أحد الطلبة المساهمين فيها في ذلك الوقت واسمه عيسى الطائر أسس جريدة بإلهام من جريدتنا المدرسية تلك بعد أن درس الصحافة واشتغل بها في إحدى الدول المجاورة. سمعت النوخذة يتكلم مع هذا الصحفي الشاب ذات يوم وسمعت اسم الصحيفة يذكر في كلامهما. استدعيت النوخذة وسألته عن الشاب الذي كان يتحدث معه "أهلا، كيف حالك يا النوخذة؟" نظر إلي وابتسامته أعرض من المعتاد زادها الجرح الأفقي بجانب فمه من جهة اليمين طولا. "أهلا بالأستاذ. آمرني" لم أعرف كيف أطرح سؤالي لكني قلت في نهاية الأمر "الشاب الذي كنت تحادثه منذ برهة، من هو؟" سحب النوخذة كرسيا من الطاولة المقابلة وجلس عليه وقال "إنه شاب جامعي مثلك، لكنه درس في بلاد الإنجليز، أعتقد أن اسمها فرنسه. وهو يعمل في جريدة البلد. تعال أعرفك عليه إنه شاب حلو المعشر وهادىء الطباع مثلك". جرني النوخذة من يدي جرا نحو ذلك الشاب الذي كان

مستمتعا بتدخين إحدى تلك السجائر الإمريكية الصنع. رائحة السجائر تشبه تلك الرائحة التي تصاحب الرؤى والأصوات التي تزورني. الألم أصبح روتينا، جزءا لا يتجزأ من روحي. صرت في لامبالاتي كاتحاد الشقاء والسعادة. هدنة أبدية بين الشر والخير في قلبي. «السلام عليكم أستاذ" كانت تلك الابتسامة العميقة علامة مسجلة باسم النوخذة. "أعذرنا على إزعاجك، لكن الأستاذ مسعود عبيد يحب أن يتعرف عليك" ثم نظر إلي وقال "أعرفك بالصحفي حسن عمر، بإمكانك قراءة عموده كل سبت في صحيفة البلد، بالإضافة إلى الأخبار الأخرى التي يكتبها". كان حسن شاب نحيل وطويل الجسم، وجهه غائر به حزن أبدي لا يزول. حتى عندما يبتسم لا تغادر تلك الهالة الحزينة عينيه. رحب بي باقتضاب واستطعت أن أرى أننا فعلا أزعجناه. لكن حينما حاولت التراجع نحو طاولتي أشار علي بالجلوس. «أعتذر على الإزعاج أخ حسن، لقد كنت أسأل عنك النوخذة وباغتني هو وسحبني إليك". عرض علي سيجارة ورفضت "لا بأس، ليس هنالك أي إزعاج. في الحقيقة أنا أيضا كنت أود التعرف عليك. فأنت مثلي تحب العزلة ولا تخالط أحدا هنا". شعرت برغبة كبيرة في التدخين. "إذا أنت تكتب في جريدة البلد. هل تعلم أنني من المؤسسين الأوائل لهذه الجريدة" نظر إلي بغرابة طالبا مزيدا من التوضيح "عيسى الطائر كان زميل دراسة لي في المرحلة الثانوية وكان مجرد كاتب بها. بالطبع أنا لست أتحدث عن الجريدة الحالية بل تلك التي أنشأناها وقت الدراسة وهي التي ألهمت عيسى لإنشاء جريدته هذه". كرر حسن عرضه لي في تدخين

سيجارة وهذه المرة قبلتها "في الحقيقة أنا لا أدخن السجائر وأفضل الأرجيلة عليها، لكنها تكاد تكون شبه معدومة هنا» قلت على سبيل التوضيح. منعت سحابة كثيفة من الدخان حسن من الكلام، رفع يده ولوح بها ثم قال وهو يسعل بخفة «دعني أخبرك شيئا مسعود. حينما تكون معي ليس عليك أن تقول شيئا أو بإمكانك التفوه بما يحلو لك. وليس عليك خاصة تفسير تصرفاتك. بإمكانك التدخين أو عدمه. وإذا رغبت بإمكانك الغناء أو الصراخ بصوت عال أو الرقص عاريا إذا شئت ذلك". كان طعم السيجارة شهيا للغاية ومع كل سحبة آخذها أشعر أنني أسترخي وروحي تنفصل عن جسدي. جلسنا أنا وحسن ننظر إلى بعضنا البعض من خلال ذلك الضباب الدخاني من غير أن نقول شيئا. وكانت تلك بداية صادقة حميمة ستجمعنا معا.

كنت أنتظر نهاية ذلك الشهر بفارغ الصبر فلقد كنت مصمما على معرفة المحسن الخفي الذي يمدني بذلك المال الذي يدعي أن أبي قد تركه لي. لذلك أخبرت الناظر مصطفى بأن يعلمني متى ما جاء السائق حتى ولو كانت لدي حصة أدرسها. كنت جالسا مع الصحفي حسن ساهي الفكر أحرق السيجارة تلو الأخرى بعد أن أنهيت قراءة مقالة لصاحبي في عموده الأسبوعي. كان يتحدث عن تأثير العقل الباطن في سلوك البشر وتفكيرهم محاولا إبراز هيمنة العقل الباطن على الوعي لولا تدخل الحواس الخارجية التي تخدم سيدها العقل الواعي أو الظاهر. ذكرني ذلك بالمناقشات التي كنت أجريها مع حمدي هناك في القاهرة. كان نظرة حمدي للفلسفة تصطبغ بالطابع الديني في أغلب الأحيان،

وكان يقول إن الفلسفة بطابعها الغربي يشوبها الكثير من الإلحاد. لذلك على المسلم المشتغل بالفلسفة أن يهذبها ويلجمها بلجام الإيمان وكان هو بهذا الرأي من أنصار الفيلسوف الإسلامي أبي حامد الغزالي. وكنت أحاججه من ناحيتي بأن الفلسفة يجب أن تعامل معاملة أي فرع آخر من فروع المعرفة كالطب والفلك. وعلى هذا الأساس فالفيلسوف المختص المتبحر الذي لا يخشى على إيمانه أو عقيدته من التزعزع هو وحده القادر على طرح الأسئلة الفلسفية العميقة والشائكة وتبسيطها وشرحها لحديثي العهد في الاشتغال بالفلسفة. «مقال جميل ويزخر بالكثير من الأفكار المهمة كما أن أسلوبك الشاعري الجذاب لم يمنع من اقترانه بالعلمية وأكاديمية الطرح ولكن..» ألتفَتُّ لأرى حسناً جالسا كما هو بأسلوبه اللامبالي ونظرة سلفادور دالي الجنونية تعلو عينيه. لم يكن يهتم للمدح كثيرا، وكانت له نظرة غريبة في هذا الشأن، إذ يعتقد أنه كلما زادت عبارات المدح كشف ذلك حقيقة نفاق المادح والأسوأ من ذلك يراه حسن دليلا على ضعف محتوى الموضوع مجال الثناء وضآلة قيمته. "لكن.. لكني أراه يغوص عميقا في المفاهيم الفلسفية ويغلب عليه الطابع الأكاديمي المتخصص، وبهذه الطريقة يا صديقي ستخسر القارئ العادي". وضع السيجارة على المنفضة الخزفية من غير أن يطفئها "وبمعنى آخر تريد القول إنني تعاليت على القارئ وإنني حاولت أن أستعرض عضلاتي المعرفية.." اكتفيت بهز رأسي فأكمل هو "دعني أخبرك شيئا، أنا ككاتب لا يتوجب علي أن أعطي دروسا تمهيدية للناس ولا يتوجب علي كذلك أن أكتب بلغة الأطفال كي يفهمني العوام.

موضوع المقالة توجب الأسلوب، ولا عزاء لكسالى العقل". لم يكن يفضي جدالنا إلى خصومة مطلقا، فكلانا يعرف بأن تصارع الأفكار هذا من شأنه أن يثري الموضوع الذي نحن نتجادل بصدده. سألته أن يحدثني عن فرنسا وعن باريس، فلقد ملأت مسامعه بحديثي الدائم عن حياتي في مصر من جانبي فجاء الدور عليه بأن يخبرني عن بلاد الفرنجة هذه، بلاد بلزاك وبودلييير وفولتير وبقية الأدباء والمفكرين الفرنسيين الكبار. طلبنا المزيد من القهوة التي أدمنتها معه وصرت لا أشرب غيرها. "مقهى لي دو ماجو.. النبيذ بها أشهى من أين مكان.. سالوميه.." في أحيان كثيرة يغيب حسن عميقا في تفكيره حيث يلفنا الصمت في ردائه الخفي، حتى أنه في مرة من المرات جلسنا مدة ساعة كاملة من غير أن نتفوه بكلمة واحدة. بطريقة ما كنا نتواصل عن طريق أفكارنا فعندما ننتهي من صمتنا نكون قد اتفقنا على الذهاب إلى المطعم الفلاني لتناول العشاء. لم أطلب منه توضيح الكلمات المتناثر التي ألقى بها، بل تركت له الوقت كي يخبرني هو بنفسه بعد أن يستجمع شتات أفكاره. "لقد كان وجودي في باريس مصدر إلهام لي، إذ يكفي أن تمشي في شوارعها حتى تهمس في أذنك حوريات الإلهام" أمسك بكوبه لبرهة قبل أن يرتشف منه "كان من حسن حظي أن وجود مقهى لي دو ماجو الذي كان يرتاده عمالقة الأدب الفرنسيين من أمثال سارتر و ألبرت كامو في المنطقة التي كنت أقطنها. وعلى رغم من ارتفاع أسعاره مقارنة بالمقاهي الأخرى، إلا أنني حرصت على ارتياده متى ما سنحت لي الفرصة وهنالك التقيت بسالوميه أو هكذا قالت لي أنه اسمها". توقف قليلا ليشعل سيجارة أخرى

بينما أطل علينا وجه القمر بكل فضول "كانت تأتي وحدها مثلي وغالبا ما تلبس رداءً أحمر ولا تشرب غير النبيذ الفاخر. سمعت النادل مرة يسألها عن سبب حضورها الدائم وتجيب هي قائلة بأنها تنتظر خطيبها الذي ذهب للحرب. كانت جميلة وأنيقة ولكن ليس ذلك هو السبب في اهتمامي بها، إنما حضورها الدائم. أدمنت قراءة الروايات الفرنسية في مقهى لي دو ماجو كما أدمنت النبيذ والقهوة والتدخين ورؤية سالوميه تنتظر» السحابة الكثيفة التي أطلقها حسن غطت القمر للحظة "في لحظة إلهام وبينما كنت أقرأ رواية مدام بوفاري لجوستاف فلوبير خطر لي أن أكلمها. سألت النادل عن نوعية النبيذ التي كانت تشربه. وقفت أمامها باضطراب شديد وكانت يداي ترجفان وخفت أن يقع الكتاب من يدي "هل تسمحين لي أن أقدم لك كأسا من النبيذ؟" رفعت رأسها بلا مبالاة وألقت علي نظرة متعالية كأنني متشرد فقير جاء يطلب منها صدقة. تأخر ردها كثيرا حتى فكرت بالانصراف "بالطبع لم لا" جلست بسرعة كأنني خفت أن تغير رأيها رميت بالكتاب على الطاولة بقوة مما أحدث صوتا عاليا بسبب اصطكاك الكؤوس. أشرت للنادل وطلبت كأسين من نبيذ بوردو شاتو جران واستطعت أن أرى أنها أعجبت باختياري. لم نبادر بالحديث حتى وضع أمامنا كأسي النبيذ حيث قالت هي "أنت طالب في الجامعة؟" خفف النبيذ من توتري قليلا "نعم.. ولكن كيف عرفتي؟" أشارت إلى وجهي بيدها التي تحمل السيجارة "وجهك يدل على ذلك" حين أنهينا شرب النبيذ نظرت إلي كأنها تقول والآن ماذا؟. وجدت نفسي أقف وأنا في حرج شديد وقلت "هل أستطيع رؤيتك من

جديد؟" نظرت إلي وابتسمت لأول مرة منذ رأيتها في هذا المقهى "نعم بالتأكيد فأنت تعلم أين تجدني" ثم ضحكت بخفة. مع تعدد اللقاءات تجرأت في سؤالها عن خطيبها الذي تنتظره. اعتلت وجهها تعابير انكسار وحزن وأخبرتني عن خطيبها الذي استدعي للتجنيد وأرسل ليلتحق بكتيبته في إفريقيا. كان قد خطبها قبل ذلك وكانا يعيشان قصة حب خيالية كالتي تحكي عنها الروايات. «ولكن لماذا تأتين وتنتظرينه هنا كل يوم؟" "لقد غيرت عنوان سكني ولم أجد طريقة لإخباره عن سكني الحالي. وهذا المقهى كان مكان لقائنا قبل رحيله. معظم الكتائب العسكرية قد عادت من مهماتها. فقلت في نفسي ربما يكون قد عاد ولم يجدني في شقتي القديمة رغم أني تركت عنواني الجديد مع صاحبة البناية و..." لم تجد ما تقوله بعدها فالظاهر أن حديثها عن حبيبها الغائب كان يرهقها. ربما يكون قد مات. أردت أن أبوح بذلك الخاطر لكن خفت أن أسبب لها الألم فقلت عوضا عن ذلك "هل حاولت الذهاب إلى السلطات العسكرية والسؤال عنه؟" تناولت منديلا من حقيبتها اليدوية ومسحت دموع قبل أن تولد أسفل عينيها "نعم وأكثر من مرة، لكن لسبب ما لا يستطيعون العثور على ملفه. دخلت على الضابط المسؤول غاضبة إذ كيف يعقل أن يختفي ملف مجند لديهم بكل هذه البساطة. أخذ يتحجج ويلقي بأعذار ويقول إن بعض ملفات الجنود بالفعل فقدت وبعضهم يؤدون مهمات سرية واستخباراتية وهؤلاء لا تكشف ملفاتهم لمن هب ودب. لكنه وعدني أن يبحث في الأمر بعد أن سألني عن تاريخ مغادرته فرنسا والوجهة التي ذهب إليها. ولقد مرت

أكثر من ستة أشهر وأنا أتردد على ذلك الضابط من غير أي نتيجة حتى سأم من حضوري ورفض مقابلتي في آخر زيارة لي". في ذلك اللقاء دعوتها لتناول العشاء في أحد المطاعم. تخيلت أننا أيضا كنا نعيش قصة حب وكان النبيذ يساهم في ترسيخ هذا الوهم. كان موعد العشاء مثاليا. تكلمنا كثيرا وضحكنا أكثر ومشينا بأيد متشابكة على ضفاف نهر السين وأضواء باريس وبرج إيفل يضيفان إلى سحر الحب والهيام سحرا آخر. وافقت بعد تردد كبير من ناحيتها وإلحاح من جانبي على أن ترافقني إلى شقتي، ولكني نادم إلى الآن على ذلك الأمر. كانت لدي زجاجة نبيذ سهرنا على شربها والكلام. عندما أنهينا آخر كأسين حاولت تقبيلها لكنها صدت جانبا. اعتقدت بادىء الأمر أن ذلك الصد كان بسبب خطيبها. لكنها أوضحت الأمر بعد أن أخذت في نحيب مفاجئ "أنا آسفة.. لا أستطيع.. آسفة.." وضعت يدي على كتفها العاري وقلت "ما الأمر يا سالومي، لماذا تبكين؟" حصلت على الإجابة بعد أن كفت عن البكاء «لا أستحق كل هذا.. لا أستحق.. لم أكن صادقة معك تمام الصدق.." جاهدت نحيبها لتكمل "لدي خطيب عائد لكنه تزوج من أخرى حينما عاد من الحرب وهاجر معها إلى إيطاليا. جئت إلى باريس وأنا أمني النفس بأن أصبح ممثلة لكن الأمور لم تجري كما أشتهي. ولأنني لا أحمل مؤهلا جامعي لم أجد وظيفة تسد احتيجاتي لذلك عملت... أنا عاهرة" "ولكن... لم أرك... كيف ذلك..." تلعثمت من هول المفاجأة. «لم يكن زبائني يأتون إلى مقهى لي دو ماجو فهم من الشخصيات المعروفة والمهمة ومن كبار موظفي الحكومة. بل يأتون عن طريق مدام

لافيت فهي الواسطة بين المرافقات، هكذا كانوا يسموننا، وبين الزبائن الذي لا يودون أن يعرف أنهم يواعدون بنات هوى. وطبعا لأن أسعارنا باهضة الثمن فلم يكن يأتينا إلا صفوة الرجال وأثرياؤهم. وما ذهابي إلى ذلك المقهى إلا للأبهة كما أنني أحرص على الذهاب إلى المسارح والصالونات والحفلات الراقصة فهنالك أصطاد زبائني الذين يظنون أنهم من قاموا بالاصطياد". لا أدري لماذا أحسست بأنه تم خيانتي والغدر بي. لم أكن أعرف سالوميه إلا منذ فترة قصيرة. وهي لم تقدم لي أية وعود. لكن ألم الجرح جعلني أقطع علاقتي بها. و بعد ذلك اللقاء توقفت عن الذهاب إلى مقهى لي دو ماجو ووجدت مقهىً آخر».

جاء الناظر بنفسه ليخبرني بمجيء الرجل. أخبرت الصف بمتابعة القراءة حتى نهاية الحصة. لم يكن الرجل عربيا لكنه كان يتقنها وباللهجة المحلية أيضا. كان ضئيل الجسم بوجه شاحب من تلك الوجوه الكادحة، لونه البني يدل على أنه من الهند أو البنجلاديش. ثيابه الرخيصة الثمن وغير المتناسقة لم تتناسب مع السيارة الفارهة التي يقودها أو حتى المال الذي يحمله فلقد كان يساوي راتبه الشهري كاملا. حين سألته عن اسم سيده وعنوانه رفض ذلك ثم قال أن سيده أمره إن سألت عنه أن يحضرني إليه، إذ كان يود رؤيتي شخصيا. استأذنت من الناظر وذهبت مع الرجل الذي كان اسمه علم من البانجلاديش. نظر إلي السائق باستغراب حين ركبت في المقعد الأمامي بجانبه، فقد تعود أن يكون الراكبون في الخلف. قدنا في الشوارع الحديثة مخترقين حواري مسقط القديمة باتجاه مدينة القرم. صعدنا نفس التلة التي يوجد

عليها فيلا عائلة أمجد وبدا لي كأننا متجهين إليها. لكننا مررنا من أمامها واستطعت أن أرى آثار غياب الساكنين، وكان الأكثر دلالة من بين هذه الآثار الظلام المنبعث من داخل البيت والذي يرى من خلال النوافذ. تابعنا الصعود أعلى التلة حيث تربع على قمتها قصر وحشي الحجم يفوق فيلا عائلة أمجد ثلاثة مرات على الأقل. فتح لنا البوابة الحديدية التي تتسع لدبابة حارس كان مرابطا خلفها. وتكرر نفس المشهد السابق. حيث الفخامة تصرخ في كل زاوية وركن. حديقة غناء كأنها غابة صغيرة فصلتنا عن القصر الكبير. حين ترجلت من السيارة شاهدت ملاكا بشريا كان يتمشى في الحديقة، فتاة لم أرَ مثل جمالها من قبل. كانت ذا ملامح عربية إلا أن بياض بشرتها الشديد لا يوحي بأنها كذلك. انتشلني صوت السائق علم يدعوني إلى الدخول ولا أعلم إن كان رآني وأنا أنظر إلى تلك الحسناء. تدلت ثريا كبيرة من وسط سقف البيت في ردهة شبيهة بالقصور الباريسية في القرن التاسع عشر. قادني علم إلى غرفة جلوس على اليمين مباشرة من مدخل البيت. ولا حاجة لي للكلام عن كبر هذه الغرفة، فكل شيء في هذا القصر ثلاث مرات أكبر من حجمه لو كان في مكان آخر. سألني علم إن كنت أود شرب شيء فأخبرته أنني سأنتظر سيده. جلست على أريكة مريحة جدا فألقيت برأسي للوراء وتمنيت لو كان سريري بمثل تلك الراحة. كانت هنالك لوحات كثيرة لمناظر طبيعية على الجدران بالإضافة إلى الزخارف الخشبية التي لم تترك منطقة عارية من الجدران إلا وغطتها. كما كانت هنالك خزانة كتب احتلت الجزء الأكبر من الجدار المقابل بينما كانت هنالك نافذة

كبيرة بطول الجدار بجانب الخزانة تكفي لدخول شخص بالغ من غير أن ينحني. كان جو الغرفة يوحي بالهدوء والسكينة مع تسلل صوت زقزقة العصافير قادما من الحديقة. كانت هنالك صورة فوتغرافية كبيرة لرجل بدا مألوفا لدي. طال الوقت وأنا انتظر ولم يمنع جو الاسترخاء ذاك من شعوري بالملل. عادت إلي صورة تلك البنت الجميلة وأنا أنظر إلى الحديقة. ترى من تكون؟ ما أنعم صفاء ذلك الخد لو..؟ "السلام عليكم" دخل علي رجل قصير لكن له حضور مهيب أبيض الشعر وبلحية خفيفة بيضاء هي الأخرى ووقف بجنب الصورة الفوتوغرافية التي كانت له إذ لم يكن هنالك فرق بين الصورة والأصل.

رددت السلام بتلعثم وقمت لكي أصافح الرجل بيد ترتجف من شدة التوتر فلذلك الرجل حضور مهيب. أين سبق لي رؤية هذا الرجل؟ حين تلامست يدانا أحسست برجفة في قلبي كأنه تحرك من مكانه قليلا. "خليل..." نعم لقد كان خليل الذي كان يعمل صبيا لدى التاجر فؤاد. خليل الذي كان أشد من الصخور صمتا وهدوءا. خليل الذي لم يكن يعد من الأحياء والذي لم يعبأ أحد لغيابه حين اختفى فجأة ذات يوم. "عمي خليل.. أهذا أنت؟" لقد كان خليل رفيق أبي الدائم وربما صديقه الوحيد بعد عمي أبي صالح. كانا يقضيان وقتا طويلا سوية وكانا يتحدثان كثيرا في مواضيع لم أكن أفقه معناها. إذا هذا هو سبب رحيله، لقد كان يخطط للمجيء لمسقط كل تلك الفترة لكي يبني ثروته. "أهلا بمسعود، كيف حالك يا ابني. تعال اجلس" ابتسامته خففت من حدة توتري. "لم تتغير كثيرا يا مسعود لكنك ازددت طولا. كيف كانت دراستك في

القاهرة، أتمنى أن تكون مصر أعجبتك» دخلت علينا فتاة الحديقة الفاتنة والظاهر أنها تفاجأت لوجودي إذ توقفت في مكانها وسط الغرفة كأن صاعقة أصابتها، تبادلت مع خليل بضعة كلمات بالإنجليزية ثم رمقتني بنظرة باسمة قبل أن تغادر راكضة. لم أستطع أن أشيح بنظري عن ذلك الوجه ذي الجمال الهادئ مستغلا انشغال خليل بالحديث إليها. " كانت تلك ابنتي سارة، وهي طالبة بالمدرسة الإمريكية" أظنه قال تلك الجملة الأخيرة ليفسر حديثهما بالإنجليزية. سماع صوته لوقت أطول جعلني أستأنسه مما أزال الرهبة تماما مني. وكأنني رجعت أعواما عديدة لـلوراء وكأننا الآن جالسان في مزرعة التاجر فؤاد نتحدث وأبي يعمل على الفلج أو معتليا إحدى النخلات. لا يزال الوجه هو هو الذي كان يداعبني وأنا صغير و يضعني على ظهر الحمار وأنا أصيح طالبا أبي. كان هو الصوت نفسه الذي تعلو به الضحكات في الأماسي الكثيرة مختلطة بضحكات أبي. كنت سعيدا بأن الرجل المحسن هو خليل ولكن لماذا أخفى الأمر عني كل هذه السنين. «اسمعني يا مسعود، لعلك تتساءل لماذا لم أطلعك على هويتي طوال هذا الوقت. في البداية كانت الأمور معقدة قليلا ولم أستطع إخبارك وفوق ذلك شغلتني تجارتي وأعمالي الكثيرة وأنت بدورك كانت لديك دراستك. وعلى كل حال أنا أعتذر لك عن ذلك. أباك..." توقف خليل فجأة عن الكلام وبلع ريقه ثم أكمل "أباك كان من أعز الناس لدي. كان صديقي الوحيد ورفيق دربي وقبل أن يرحل وصاني بشيئين. الشيء الأول أن أقوم برعايتك والشيء الثاني أخبرني بأن أقول لك شيئا ربما سيسبب الكثير من الألم

لك لكنه أعتقد أنه من الضروري أن تعرف". أطل علينا علم سائلا إن كنا بحاجة إلى شيء وأمره خليل بأن يحضر القهوة. "لا أدري ماذا أقول يا عمي خليل. لدي الكثير من الأسئلة بالطبع ولكن هل تعلم أي شيء عن اختفائه؟ ومتى وأين أخبرك بكل هذه الأمور وأنت كنت غائبا عن القرية؟". تنهد خليل وهو ينظر ناحية الحديقة ثم قال "للأسف لا أعلم عنه شيئا ولقد زرت القرية قبل اختفائه والتقيت به و..." توقف خليل ليسعل "وتحدثنا كثيرا ثم أعطاني النقود ولم يخبرني أنه كان بصدد الرحيل أو ما شابه". "ولكن كيف يعقل أن يختفي هكذا من غير أن يترك أي أثر. كيف يرحل ويتركني وحيدا. وإن افترضنا أنه تعرض لحادث أو مات أين اختفت جثته؟". قلت ذلك بانفعال شديد وبصوت عال نسبيا وتوقعت أن يلومني عليه خليل. لكن لم يقل شيئا وظل ينظر إلى الأرض كصبي صغير يتلقى توبيخا من والده. وحين طال الصمت قلت سائلا بصورة أكثر هدوءا "وهذا المال الذي تركه، أمن المعقول أنه لم ينفد إلى الآن؟ لا أعلم لأبي أي مصدر دخل آخر غير ذاك الذي كان يأتيه من الأعمال التي كان يقوم به في القرية". «لقد كان المال الذي أعطاني إياه أبوك كثيرا لكن بالطبع لم يكن ليدوم كل هذا الوقت. إلا أنني استثمرت جزءا كبيرا منه في تجارتي وجاءتني الأرباح أضعافا مضاعفة. وهكذا شعرت أنه من واجبي أن أستمر في أعطائك شيئا من المال..." قطع حديثنا علم حاملا صينية عليها دلة قهوة وبعض التمر ومن ورائه خادمة فلبينية تحمل هي الأخرى صينية أكبر حجما عليها فواكه من شتى الأصناف. قام علم بالخدمة علينا من صب للقهوة

وتقطيع للفاكهة وكان خليل يعامله بكل لطف وسماحة كأخ له. بعد القهوة أخبرني خليل بالسر الذي أوصاه أبي بإخباري إياه والذي زلزل كياني حتى النخاع وصدمني بقوة حتى أحسست بدوار شديد ولكني عوضا عن الأغماء سمعت صراخا حادا داخل رأسي.

صدمة الكلام الذي أخبرني به خليل لازمتني في الأيام اللاحقة وأثرت في عملي بحيث كنت أتكلم بذهن غائب وألقي بكلام غير مترابط. زاد عدد الأحلام والكوابيس الليلية والرؤى النهارية والأصوات التي تأتيني في كل وقت. كنت في اضطراب دائم وكان ذلك ظاهرا علي حتى أمرني الناظر بأخذ إجازة كي أرتاح فيها. وفي خضم ذلك جاء رجل من القرية لم أره من قبل في حياتي ليخبرني بشيء أسعدني لوهلة. كان الخبر مفاده أن الشيخ أبا صالح يود رؤيتي في موضوع ابنته مريم. استنتجت بلا مزيد من التفكير أن أبا صالح قد وافق على زواجي من مريم. أخذت الإجازة التي اقترحها علي الناظر ورحلت للقرية بلا تباطؤ. وفي الطريق إلى القرية أخذت في مراجعة مشاعري ورأيت ما هالني. رأيت وجه شيطاني يضحك لي وأنا أقبل قدميه. كانت نوبات الصداع تسبب لي إغفاءات مفاجئة وعادة ما تأتي الرؤى مع هذه الإغفاءات. هل كنت سعيدا لأنني سأتزوج مريم أم لأنني سأنتصر لكرامتي وأجعل أبو صالح يعترف بخطئه في حقي؟ وصلت القرية خاليا من المشاعر وسمعت سائق التاكسي يقول إن علي رؤية طبيب في أسرع وقت لأنني كنت أهذي بينما كنت نائما. وقفت أمام الباب الحديدي الأسود لوقت طويل

وضحكات خافتة ترن في أذني. سمعت صوت بكاء آت من الداخل وحينها فقط طرقت الباب بيدي متجاهلا الجرس الكهربائي. فتحت عمتي شيخة الباب وهي تكتم نحيبها سلمت عليها ودخلت من غير أن يؤذن لي واتجهت رأسا إلى مجلس الرجال. كان عمي أبو صالح مستلقى أرضا متدثرا بغطاء صوفي رغم أن الوقت صيف. لم يشفع مرضه وحالته الصعبة من أن أكلمه ببرود وسمعته يقول بصوت مبحوح "سامحني يا ابني، لقد أخطأت في حقك. لقد كنت غاضبا في ذلك الوقت، لكنك هداك الله لم تترك لي فرصة ورحلت سريعا". لم أرد عليه بينما جاهد هو ليجلس "مريم يا ابني... لقد هربت.. الخطأ كله يقع علي.. لقد استسلمت لإلحاح شيخ قبيلة البلوي الذي أراد الزواج منها وهو أكبر مني سنا... هربت بعد أن حاولت الرفض وإقناعي بعدم رغبتها في هذه الزيجة... لقد أخطأت حين رفضتك لقد كانت تحبك..." لازمت صمتي والغضب يحترق نارا في دمي. "هل جاءت عندك يا ولدي؟ هل أتت إلى مسقط لكي تراك؟ أخبرني يا ابني. أنا لست غاضبا، وسأوافق على زواجك منها. فقط أخبرني أين هي؟، أخبرني أين ابنتي؟» «ومن أين لي أن أعرف؟. كلا لم تأتِ إلي" قلت ذلك صارخا وقمت واقفا متأهبا للذهاب. جاءت عمتي شيخة راكضة لترى ما الأمر بينما انهمك أبو صالح في سعال مرير. سكين حادة اخترقت دماغي وشعرت بأشلائه تتدفق حتى غشيت عيناي. ورأيت مريم وهي تضحك وتبكي وتقول "السعادة هي لعنتي والرحيل قدري. لم أتحمل وطأة الواقع فرحلت. أنا

أحبك يا مسعود لكن لا تبحث عني... ابحث عن الحقيقة". حين زالت الغشاوة رأيت عمتي شيخة وقد فتحت لي ذراعيها كأنها تود معانقتي لكني تجاهلتها وأنا أصرخ "دعوني في حالي، أتركوني في شأني" ولا أعلم إن كنت أقصد الناس من حولي أم الأصوات التي تصرخ في رأسي.

الفصل الرابع

ترمقني العيون بنظرات غريبة. كأنهم يشاهدون حيوانا يؤدي خدعا في سيرك. تعودت تلك النظرات كما تعودت تلك الزيارات المسائية. تحسست الأوراق النقدية في جيبي وأنا أتساءل عما يفعله ملاك في قصر الشيطان. أزاح مسعود قطرات العرق من على جبينه وهو يعاين البضائع المرماة تحت قدميه. يشتري ربطة فجل وبعض الخيار. اللهم دمر قرية السوء تلك أخذت مني أبي وأمي ومريم. يقف أمام محل ويطلب من البائع بعض السمك المجفف. أسمع همسهم وهو يقولون لقد أتى المجنون. كل ذلك لأنني كنت أتكلم مع أبي. ماذا علي فعله، هل أتجاهل صوت أبي؟ أعطني أفضل ما لديك من سمك، فإن أمي ستزورني الليلة. يتناول البائع النقود من مسعود وهو يهز رأسه. يؤسفني يا مسعود أن أطلب منك عدم المجيء إلى المدرسة بعد الآن. ولماذا ذلك يا حضرة الناظر؟ لماذا صرخت فجأة في حضرة المفتش من الوزارة بأن الله غير موجود؟ في حالتك الطبيعية أنت معلم ممتاز والطلبة يحبونك ويحترمونك. حتى أنني تغاضيت عن صراخك وغنائك المفاجئ، لكن الشكاوى زادت عليك وخطاب الوزارة الأخير يتهمني بالسماح لمجنون بتدريس الطلبة. اذهب الآن فإن هم أتوا فإنهم لن يكتفوا بطردك بل سيودعونك في أحد المصحات العقلية. خفافيش الظلام. يحيكون

المؤامرات ليسقطوا كل ناجح. فهم لا يحبون المختلف. حتى في الدين. مرتد. أنا لا أصلي. عاش لنا الحاكم حاكما أبديا مدى الحياة. يستوقفه سيف مزخرف في متجر للفضيات. صاحب المحل يدفعه بقوة ويقول له غر من هنا أيها المجنون، إنك تخيف الزبائن. بينما ينحني ويبتسم لشقراء ويكاد يقبل الأرض تحت قدميها. تلك الحسناء التي يحتجزها الشيطان ليست شقراء لكنها أجمل امرأة أراها حين تبتسم. ترى لماذا تبتسم لي؟. وهذه الحسناء المحنطة تبتسم لي من خلف الزجاج. أيها الملاعين المنافقون. تبا لكم. تبا لك أنت ايها المجنون، ماذا حل بك في هذا المساء؟. هم يرفضون الأصوات بداخلهم ويتجاهلون حديث الروح. بكم هذا السيف يا شيخ؟. ينظر إليه البائع من فوق كتف الشقراء العاري ولم يرد عليه. حين غادر السياح من غير أن يشتروا منه هرع البائع نحو مسعود وأخذ يقرعه ويتهمه بأنه السبب في عدم شرائهم منه. لكن مسعودا أعاد له السؤال. ثلاثمائة ريال لكن وبما أنك زبوني المفضل فإنه لك بثلاثمائة وخمسين ريالا. ادخل مسعود يده في حفظة نقوده التي كان يربطها على خصره ولكن البائع غادره بسرعة عندما رأى مجموعة أخرى من السياح تدخل المحل. نظر مسعود نحو السماء. لقد بدأ الوقت يظلم. علي الإسراع وإعداد العشاء لأمي.

لا أدري أية قوة شيطانية دفعتني لأن أنسل من بين زملائي وأغادر المركب وأتجه لقصر تلك السيدة الحسناء. ألم تقل لك بأنها متزوجة ماذا تريد منها بعد؟ لعلها خرجت لكي تتمشى في حديقتها. الآن، في هذا الوقت؟ هل أنت مخبول؟ الريح تنفذ إلى العظام لتلد البرد هناك

وترقد بعد أن تكون استحمت بمياه المحيط. لم يكن علي إلا ثوبي الخفيف المصنوع من القماش، حسبت أن الجو سيكون أكثر دفئا ما إن أتوغل بين البيوت. لكن الأمر لم يكن كذلك، استبدلت برودة البحر الرطبة ببرودة أخرى جافة قادمة أغلب الظن من الجبال البعيدة. ماذا أقول لو صادفني أحد ما؟ خوفي تركز في ذلك الوقت على شيئين اثنين، جنود الحامية البريطانية الذين يعتقلون الرجال لأتفه الأسباب وأحيانا على سبيل التسلية وتمضية الوقت. واللصوص والقتلة الذين يرتعون في الليل وينشطون به. والقتل عند هؤلاء سهل للغاية، خاصة وإن لم يجدوا شيئا يسرقونه فإنهم يقتلون الضحية عندها بسبب الإحباط وخيبة الأمل. لكن المكان يبدو هادئا وخاليا تماما من البشر. أصوات الليل لم تكن لتخيفني فلقد تعودتها في بلدي خاصة وقت الصيف حيث ننام نحن الرجال في حوش المنزل من شدة الحر. تبا، البيوت تبدو متشابهة في هذه الحلكة. لكن مهلا، هذا هو. هناك ضوء خافت يأتي من الجهة الغربية من البيت. هل يا ترى لا تزال صاحية؟ وماذا تفعل في هذا الوقت وهل زوجها معها؟ لم يكن الجدار عاليا، ليس بالنسبة لي على الأقل، ألا يخافون اللصوص؟ لكني سمعت أن اللصوص لا يقربون المنازل التي يسكنها الإنجليز فالعقوبة غالبا ما تكون الإعدام. وفي أحسن الأحوال يأسرون اللصوص ليكونوا عبيدا ويساقون إلى الأراضي الإمريكية أو الأسترالية ليعملوا سخرة في الحقول والمزارع. وهذه المنازل على أية حال موجودة في مكان واحد ويسهل التعرف عليها. لم أجد صعوبة في تسلق الجدار. قفزت إلى الأرض وبدت لي أكثر عمقا.

شعرت بأن إبهام رجلي قد انفصل عن قدمي فقد حطت قدمي على صخرة ناتئة. حين مشيت قليلا شعرت بالألم يصعد إلى ركبتي وبدأت أعرج. جلست على الأرض وأخذت في تدليك ركبتي ومعاينة أصبعي المصابة. صعدت شجرة مانجو عملاقة بعد ما رأيت نافذة مفتوحة في الطابق الثاني. لم يكن هنالك غصن يصل مباشرة إلى النافذة. صعدت إلى أعلى نقطة في الشجرة وانتابني دوار بينما كنت أستعد للقفز. أصبت ركبتي التي تؤلمني مرة أخرى بعدما ارتطمت بحافة النافذة الخارجية وهناك كتمت صرخة الألم الهائلة. حين أصبحت داخل البيت شعرت بفداحة فعلي. لم يكن ليلام الرجل إن أطلق علي النار في مكاني ذلك. قررت التراجع عن تلك الحركة الصبيانية. بسمتها العذبة ليست لي. عيناها الساحرتان ليستا لي. لمستها الناعمة ليست لي. صوتها الرقيق ليس لأذنيَ كي تسمعانه. كل ذلك كان لرجل آخر، رجل حالفه الحظ في امتلاك جزء من الجنة حيث ترتع السعادة مع الفراشات التي تحوم حول زهور بديعة الألوان شهية العطر. استطعت أن أرى سريرا كبيرا يتوسط الغرفة حينما تعودت عيناي على الظلمة. يرقد على السرير جسد واحد. اقتربت أكثر. كانت هي وحدها نائمة على السرير ولم يكن زوجها هناك. هل كذبت علي لتبعدني عنها؟ لكني لم أظهر أي نية في الاقتراب من الأصل، فعلامَ الصد؟ عاودني دوار الرأس مع اضطراب في المعدة وأطرافي كلها ترتجف. «ماذا، من هناك؟» لقد وقع ما أخشاه. خفت أن تصرخ ويأتي زوجها أو أيا كان في البيت لذلك قلت "أرجوك لا تصرخي أنا آسف سأذهب الآن" لم يبدِ عليها الخوف. استقامت

جالسة وشعرها أكثر حرية من أي وقت مضى. "من أنت وماذا تريد؟.. هل جئت لتسرق؟.. هل تعلم بيت من هذا؟.. إنه بيت الكولونيل روجر.. سيطلق عليك النار بلا تردد.." كلامها الحازم ذو النغمة القوية الآمرة زادتني ارتباكا وخوفا. لقد كانت في كلامها كأنها تنهر خادما لها وليس رجلا غريبا تطفل عليها في حجرة نومها. "لا داعي لذلك أنا ذاهب الآن» ثم متذكرا سؤالها «..أنا الذي حمل أمتعتك نهار هذا اليوم" حين رأيتها تتأهب للنهوض من سريرها هرعت إليها بقوة غريبة نبعت من داخلي خوفا من أن تستدعي زوجها. لقد كانت تحاول الوصول إلى القنديل بجانب سريرها كي تشعله، فأمسكت بيدها الدافئة والناعمة ومنعتها من ذلك. نظرت إلي بعينين مفتوحتين على اتساعهما وفي تلك اللحظة فقط استطعت أن أرى الرعب في عينيها. فتحت فمها محاولة الكلام أو الصراخ فوضعت يدي الأخرى على فمها مانعا إياها من الكلام. حاولت الفلات من قبضتي لكن محاولتها كانت فاشلة بسبب ضعف قوتها وجسدها ولأنها ربما كانت لا تزال في قبضة النوم الموهنة. دفعتها ثانية إلى السرير مرغما إياها على الاستلقاء. "أرجوك لا تصرخي، لقد قلت لك إني ذاهب" حررت يداها وأخذت في ضربي بقوة لكن ألمي السابق غطى على هذا الألم الجديد. جاءتني ضربة على رأسي وشعرت بلذة في هذا الصراع كأننا عشيقان يداعبان بعضهما بعضا «أرجوك توقفي...أرجوك... أنا... أحبك.." حركة جسدها البض تحت جسدي استثارتني، فنسيت الخوف والألم والاضطراب فرفعت ثوبي ثم ثوبها واضعا يدي على فمها والأخرى على رقبتها.

كانت زيارة جدي من أحب الزيارات لي. فلقد كان يقص علي حكايات رحلاته البحرية إلى إفريقيا والهند والبحرين ودول أخرى. فلم تكن هنالك حاجة مطلقا إلى امتلاك جهاز تلفاز أو راديو ولم أضطر يوما في أغلب الأحيان إلى إشعال الإنارة مساء من أجل القراءة. كان جدي يحكي لي قصصا جديدة وشائقة لكن معظم حكاياته كنت قد سمعتها من أبي. إلا أن نسخة جدي تختلف كثيرا ومليئة بالإثارة والرعب والشهوة وهي أشياء حذفها أبي ربما بسبب صغر سني أو ربما لأن جدي لم يخبره بتلك التفاصيل من البداية. أيها البحر العظيم، أنت لا تختلف كثيرا عن بني البشر. فإنك متقلب غادر. فيك عمق وسطحية في وقت واحد. تقتل من يتحداك. لقد عشقك جدي كحبيبة مستحيلة لكنك خنته وأخذت منه ابنين. حسنا ما بك؟. لقد طردت من الجريدة. ولماذا أنت سعيد هكذا. فليذهبوا للجحيم. اسمعني يا صديقي بهذه المناسبة إني أدعوك لتناول العشاء في فندق الأنتركونتينتال مع الشراب. أنت تشرب لم تخبرني. سحقا للحياة. تبا للقدر. كل الناس خونة أغبياء. يتبعون الصوت العالي وإن أودى بهم إلى الهاوية. يعبدون السلاطين والحكام أكثر من ربهم. منافقون. يكرهون أنفسهم وعاداتهم ولا يقدرون أن يعترفوا بذلك. لنشرب نَخْباً للنساء اللواتي تمرغن شهوة تحت كبريائنا المجروح ونَخْب النساء اللواتي هربن من قلوبنا الغبية. أحمق أنت أيها الحب. أحمق وشرير. لماذا طردت بالمناسبة؟ لقد كتبت مقالة أستعرض فيها نظام الحكم ومدى صلاحيته في مواكبة تغيرات العصر فرأت فيه الحكومة انتقادا لها وانتقاصا منها فجاء صاحب الصحيفة

بنفسه كي يعلمني بأنهم قد استغنوا عن خدماتي. لنشرب نخب الحرية والإبداع والجنون. هلا أخبرت النادل أن يستدعي لنا سيارة أجرة؛ فأنا لا أستطيع المشي إلى الشارع من شدة السكر. نخبك أيها الموت العبثي... نخبك أيتها العدمية.

لا يدري إن كانت أمه تأكل من الطبق أم لا بسبب حلكة المكان. لكنه أحس بعد وهلة أن الطعام بدأ في النقصان. "هل لي أن أشعل النور يا أمي أريد أن أرى وجهك؟" كان الشرط العام لجميع من يزور مسعود هو العتمة، أن يطغى ظلام دامس، فذلك يساعد الأطياف على الكلام. "وأنا أريدك أن تراني، لكن النور عدوي.. سأزورك في المنام ذات يوم.." كان قبل كل تجلي يسمع همهمة تأتي من بعيد كأن الريح تعبث بمصارع نافذة مفتوحة في يوم عاصف. وحين تقترب أكثر فأكثر تتحول تلك الهمهمة إلى همس أشخاص يتحدثون فما بينهم وذلك الهمس رغم علوه إلا أن مسعودا لا يستطيع أن يتبين الكلمات الكثيرة التي تنطق في سرعة خاطفة والتي تتداخل فيما بينها. "ظلام كان في تلك الليلة. قلبي أتعبه الألم والحزن على أمي. وحدي كنت في هذا العالم. أخذني الشيخ الجليل ليزوجني من أبيك. صمتي كان بسبب خجلي لكن الشيخ رآه علامة على رضاي. في الظلام جلسنا متقابلين لا نقدر على الكلام بعد أن زوجتنا بضعة كلمات. لا أخفيك أمرا فلقد كنت خائفة من أبيك ومما سيفعله بي أو ما يحق له الآن فعله بي. لكنه لم يفعل شيئا بل قال لي بعد دهر طويل من الصمت "نامي قليلا سنغادر قبل شروق الشمس". ولم يأتني النوم. إلى أين سنذهب، وهل سنظل

مطاردين هكذا؟ عقد الحزن لساني وشل عقلي فلم أستطع أن أتذكر آية أقرأها. هو لم ينم بعد. واقفا كتمثال أمام الباب المفتوح للبحر. سمعتهِ يخاطبه ثم بكى بصمت. لكن الحزانى يشعرون ببعضهم بعضا، يا بني. وذلك الرجل الواقف ليس بغريب علي هو رفيقي فيما تبقى لي من سفر في هذه الحياة. نلجأ للرحيل هربا من حزن لا نلبث أن يسبقنا نحو المكان المقصود، ينتظرنا. يجمع آهاته في صندوق صدفي. البحر قرين الحزن. يستقبلنا بدموع علقمية نشربها ليزداد ظمؤنا. ثم يحل في أرواحنا كزواج الأبدية من الزمن. ينفخ فينا الآهات المخبأة ونضحك دما. حين أصبحنا على ربوة عالية نظر أبوك ناحية القرية واستطعت أن أرى معه سلطان الشيخ المخلوع مع رهط من الرجال ذاهبين ناحية بيت أبيك. دخلوا وخرجوا غاضبين ومن بعيد رأينا النيران تشتعل في البيت. من بين أسنانه المصطكة من شدة الغضب أقسم أبوك على أن ينتقم من ابن العاهرة ذاك على حرقه، ليس للبيت فقط، بل لذكريات الطفولة ولحكايات أبيه وحب وحنان أمه وحرقه لأمل العودة وتدميره لملعب الشباب ومرتعه. توغلنا في البرية. أبوك في المقدمة وأنا من خلفه ومشينا من غير أن نتكلم. بدا وكأنه نسيني. في الليل تحدثنا كثيرا واستأنست له وأعجبت بلطفه وبشهامته و... أحببته. عانقني. شعرت بألم شديد. استرخيت. نظرت إلى النجوم. ابتسمت. نظرت إلى عبيد. همست. أحبك. سقطت نجمة. تمنيت السعادة. فكان لي الشقاء.»

أمي أين ذهبت؟. دخل نور الشمس فلعنت النهار مفرق الأحبة. غفوت قليلا وأنا أغني. من تلك التي أراها الآن. ليست مريم. كلا ولا

الملاك التي تسكن قصر الشيطان. إنها فتاة الزجاج. ماذا؟ أنقذك؟ ممّ أنقذك؟ من الوحدة ومن الجمود. تريدين روحا تحل فيك. روح من لكن؟ شممت رائحة زكية. نمت وأنا أحلم أني أسبح في نهر من القهوة. تأتي سالوميه وتدخل النهر عارية فتتحول مياهه المصنوعة من القهوة إلى نبيذ أبيض. استطعت أن أرى جسدها العاري. فارت الدماء في عروقي، رقص قلبي رقصة الموت قبل التضحية للآلهة. ولكن سالوميه هي الآلهة. سبحت باتجاها لكي أقدم لها فروض الطاعة والعرفان. كلما اقتربت تبتعد. ثم قالت سيدي إن شئت خمسين جنيها. اخترقت الليل نحو أشد الأبنية إضاءة. النجوم هي الأخرى تنزل إلى الأرض لتحظى بوقت ممتع. ربت المارد الضخم على كتفي وقال بصوت ضاحك أهلا بالشاعر. لا أدري لماذا يناديني بالشاعر. غناء صاخب ودخان يتراقص. هؤلاء البشر يمارسون طقوسهم هم الآخرون. مهرجون بوجه شاحب حزين في النهار وشياطين وسيمة وسعيدة حين يجن الليل. ماذا تشرب يا مسعود؟. جورج الهندي دائما مبتسم. أعطني تلك البيرة الإيرلندية المسماه كيلكيني فأنني أشعر بأن روح جميس جويس ستحل فيَّ الليلة. تسكت الأصوات حين تشرب الروح. يتوقف رأسي عن التفكير فأشعر باسترخاء تام. ينظر إلي جورج بوجهه السعيد ويضع أمامي كأس آخر. متى ستتزوج يا ماسود. يمتلئ فمي بالرغوة. أرفع يدي اليمنى كأني متهم في محكمة على وشك أن يؤدي اليمين. كل رجل هو زوج يده اليمنى كما يقول دادلوس. تختفي الابتسامة للحظة. من دادلوس هذا. ينحني برأسه الكبير ويقول إن غزلانا معجبة بك ويشير بأنفه الطويل نحو فتاة

بها بدانة تحتل وسط المسرح الصغير وهي ترقص بلا تناسق. عشرون ريالا. لحم رخيص وشهي. اسع نحو الحقيقة يا ولدي. أية حقيقة يا ابتي؟. نظر حولي من وصله صوتي. لم يعبأ أحد بي فهكذا يفعل السكارى. أهنالك شيئا آخر؟. أهنالك ما هو أفظع مما سمعت من الشيطان؟ لماذا فعلت كل ذلك يا أبي؟ سامحني يا ولدي. لماذا حرصتَ أن أعرف الحقيقة؟ وأين أنت الآن يا أبي؟ أنا لم أغادر. أنا لم أرحل.

في ليلة ما قررت إشعال الضوء وبحثت عما أقرأه. كانت هنالك ظلال في النافذة. رفعت رأسي قليلا. لقد كان غرابا أسود واقفا كتمثال على مصارع النافذة. صورة أدجر ألان بو على كتاب قصصه المختارة بدت لي مناسبة في هذه الليلة الديسمبرية. البرد يعشق الليل. لا أشعر بالبرد بل بالخواء. الغراب لا يتحرك. هل ينتظر أن أدعوه أم أن ضوء المصباح يخيفه؟. لم أكن طامعا في ماله ولا ذهبه. لكن تلك العينين. أحب القراءة مستلقيا. سقط مني الكتاب. انحنيت لأتناوله من تحت السرير. شاهدت عقربا صغيرة تجاهلتها وأكملت القراءة. يجب أن أقتله وأتخلص من تلك العينين. هذا ليس جنونا. إنه قتل حكيم. انحنيت ثانية فلم أجدها هناك. لدغة العقرب لا تقتل. مودة ولطف في النهار. كره أعمى في الليل. في الليلة الثامنة قتلته. ضوء المصباح يجعل لون الغراب أسود. وضوء القمر يحوله بنفسجيا. دعا رجال الشرطة للجلوس في شقة الضحية بكل ثقة بعد أن قال لهم إنه قد ذهب للريف. ويجلس هو تماما حيث ترقد أشلاء الميت المقطعة. شحب وجهه لسماعه صوت دقات قلبه. هل يخفق قلب الميت. الدقات تعذبه. تعذبني. لماذا لا

يرحلون؟. العدالة. ألا يسمعون هم هذه الدقات الصاخبة والعنيفة؟. هل يعلمون لكنهم يمعنون في تعذيبي؟. الترقب. الانتظار. يسخرون من خوفي. لم يحتمل العذاب وصرخ القاتل . لقد فعلتها. أوقفوا صوت قلبه. ما كدت أنتهي من القصة حتى انطفأت الكهرباء فجأة فحل الظلام، الظلام المحبب لي. من النافذة ينعق الغراب بو بو.

هل أنت غراب بو؟ بو بو. لماذا قتلته؟ لماذا؟ بو بو. لن تنجح معي حيلتك. يطير الغراب ويقف على الحديدة نهاية السرير. أنا لم أقتل أحدا ولست بغراب أحد. من أنت إذا؟ كنت أعرف جدك معيوف. من أنت إذا؟ حين أصغيت إلى نفسي وجدت أنني كنت أنعق مثل الغراب والحديث كان يدور في رأسي بصمت. نعم هذا صحيح لأنني أحب الصمت. الصمت كنز العقلاء. اسمي آدم التاجر. رافقت جدك في بضعة رحلات بحرية. روحه كانت تتوق إلى المعرفة والحرية ولكنه لم يستطع التخلص من الأغلال. أغلال المجتمع والدين والأعراف. لم يستطع التخلص منها لأنه لم يكن يراها أو لم يشأ أن يعتبرها أغلالا. فهي كانت بالنسبة إليه أشياء مسلمة كالقدر، يجب تقبلها بصمت ورضى. لقد ارتكب خطأ جسيما لكنه لم يقتل. غادر وهو يشعر بذنب شديد. الحسناء الإفريقية زوجة الجنرال الإنجليزي لم تمت بل أغشي عليها في حين اعتقد جدك أنها فارقت الحياة. في صباح اليوم التالي كشفت السيدة الجريمة لزوجها الذي أتى- لحسن حظ جدك- من مهمة في الأدغال على وقت الظهيرة وحين أصبح المركب في عرض البحر. ولم يكن يُعلم في أي مركب يعمل جدك. الوصف الوحيد الذي تمكنت من إعطائه

السيدة هو عربي هادئ. لكن وصيفتها العجوز قدمت تفاصيل إضافية عن شكله وملامحه. بعد أن فُتّشت جميع المراكب، أصدر الجنرال أمرا عسكريا بالقبض عليه حيا أو ميتا. من الوصف أيضا عرفت أنه جدك خاصة شفته السفلى المشقوقة. لم أستطع مغادرة المكان لإنذار جدك لأن مصالحي لم تنتهِ بعد. أرسلت خبرا مع أحد القباطنة المتجهين هناك. لم أشأ إخباره بأن جدك اغتصب زوجة الجنرال الإنجليزي. لم يكن هناك من العرب البحارة من يحب الإنجليز بسبب الضرائب التي يفرضونها، لكني خفت أن يطمع في المكافأة المالية المعروضة لمن يأتي بجدك. فاختلقت قصة مفادها أن جدك كان يعمل لدي وأنه اختلس مني مالا وأظهرت غضبا مصطنعا ورغبة في القصاص. وكان القصاص الذي أردته هو ألا يعمل جدك في البحر مجددا مادام حيا. أعطيت القبطان شيئا من المال لكي أضمن أن يقوم بما طلبت. أنا أعلم أنني بهذه الطريقة أقطع عنه رزقه لكن الجنرال لم يكن ليهدأ له بال حتى ينتقم من جدك، حتى أنني سمعت أنه عمّم أمر القبض عليه في موانئ الهند والموانئ الأخرى التي يتاجر فيها العرب. وكنت قد عاهدت نفسي حين أعود للوطن أن أعطي جدك مالا كثيرا يعينه على متطلبات هذه الحياة. لكن القدر كان يخبئ لي شيئا آخر، فقد مت هناك في إفريقيا بعد أن أصابتني الحمى لمدة أسبوع.

حين يكتمل القمر بدرا أزور الشيطان في قصره في اليوم التالي. أمشي على أرصفة مطرح الملتهبة. الشمس هي بوابة الجحيم. واهبة الحياة. إذا ماذا يحدث للداخلين إليها؟. تتغير الوجوه مع كل خطوة

أخطوها. حياة مختلفة. قصص متنوعة. أفكار فوق أفكار. والموت واحد. كلهم سائرون نحو المكان نفسه لكن بطرق مختلفة. لماذا الإسراع في الخطو إذا وما فائدة الاستعجال؟. وهذا الروتين المتكرر من شأنه أن يلغي مفهوم الغد المجازي من أفكارنا. مادمنا نقوم بنفس الأشياء كل يوم، ما الحكمة إذا من قولنا سأقوم بذلك العمل غدا. الشمس تغرب في نهاية كل نهار إلى أن يتماهى اليوم بأكمله في بحر الليل المعتم. لكن نفس الشمس تشرق ثانية فيما نسميه يوما جديدا. غريبون أنتم أيها البشر. تثقل عليكم شخصياتكم الحقيقية فتلجأون إلى لبس الأقنعة كي لا يتوقف سير حياتكم اليومية أو هكذا تعتقدون. لولا النفاق لعاش معظم الناس بمفردهم. تعطون الكذب أسماء مختلفة؛ فهنالك كذبة بيضاء. قيح أبيض. مشروع جرح كبير. كفن أبيض. وربما لا تسمون الكذب كذبا. الحقيقة الملطفة. الحقيقة المجزأة. اللعنة تحل عليكم أجمعين. تتجمع سيارات الأجرة كخلية نحل في مكان الواحد في المساحة أمام المسجد الوحيد في الكورنيش بين فندق صغير ومعرض للفن. في كل مرة أركب نفس التاكسي. وعندما أحاول الولوج إلى تاكسي آخر ينادي باسمي، أستاذ مسعود، من بعيد ويشاجر صاحب التاكسي الذي أنا على وشك الركوب معه. ذلك لأني أنفحه بَقشيشا محترما خاصة وأني ذاهب لاستلام نقودي الشهرية. تحالف مع الشيطان. فاوست. بعت روحي للشيطان. أهلا أستاذ مسعود. هنالك فتاة فلبينية في السيارة. أرجو ألا تمانع. هززت رأسي. هي على طريقنا ولن نتأخر أعدك بذلك. تبتسم الفتاة ببلاهة فألعنها بلا سبب واضح. في منتصف الطريق يشير

السائق نحو الفتاة ويرفع كلتا يديه عن عجلة القيادة ويفتحهما على اتساعهما مدللا على الرقم عشرة. أجامله بنصف ابتسامة وأشيح بوجهي نحو النافذة. تنزل في فندق رخيص ويخبرها السائق أنه سيمر عليها في الساعة العاشرة مطلقا ضحكة شهوانية. نقف أمام قصر الشيطان الذي ظل أكبر بيت في تلك المنطقة. أخبرته بأن ينتظرني كالعادة. في المرات السابقة شعرت بأن بنت الشيطان الملائكية تترصدني وتتبعني بابتسامتها. وفي آخر مرة قطعت علي الطريق وقالت إنها تريد التحدث إلي. لهجتها وهي تحاول التحدث بالعربية أضحكتني. قلت بكل برود إني مستعجل. ربما في وقت آخر. ماذا تريد مني؟ ولماذا تبدو لي أنها محتجزة هنا؟ هل تحاول طلب المساعدة؟ لكنها تتجول بحرية وبإمكانها الخروج متى ما أرادت. في الحديقة أثناء دخولي لم أجدها. ضربت الجرس. خرج لي عِلَم. رحب بي بابتسامة مصطنعة. دعاني للدخول ورفضت. دخل وغاب العشر دقائق المعتادة، خرج وبيده المغلف الأبيض. سعر سكوتي. أم ثمن غسل الآثام. أخرج ورقة نقدية فئة العشرة ريالات وأعطيها عَلَماً. يقبل علم الورقة وهو يشكرني. النقود التي أستلمها تزداد كل مرة مع توسع مملكة الشيطان التجارية. فنادق ضخمة. وكالات سيارات. شركات مقاولات. هل يعظم الشعور بالذنب مع مرور الأيام. كلما يزداد عدد البشر تزداد بركة الدم. قال الله: فليكن نورا فكان نور. وقال الإنسان: فليكن قتلا فكان بحر من الدماء. تاريخ من القتل والذبح. تاريخ البشر القتل من أجل البقاء، القتل من أجل الأرض، القتل من أجل السلطة، القتل من أجل الرب، القتل من أجل

المتعة، القتل من أجل امرأة. عند الخاطر الأخير ظهرت لي في نهاية الحديقة أجمل من أي وقت مضى. في عينيها وهج غريب. «مسعود» لأول مرة أسمع اسمي يخرج من فمها. يتفاعل قلبي مع موجات الصوت. الهواء يكون أخف حين يحمل الموسيقى. مع كل حرف ينبض قلبي مرتين. نعم آنستي. نادني سارة. فستانها الأبيض يحاكي أزهار الحديقة. الكمّان يصلان إلى الكوعين ويقفان. ونهايته الفستان تصل إلى منتصف الساقين. موجة تداعب رمال الشاطىء. الأزهار على الفستان تعود للحياة كلما لامس القماش جلدها العاري. عقدها الفضي ينساب على صدرها. نهايته البيضاوية من النوع الذي يحوي صورا بداخله. ربما صورة أمها وأبيها. «هل تمشي معي قليلا؟» نظرت حيث كان واقفا التاكسي. سأزيد أجرته. «نعم بالتأكيد». مشينا تحفنا الأشجار، تلامس أكتافنا بنعومة. كانت الحديقة تمتد لمسافة كبيرة كأنها غابة صغيرة بسبب كثافة الأشجار وقربها من بعضها البعض، وصلنا إلى نافورة اصطناعية بجانبها مظلة كبيرة تحتها طاولة ومجموعة من الكراسي، جلسنا وجلس الصمت معنا. «لا تعلم كم قاسية هي الوحدة؟» «نعم أعلم». قلت في داخلي. «لماذا عليك أن تكوني وحيدة، هل أنت محتجزة هنا؟» من اتساع عينيها علمت أنها مندهشة. «كلا». ولأن صوتي كان ودودا لم تعتبر ما قلته فظا. «رحيل أمي يشعرني بهذه الوحدة، أذهب لزيارتها كل صيف في إنجلترا. أبي لا يرافقني أذهب لوحدي». كانت مرتبكة لا أعرف لماذا. «أنت تبدو شابا مهذبا». «شكرا». نظراتي توحي بنفاد صبري. «عندما سألت أبي عنك قال إنك ابن صديق قديم كان شريكا

له في التجارة». هذا وجه واحد للحقيقة. «ماذا تقصد؟" «لا.. لا شيء لا يهم». نظراتها تصر على السؤال. «إن لم يشأ أبوك إخبارك بكامل القصة فلا يجدر بي قول أي شيء». «حدثني عن نفسك إذا». لم أرتح لابتسامتها ولطفها الزائد. هؤلاء الأثرياء لا يأمن لهم. ماذا تريد مني؟ لا شيء يجمعنا ومستوانا الاجتماعي متباعد تماما. هل دفعها الملل لتبحث عن حيوان مدلل تتسلى به؟ لماذا إذا لا تقتني كلبا أو قطة أو ما شابه؟ «يجب أن تعذريني يجب علي الذهاب الآن». «لماذا؟» لم أجب. بدا عليها الجزع. «ألا تريد أن نكون أصدقاء؟ لماذا عليك الذهاب سريعا هكذا؟» قمت من مقعدي وقلت في عصبية: «اسمعيني يا آنسة أنا لست الشخص المناسب لك لاعتبارات كثيرة. وشخصيا لا تستهويني قصص الحب وسخافاته».

أنا تريسياس
رجل كهل بأَثْدٍ نسائية مترهلة
في هذه اللحظة البنفسجية
في هذا المساء الذي يشق طريقه نحو الوطن
أستطيع أن أرى رغم العمى
بحارة عائدين إلى أوطانهم
ساعة المساء تعيد الكلمات إلى دارها
توضب مائدة فطورها

تشعل موقدها وتعد طعاما معلبا
وخارج النافذة تنشر بكل رعونة
ملابسها الداخلية
التي أخذت تجف تحت القبضة الناعمة لأشعة الشمس الراحلة
على أريكتها، حيث ينام الليل، تكومت ملابس نومها
خفها، قميصها القصير، جورب ساقها،مشدات صدرها
أنا تريسياس الكهل كما أنا
تشربت الواقعة وتنبأت بما تبقى منها
وأنا أيضا انتظرت الزائر الغائب

سمعت صوت رجل يقول اذهب وغنِّ بعيدا من هنا أيها المجنون إنك تخيف السياح. ومن ورائه جاء صوت نسائي. اليوت. تمشي الشمس على الأرض بعد أن حلقت في عربة ذهبية. أنا أحب اليوت أيضا وأحفظ الأرض اليباب عن ظهر قلب. اصعد معي في العربة. قصرها مصنوع من الزجاج. اسمي اليسون. مسعود. ناعمة يدها. ارضك الصحراوية مثيرة. دافئة وحنونة. الناس فيها تسكنهم الابتسامه. شديدو التعلق بالماضي وبالعادات البالية. من أنبوب سحري طلبت بعض الطعام والشراب. شراب بلون الدم جلب لنا السعادة. حين كنت صغيرة كنا نعيش جنب الغابة والبحيرة. أبي يملك شاحنة صغيرة حمراء وأمي تعمل في مدرسة للصغار وتحيك لنا الجوارب والسترات في المساء. أخي ابتلعته الغابة ولم نعثر عليه. جاء وحش الغابة وأخذني أنا أيضا. ظل يعذبني ويغتصبني لمدة أسبوع. كان كناري يأتي إلي دائما يحدثني

ويرفع من معنوياتي. تشجعي كان يقول لي. سأساعدك على الهرب. كان المجرم يسمع موسيقى كلاسيكية طوال الوقت. في المساء يأتي ورائحته كريهة. مخمور. يمزق ملابسي. في اليوم التالي يأتيني بملابس جديدة. طلبت علكا وبعض الحلوى. أتاني بالعلك. مضغته وبسرعة وضعته في شق المفتاح بينما كان يخرج من القبو. انتظرته حتى ينام ثم هربت. الكناري وفيّ بوعده فقادني نحو بيت أحد من الأهالي الطيبين. اتصلوا بالشرطة وتم القبض على المجرم. خلعت ملابسها الملكية وخلعت لي ملابسي ببطء. شعرت به يكبر بين ساقيّ. الرجال قليلون في مملكتي. ما رأيك أن تشاركني الحكم الليلة وتكون الملك؟ كان شعورا جميلا. لكني رأيت مريم وهي تبكي.

انهض يا ابني. من؟ أمي. كانت بقايا الشمس ما تزال عالقة في السماء. اشتقت لك لماذا أطلت الغياب؟ كنت مازلت لا أستطيع أن أرى وجهها بسبب الظلال. عظامي توجعني بشدة كأنني سقطت من شاهق على صخور. جبهتي تلتهب نارا. كنت على شفا المرض. ساد الصمت وبسبب ذلك غفوت قليلا. انهض يا ولدي وكُلْ شيئا وإلا ستمرض. لا أستطيع يا أمي. هل هو الموت؟ اطرد الأفكار السوداء من رأسك. ما إن استويت على قدمي حتى تقيأت بعنف حتى ظننت أن أحشائي قد خرجت. أشعرني ذلك ببعض التحسن. ذهبت للمطبخ وشربت بعض الماء. فتحت الثلاجة الصغيرة التي اشتريتها مؤخرا وأكلت تفاحة. غسلت وجهي لكني أرجف والصيف في أوجه. ارأف بنفسك قليلا يا بني. صوت أمي أشعرني بتحسن كبير. استلقِ على السرير وتغطى.

لا تذهبي يا أمي، اجلسي معي قليلا. كلميني. أكملنا المسير ولم نكن نعرف إلى أين سنتجه؟ لكن أباك حدثني عن خال له في إحدى القرى. مشينا ومشينا كثيرا. صارعنا الجوع والعطش. تعانقنا كي نتقي البرد. وكان أبوك يستنفر حين يرى بعض الرّحّل ويستعد للمواجهة دفاعا عني. وصلنا إلى القرية المقصودة مهدودي الحيل. اصطنع هذا الخال النسيان كي لا يستقبلنا أول الأمر. لكن من المستحيل أن تنكر وجود أخت لك. رحب بنا كأنه مرغم وهو يرمقني بنظرات أدخلت الخجل والاشمئزاز إلى نفسي. كان شديد السواد، نحيل الجسم ومفرطا في الطول. يتطاير الشر من عينيه وله حضور منفر. أخبرت أباك عن شعوري بعدم الارتياح في بيت هذا الرجل الذي يحمل اسما غريبا ومنفرا كوجهه. السحيلي. بعد يومين لم يستطع الاستمرار في المجاملة. كان يعيش وحيدا فجاء بادعاء أنه يود الزواج وكان يلمح إلى ضرورة مغادرتنا. صارحه أبوك بأن يمهله حتى يجد مأوى أو عملا يعتاش منه. عند ذاك تبسم السحيلي بخبث وعرض على أبيك مساعدته في عمله. عند كل فرصة تسنح للسحيلي كان يغمزني وعينيه تسبحان في بحر من الشهوة. بعد أول يوم عمل فيه أبوك لدى هذا الرجل جاءني البيت غاضبا وهو يطلب مني أن أستعد للرحيل. ولكن إلى أين سنذهب وإلى من نلجأ؟ نظر إلي باستغراب. ألم تكوني تريدين المغادرة بادئ الأمر ما الذي تغير الآن؟ لم تعجبني لهجته وسألت عن سبب ضيقه وانزعاجه. إنه يصنع الخمر. يصنع الخمر، كيف؟ من عسق النخيل. وأنا أساعده في ذلك. لم أشعر بغيرة دينية بقدر ما شعرت بكره يزداد لهذا المدعو السحيلي. لكن صوتا

بداخلي أشار علي بالتأني. ألا نجد غرفة أخرى في هذه القرية. ربما لكن الأعمال شحيحة. جل الرجال يعملون في أماكن أخرى ولا توجد مزارع كثيرة هنا ولا أسواق قريبة. في صباح اليوم التالي عدل أبوك عن قراره لكنه في نفس الوقت كان يتحسس أخبار القرى المجاورة بحثا عن فرصة جديدة. مرت الأيام سريعة بينما كنت تتكون في أحشائي يا بني. في منامه كانت تنتاب أباك الكوابيس. وكان يهذي ويصرخ وتكرر عنده هذه الجملة سوف تدفع الثمن أيها الشيطان. كان أبوك يرافق السحيلي في نهاية كل شهر ليبيعوا الخمر الذي يصنعونه. في إحدى الرحلات جاء أبوك وهو في حالة نفسية صعبة. كان خائفا وهو يرجف ويتلفت كثيرا ويتكلم بكلام غير مفهوم. ادعى أن عقربا لدغته لكنه قال لي في الليل حين اختليت به أنه أحرق بيت الشيطان. بيت من؟. بيت الشيخ سلطان. ماذا؟ نعم لكن سمعت زوجته تصرخ بهستيرية. ابنتي ماتزال في البيت. لقد قتلت طفلة صغيرة يا زينب. قتلت نفس بريئة.

في الفجر سمعت نداءً من بعيد. ينهض النهار بتثاقل فأقلده. ماء بارد ثم رغوة على ذقني. جرحت نفسي. ماذا تقصد؟ حسن. لقد مات القبطان. لم يعد لنا مكان نذهب.أصبح يتمنا يتيما. يضحك ويشير إلى مقهى في نهاية الشارع. يشبه مغارة في كهف ولا يزال قريب من البحر. يؤدي بالغرض. كرهت البحر. تتناهى إلى مسامعي أصوات تخرج من صناديق خشبية. سقوط جدار برلين. ندمر لكي نبني. من أجل كسر القيود لابد من احتمال ضرب المطرقة. انهيار الاتحاد السوفيتي. الحرية تسقط على الرؤوس. يلتقطها من يلتقطها. ويخشاها العائشون في الماضي.

الوجوه عابسة يألمها بدأ الحياة في كل يوم. وهي تخاف من الموت كذلك. تناقض ضروري لكي يستمر الجنس البشري. محلات جديدة تغزو المكان. لقد اكتشفنا البئر التي تلفظ بحرا من المال. ملابس وأحذية. مجوهرات وساعات وأجهزة إلكترونية. أشياء لا نحتاجها. أشياء تخفي قبحنا. شاحنة كبيرة أمامي تنزل منها تماثيل لنساء جميلات وعاريات. آلهة جديدة. المال هو الإله الجديد. توضع كي تُري الناس سوء مظهرهم. واحدة تنظر إلي وتستغيث. إنهن سبايا النظام الجديد. رق أبيض. أغافل العامل وأحملها معي. أشتري لها ملابس نساء شعبية كي أغطي عريها. لماذا لا تتكلمي؟ أخبريني ما اسمك؟ حين عدت في المساء كانت قد تحولت إلى شخص آخر. شخص أعرفه.

مريم. تهمس بصوت خافت. احملني إلى غرفتك فالضوء شديد هنا. خفيف جسدها. أخجل من لمسها. أنظر ناحية القمر. يصدر صفير منها كأنها تود الكلام. مسعود سامحني. كانوا يودون تزويجي من رجل كهل. أرجوك لا تقسُ في حكمك على أبي. الجميع تخلى عنه. لم أكن أنوي الهرب. خرجت من بيتي غاضبة أشرب دموعي وأنا أركض. وقفت على هضبة وحدقت في البر الشاسع اللامنتهي. أنا كذلك سمعت النداء. كان أشعث الشعر وبملابس مهترئة ووسخة. لكن روحه كانت صافية. شعرت بالخوف الشديد. الشقاء يلاحقني في كل مكان. ابتسامته الهادئة حولت قبحه إلى جمال. ما اسمك؟ حمد صخر. كنت أحسب أن المغاصيب لا يتكلمون لغة البشر المعتادة. هم كانوا أناسا طبيعيين في السابق. جنت عليهم الحياة ففقدوا رشدهم. فقدوا العقل الظاهر النظري،

إذ العقل لا يغيب. ذاكرتهم عن حياتهم السابقة انمحت. نسوا عادات وطقوس قبائلهم. رجعوا إلى الفطرة ما قبل الفطرة. هل نظرية داروين صحيحة. قرود وحيوانات كنا. سيدنا آدم لم يكن كذلك. أم بعضنا كان. أخذني من يدي فلم أقاوم. على عكس ما ظننت لم يكن يسكن في كهوف الجبال. لكنه كان تحت الجبل. بيت بائس مصنوع من الخشب والقصدير تحيط به بعض المزروعات، ومساحة مسيجة ومسقوفة بجريد النخيل لحفظ ماشيتهم الضئيلة العدد. في داخل البيت التقيت بأمه، امرأة عجوز طيبة. وفي ركن البيت رقد كهل مريض كان ذلك أبوه. ومن قلب العتمة ظهرت طفول أخته الصغيرة. استغربت تباعد أعمار العائلة خاصة الفتاة الصغيرة، إذ كيف أنجبها هذان الزوجان الطاعنان في السن. شعرت بقبضة في قلبي حين فكرت إنه ربما كانت الفتاة مخطوفة مثلي. هل كنت أنا مخطوفة؟ في الليل شعرت بحنين طاغ إلى أمي وأبي وندمت على مجيئي. كان باستطاعتي الذهاب بكل بساطة خاصة بعد أن نام الجميع. ولكن لم أكن أعرف طريق العودة. مشينا لمسافة طويلة بين الجبال وسلكنا طرق ملتفة. ولم أكن أملك الجرأة على اجتياز هذه القفار في هذا الليل الموحش. صوت ذئب ذكرني مما يجب علي خشيته. سأطلب منه أن يرجعني في الصباح. جاءتني طفول الفتاة الصغيرة ووضعت يدها على خدي ثم ضمت يديها فوق بعض ووضعتهم تحت رأسها في إشارة لي لكي أنام. لقد كانت خرساء. وبالفعل استسلمت في نوم خال من الأحلام.

ضوء شديد البياض أيقظني من نومي. كاد من شدة وهجه يقتلع

عيني. نسيم بارد ملأ غرفتي وشعور بالراحة والطمأنينة احتل صدري. هل هذه هي النهاية؟ أم ربما يجب علي وصفها بالبداية لأن القادم أبدي. هل ستكون كما وصفتها لنا الأديان والكتب المقدسة أم هي شيء مغاير تماما؟ شعرت بثقل في جسدي كأن جبلا هائلا كان جاثما علي. انتظرت الألم. انتظرت انتقام الرب. انتظرت الشياطين المخيفة والنار الهائلة. لكن لم يأتِ أي من ذلك. سمعت صوت موسيقى خفيفة آتية من بعيد. صوت عزف على أوتار بأنامل رقيقة. بدأ الضوء يخفت وبدأ يتحرر جسدي كذلك من ثقله وشعرت كأنني قد علوت قليلا في الهواء. حين اختفى الضوء الأبيض ظهر لي طفل عار يحمل آلة موسيقية من نوع الهارب يعزف عليها. كان الطفل فتاة جميلة. شاهدتها وهي تحوم في الغرفة بكل خفة كفراشة في بستان ترعى الزهور. وقفت على رأس سريري حيث وقف الغراب من قبل. لم تؤلمني النار. قالت الفتاة بصوت طفولي آسر. أمي أحبك. من أنت؟ أنا لست أمك. لا تقلق لماذا أنت خائف يا مسعود. من أنت؟ أنا لا أعرفك. أبوك حررني. خلصني من الشقاء والألم. الحياة سجن والموت حرية. من أنت وماذا تريدين مني؟ لقد رأى أبوك وأمي خارجين من البيت وأعتقد أنه خال. لقد كنت نائمة. كان بي مرض شديد كان سيقضي علي. لا تلم أباك. سامحه وأطع كلامه. أين هو أتعرفين مكانه؟ سيأتي هو ويخبرك بنفسه. عاد الضوء الأبيض. قالت الفتاة وهي تتماهى فيه. ليتك تستطيع الطيران معي. المكان جميل في الأعلى. لا يوجد ألم. لا يوجد عناء. لا توجد دموع. لا يوجد وداع ورحيل.

سآتي لأنقذك يا مريم. لا تقلقي. سأنقذك من عائلة الوحوش تلك. لا تتكلم مريم في النهار. شعرت برغبة عارمة في ضمها إلى صدري. مجنون مختل. شاهدت صبيا في ساحة منزلي يحمل في يده كرة. فوق الجدار أطل رأس صبي آخر قال للأول هيا بسرعة قبل أن يأتي المجنون ويقتلك. نهضت وأنا أصيح اذهبوا من هنا لن تأخذوا مريم مني مرة أخرى. وبسرعة رمى الصبي الكرة لأصحابه وتسلق الجدار وهو يصيح دعني في حالي لقد أتيت لأخذ الكرة ليس إلا. حملت مريم إلى غرفتي بعد أن كانت في حوش البيت حيث وضعتها كي تستنشق بعض الهواء وتأخذ قليلا من الشمس. خلعت لها ملابسها وألبستها ملابس أخرى جديدة. رششت عليها عطر فرنسي اشتريته لها. جميلة أنت يا مريم. في المساء انتظرتها لكي تتكلم. فلم تتكلم. خفت الأسوأ. لا ترحلي عني مرة أخرى يا مريم أرجوك. أنا وحيد وبائس. رجائي الوحيد هو أن يأتي الموت ويخلصني من شقائي ويجمعني بمن أحب. بكيت وبكيت. سكتّ. ضحكت بصوت عال. بكيت مرة أخرى. رقصت عاريا حتى سقطت أرضا. راهب في معبد الحب وزاهد به. بكيت بصمت وبدون دموع. خذي روحي فداء لك. ذرفت دموع بلا بكاء. جاءتني جنية الأحلام وأخذتني إلى عالم ساحر. في صحراء سرنا تحملنا رمال متحركة. تحت صخرة في وسط الصحراء نمت زهرة زرقاء بديعة. قطفتها. طرنا بعيدا إلى نوع آخر من الصحاري. صحراء شاسعة بيضاء وشديدة البرودة. بين الكثبان الثلجية عثرت على فطر وحيد جعلته رفيقا للزهرة. حلم. لقد كان حلما. وعلى الرغم من ذلك شعرت أن علي

إكمال المسير أو الطيران. غابة سوداء ابتلعتنا. أشجارها تصل إلى عنان السماء. وجدت طاؤوسا نافقا أخذت منه ريشة كبيرة لامعة الألوان. في كوخ محفور في شجرة عملاقة تركتني الجنية وطارت بعيدا. سوف تجد الجواب في الداخل. سمعت ضحكة شريرة لامرأة عجوز. سلّم قادني إلى قاع الأرض في غرفة كبيرة عفنة ذات رائحة كريهة. كانت الساحرة امرأة جميلة ولم تكن طاعنة في السن كما تحكي الأساطير. لا تخدعك المظاهر فعمري مئات السنين. صوت الساحرة هو الشيء الوحيد المرعب فيها. قوارير ورؤوس حيوانات وشعر وعظام ومرجل به سائل أخضر يغلي، كان كل ذلك تفاصيل اللوحة. ألق ما حملت في المرجل. حين فعلت ذلك تفجرت فقاعة ضخمة مطلقة سحابة كبيرة هائلة الحجم. انظر في المرجل. شعرت بأن وجهي يحترق. رأيتني أخرج من شقتي وأجتاز المدينة لأصل إلى سهل مقفر يليه واد سحيق ثم رأيت نفسي أدخل في مغارة في قلب جبل ثم استفقت. أو انتقلت إلى حلم آخر.

قطع علي الحلم الآخر صوت مريم تطلب مني أن أغطيها من البرد. وضعت عليها غطائي الوحيد ثم قبلتها في خدها. نهضت في الصباح الباكر كما تعودت في بيتي. كانت الأم هي أول من استيقظ، أما طفول وأخيها حمد وأبوهم صخر كانوا يغطون في نوم عميق. وجدتها تحلب البقرة الوحيدة لديهم. ألقيت عليها تحية الصباح ثم جلست أراقبها وفي داخلي يتنامى شعور غريب بالألفة نحو هذه المرأة. لم تكن لدينا بقرة أو أية مواشي، لكن بصورة ما ذكرتني السيدة المنغمسة في عملها بأمي

وأخواتي. حين انتهت أمرتني المرأة وهي تسلمني قربة جلدية بإحضار بعض الماء للبقرة لكي تشرب. كانت تخاطبني كابنة لها وليس كغريبة وكان صوتها حانيا. أشارت إلى ناحية الجبل حيث يسري جدول ماء صغير. كان المكان جميلا وهادئا والجو لطيفا باردا لأن الجبل كان يوفر ظلا للمكان من أشعة الشمس. مياه الجدول كانت صافية وصوت الخرير وهو يترقرق كان ينفذ إلى الروح ويغسلها من الأحزان. أحسست بطمأنينة وراحة وسلام. نظرت إلى البيت الخشبي وإحساس عميق يتغلغل في نفسي ويخبرني بأن هذا سيكون بيتي الجديد لبقية حياتي. أرعبني هذا الإحساس لوهلة ثم رأيت طفولا وهي تلوح لي بيدها وتركض نحوي فدمعت عيناي. أحببت الفتاة رغم خرسها وأخذت في الاعتناء بها وتحميمها في الجدول وجدل شعرها وتنظيف ملابسها. كانت المرأة تنظر إلي بعيني الرضا وكانت نظرة حمد الذي كان غائبا معظم الوقت عن البيت تمنحني شعورا بالأمان. هل يا ترى...؟ في البداية رفضت التصديق بأن ما كنت شعرت به نحو حمد هو الحب لكن مرور الوقت غيّر لي رأيي. في بعض الأماسي حين يكون حاضرا يجلس ويتحدث مع أمه همسا. كنت متأكدة أنهم يتحدثون بلغة غير العربية. لغة قديمة موغلة في القدم. كنت أجلس مع طفول كثيرا ألاعبها وأسمعها تضحك وتهمهم بصوت مكتوم. في ليلة من الليالي جاءني حمد وأمه بينما كنت أسرح شعر طفول. نظرا إلي بوجهين يشعان سرورا وسعادة وقال لي حمد بلا مقدمات أريدك زوجة لي. أطرقت رأسي ولم أقل شيئا. أخذاني حيث الأب صخر المريض وهمست له الأم العجوز شيئا في أذنه.

وضع يده المتغصنة على رأسي ثم حذت الأم وحمد حذوه. جاءت طفول تركض لتضع هي الأخرى يدها ظانة أننا كنا نلعب لعبة ما. وبدأت مراسم الزواج باللغة الطلسمية إياها. بعدما انتهوا شعرت بسعادة غامرة كما ينبغي أن تشعر العروس. أخذني حمد من يدي إلى زاوية بعيدة في المنزل ومارس حقه كزوج.

تعوّد مسعود الخروج كل فجر كل يوم بعد أن أصبح ينام مبكرا. أصبحت الأصوات تأتيه في نومه أكثر الأحيان فتتداخل الأحلام مع الواقع. الواقع؟ لم يعد الواقع يمثل لمسعود أي شيء. حياته حلم طويل. يعيش حياته داخل عقله وأفكاره. عالم عجيب يحدث فيه كل شيء، لكنه أكثر منطقية ممّا يسميه بقية البشر بالواقع. عالم يسكنه أناس من الماضي. تأتي من عالم آخر. عالم الموتى. هل وجد مسعود الثقب الكوني الذي يصله بالعالم الآخر؟ هل وجد البوابة التي ينفذ منها إلى الماضي؟ يرجع إلى الوراء. يسافر عبر الزمن. الحقيقة. تطارده لعنة الحقيقة. هراء هراء هراء. الحقيقة لا تمنحك الحرية بل تسجنك في قوانينها وتداعياتها. يقوم من نومه. يلقي بنظرة على فتاة العرض المانيكان. يقول لها صباح الخير. يأخذ حماما ويفرش أسنانه ويحلق ذقنه. يذهب إلى الدمية بعد أن كان قد تطيب ويقبلها على خدها ثم يخرج. يجلس أمام البحر لوقت طويل. يتمشى في سوق مطرح. بعضهم يهمس من خلفه انظر إلى المجنون. أصبح هادئا في الفترة الأخيرة. لا يغني بصوت عال ولا يجلس في زاوية السوق ويلقي خطبة عن الفلسفة أو السياسة أو الدين ولا يتكلم مع نفسه أو مع أناس مجهولين غير مرئيين. ينتصف

النهار. يذهب إلى مطعمه المعتاد ويتناول طعام الغداء. يمشي إلى المقهى الجديد الذي أصبح يرتاده بعد موت القبطان وإغلاق قهوته. يجد حسنا جالسا يكتب على ورق. حسن هو الآخر أصبح أكثر هدوءا وأعمق صمتا. في يوم كهذا اليوم جلسا ما يقرب الساعتين من دون أن يتبادلا حرفا واحدا. يطل مسعود على أوراقه. يقرأ كلاما عجيبا. كلامه يجمع الحب والموت في جملة واحدة. كلام يشبه الشعر في موسيقاه ويحاكي الفلسفة في عمقه المعرفي. وجه حسن شاحب. عيناه غائرتان. وبدا أنه شاخ في وقت قصير. يدخن بشراهة. القلم لا يفارق يده. والدموع تأبى الخروج. بركان حزن نائم يهدد بالثوران في أي وقت. المقهى كان واسعا ومؤثث بصورة جيدة. كراسي مريحة. قهوة جيدة. ولوحات كثيرة طغت على الجدارن. أغلبها كان رخيصا وبلا قيمة فنية. استوقفت مسعودا لوحةٌ تمثل بناية قديمة بها نوافذ كبيرة جدا. في لحظات يتراءى لمسعود أشباح تتحرك خلف تلك النوافذ. وفي هذا اليوم استطاع أن يتبين وجه امرأة جميلة، سمراء بعينين زرقاوين وشعر كستنائي. تنظر إليه بعينيها اللتين يسبح فيهما البحر كأنها تتوسل. شفتاها القرمزيتان الممتلئتان تتحركان كأنها تود أن تقول شيئا. يسمع همسا. أوبيد. عبيد. هل تقصدين أبي؟ تشير إلى بطنها وتكرر قولها. أوبيد. أنهى مسعود كوبه الخامس من القهوة السوداء القوية التي يشربها من دون سكر. ينهض ويقف مباشرة تحت اللوحة. اختفت المرأة. وقف مسعود وقتا طويلا ينتظرها أن تظهر مجددا. يلتفت خلفه ويرى حسنا منكبا على أوراقه يكتب وهو يبكي. حين أعاد عيناه حيثما كانتا رأى المرأة أمامه وهي تبتسم بغموض.

بعض الألم يسبب لنا السعادة. نبكي أحيانا حين نكون في فرح شديد. من أنت؟ تفتح مصاريع النافذة ويرى مسعود تجسيدا مثاليا للجمال. كتفاها عاريان وجيدها المكشوف يصل إلى أعلى الصدر. اسمي ناديا سميث. تشير إلى بطنها مرة أخرى. لقد كانت حاملا. لماذا تشير إلي. أنا لا أعرفك. أخوك. قالتها بالفرنسية وفهمها مسعود. مون فرير. ماذا تقصدين؟ في إفريقيا كنت أسكن. ولدت في حضن النعمة فلم أعرف الشقاء. تزوجت بلا حب. زارني أبوك ذات ليلة. ورغم أنه اغتصبني فلقد شعرت بالحب. كنت أتمنى لو كلمني قبل ذلك. لو فتح لي قلبه. ربما كنا سنحب بعضنا البعض. كنت أعيش كالأميرات التي قرأت عنهن في الروايات الفرنسية. لكنني لم أجد الحب الذي وجدته. لماذا احتفظت بالطفل؟ لقد مات زوجي بعد أسبوعين من حادثة الاغتصاب. بعدها سافرت إلى فرنسا لأعيش هناك. ستجد أخاك في قلب باريس. لكنك تقصدين عمي لأني لست عبيد، أنا ابنه. اوبيد. أخوك. باريس. اختفت المرأة ولم تظهر بعد ذلك من جديد.

مريم. لا ترد. إنه منتصف الليل. لماذا لا تردي علي. هل فعلت أنا شيئا يغضبك؟ هذه الليلة الثالثة ولم تنطقي بحرف. مهلا أنه ضوء النهار. يا عم متقلقش. خذ لك نفس على حسابي وإديها شوية حشيش على شاي أحمر يتعدل المزاج. عم جابر. قط أسود يمشي على الجدار يلعق قوائمه الأمامية. مش قولت لك الدنيا دي متسواش حاجة. تأتي هرة بيضاء تمشي بجانب القط الأسود. يا خراشي مالك يابني عايش لوحدك، أنت الظاهر ركبك عفريت. الست عواطف. على سن ورمح.

تلعق الهرة البيضاء الجانب الأيمن من وجه القط الأسود كأنها تقبله. ماذا؟ أنتما الاثنان. وماله ياعم هو سي جابر فيه ايه؟ مش راجل زي كل الرجالة. هل تزوجتها يا عم جابر؟ هو الواحد يفضل وحداني لحد إمته يابني؟ عقبال عندك. تركض الهرة ويتبعها القط. حينما حاول مسعود مغادرة السرير تعثر واصطدم بدمية العرض و انفصل رأسها وسقط على الأرض. عند ذلك صرخ مسعود بأعلى صوته. لا لا لا. ماذا فعلت؟ كلا. سامحيني يا مريم لم أتعمد ذلك. حاول إرجاع الرأس مكانه لكن بدون جدوى. أصر مسعود على ذلك بعصبية حتى آذى نفسه بطرف الرأس الحاد. بعد أن يأس رمى الرأس على الجدار بهستيرية وعاود الصراخ مرة أخرى. اذهبي إذاً لست في حاجة إلى وجودك. اذهبي وتزوجي ذلك الهمجي وعيشي معه كالحيوانات. سوف أتحرر منك. سيتراءى لي جمالك قبحا مقيتا وستغدو طيبة نفسك لي خسة ونذالة. سأتحرر من قبضتك. سأتحرر من حبك. أخذ مسعود يبكي بحرقة متذكرا أباه. ظل يبكي حتى أحس بجوع شديد لم يستطع تجاهله. نهض وغسل وجهه وخرج. شمس صيفية زادت من معاناته. نظر إليها بعين أعماها الغضب ورفع قبضة يده وأطلق نحوها سيلا من الشتائم واللعنات. سمع لهاثا متسارعا. نظر في زقاق ضيق بين البيوت ورآه يعتليها. القط الأسود فوق الهرة البيضاء. عم جابر بجسده المترهل فوق الست عواطف ذات اللحم البض. سينجبون المزيد من المحششين والراقصات. أناس طيبون. يملأون الفراغ الإضافي. المهمشون المهمون. لا تمشي الحياة من دونهم ومع ذلك فهم شيء زائد. لا أحد يحزن عليهم إن ماتوا إلا أهاليهم.

ضروريون وكثيرون كالهواء. وصل إلى المطعم الذي يتناول فيه طعام غدائه. يأتي النادل الهندي بابتسامته المعهودة. يطلب رز أبيض مع السمك المقلي. يسمع اسمه من مكان بعيد. مسعود اسع نحو الحقيقة. أبي. كاد يختنق بعظم بلعه عن طريق الخطأ. أسرع النادل بالماء. رفع رأسه ورأى الهندي وجه أبيه. أين تريديني أن أذهب يا أبي؟. موفي كلام أرباب أنا مافي معلوم. خرج يتهادى إذ كان يلح عليه صوت أبيه. مسعود ابحث عني. كان يسمع اسمه في كل زاوية يأتيه من كل مكان. أصبح مسعود يلتفت بكثرة ويصرخ أبي أبي. يسأل كل من يصادفه إلى أين تريدني أن أذهب؟. أين تريدني أن أذهب؟ إلى أين أرحل؟ مجنون. صبية يركضون وراءه ويرمونه بالحجارة. مجنون. يمشي حتى يظلم الوقت. لا يمشي، يطير. تبتلعه حفرة فضائية سوداء. يصل إلى كوكب مضيء. يد كبيرة لكائن فضائي عديم الملامح على كتفه. لم تزرنا منذ فترة طويلة أيها الشاعر العظيم. ضباب يلف الكوكب وسكانه مضيئون كذلك. تجلس في حضني امرأة فضائية ضخمة الحجم وتقول متى ستتزوجني يا مسعود؟ أحدهم وضع أمامي كأسا كبيرة بها سائل أصفر تعلوها رغوة بيضاء. اشرب منه ثم أرى الإجابة في الكأس. نفس الخارطة التي رأيتها في مرجل الساحرة. الآن أعرف ما علي فعله. أرى وجه أبي وهو يشع سعادة. إني قادم يا أبي.

صحا من نومه ومريم بجوراه. أخذ يحضنها ويقبلها ويشم عطرها الأخاذ. كانت تبتسم ببلاهة. ماذا يا مريم؟ لماذا لا يمكنك المكوث معي؟ أعدك ستجدين السعادة معي. وأعدك أنني لن أسمح لأي مكروه

يحدث لك. وسأحبك مما حصل. ابقي معي يا مريم. ألا ترين الحياة البائسة التي أحياها؟ أنقذيني يا مريم. انتشليني من الشقاء أرجوك. مسعود. أتى الصوت من ناحية النافذة وليس من الوجه الجامد الذي أمامه. قام جالسا وأمعن النظر. مسعود سامحني لكني وجدت السعادة. وجدتيها مع هؤلاء البدائيين. مسعود لا تعش في الماضي. قم ولملم ما تبقى لك من هذه الحياة وأبدأ من جديد. تراءى له طيفها وهو يحمل شيئا ما. ما ذلك الذي تحملين بين ذراعيك. اقترب مسعود أكثر. طفل من هذا. إنه طفلي ولقد سميته مسعود كي يذكرني بك. كلا هذا غير معقول. لماذا فعلت ذلك. لماذا فقدتي الأمل فيّ. لقد وعدتك أني سأنقذك. لماذا يا مريم لماذا؟ بدأ الطيف في التلاشي. لا تعش في الماضي يا مسعود. أتمنى لك السعادة. أمسك مسعود بالرأس ورماه حيث بقية جسد الدمية ثم أطلق صرخة قوية. تهاوى على السرير ثانية وغطى وجهه بكلتا يديه محاولا البكاء. لكن الدموع أبت أن تخرج. مآقيه جافه كالقحط الذي كان يصيب قرية (الصفو) في تلك اللحظة بالذات. أخذ ينوح كحيوان مخنوق. صوت غريب حتى لأذنيه هو. من حسن حظه أنه ليس لديه جيران قريبون منه وإلا لأبلغوا عنه ولكان هو الآن في مصحة عقلية. هل سيزعجه وجوده في مصحة عقلية؟ هل ستكون حياته هناك أكثر صعوبة؟ وهل سيشعر أنه مقيد الحرية كأنه في سجن؟ ولكن إن كان من أمثاله هم من يدخلون تلك المصحات والمستشفيات، ألا يعني ذلك أنه سيجد من يفهمه ويفكر مثله؟ وبالتالي أحد يتحدث معه. هو لا يدري. كما لا يدري متى يكون نائما في حلم

أو صاحيا يستمع لغناء الواقع النشاز. ولا يدري كذلك في أي يوم هو ولا في أي شهر. أصبح كالشجرة تستقبل فصول السنة وأحداث الحياة بصدر رحب وتتأقلم كلما دعت الحاجة إلى ذلك. مسعود... مسعود. لا ليس مجددا. دعوني في حالي. لا أريد سماع المزيد. مسسسعوووود. الصوت يبدو مألوفا لديه. أمي. هون عليك يا بني. علي إكمال القصة. هذا ما يريده أبوك.

تراكمت علينا الأحزان كالجبال المحيطة بنا. في كل مرة يرجع فيها أبوك إلى نهاية كل يوم يكون في حالة أسوأ. وبعد حوالي الخمسة أشهر قضيناها كأننا في جحيم من الذل، أتاني أبوك بوجه طلق فاستبشرت بذلك خيرا. أخبرني هامسا قبل أن نخلد إلى النوم في تلك الليلة بأنه ربما يكون قد عثر على مكان ما نرحل إليه. فلقد تناهى إلى علمه عن قرية يقال لها (الصفو). شيخ قبيلتها معروف عنه كرمه ومساعدته الملهوف والمسكين. إذا فلنرحل غدا صباحا. قلت له ورأيت تعابير وجهه تتغير عند قولي ذلك. علي أن أرافق هذا الكلب السحيلي لبيع ما صنعناه وستكون هذه بالطبع آخر مرة بعدها سنرحل. ولكن لماذا؟ أنت لست مدينا له بشيء. رأيت سحب الحزن تتجمع في عينيه. أعلم ذلك، لكن هذه المرة وعدني بأن يعطيني نظير أتعابي نقدا وبذلك المال سأشتري بعض البضائع وأتاجر بها. لكنه مال حرام. أشاح بوجهه جانبا إذ كانت تلك السحب على وشك أن تهطل دموعا. حين طال صمته سألته. هل تثق به؟ نظر إلي وحاول الابتسام. لقد كان هنالك شهود. تعانقنا وحلمنا بمستقبل أفضل. غادرني أبوك قبل أن تستيقظ الشمس.

بعد أن صليت الفجر ارتأيت أن أكمل نومي. لم أكن قد تصادقت مع نساء تلك القرية إلا مع أرملة تسكن بجوارنا. مات زوجها من ما يقارب العشر سنوات وتعيش وحيدة مع ابن لها الذي أصبح يعولها بعد أن سمحت له سنه بالعمل. كنت أقضي معها جل وقتي حين يغادر أبوك مع السحيلي لبيع بضاعتهم. كانت المرأة طيبة معي، تحادثني بكل حنو وتناديني بابنتها. وكانت المسكينة دائما ما تدعوني لتناول الطعام معها وتأتي بالأكل لنا حين يكون عبيد موجودا. جلست معها وقت الضحى وأخبرتها عن نيتنا بالرحيل. تنهدت المرأة بحزن وقالت انها ستفقد صديقا عزيزا يؤنس وحدتها. فهي الأخرى كان ابنها يغيب كثيرا طلبا للرزق وهي ليست كذلك في وفاق مع معظم نساء القرية. تناولنا الغداء سوية واستأذنتها بالذهاب والاستلقاء قليلا. تمددت على فرشنا الوحيد بعد أن نفضته خوفا من وجود حية أو عقرب مختبئة بين ثناياه. تعب غير مبرر جعلني أغفو بسرعة. تذكرت أمي وكتمت موجة الحزن من أن تطغى. سألت الله أن يغفر لها ويرحمها وأن يسهل علينا ويفتح أبواب الرزق لأبيك وأن تخرج قرة عين لي تنسيني جميع ما مررت به من مشاق وعناء. حلمت بقرية (الصفو) التي حدثني عنا أبوك ورأيتها كأنها قطعة من الجنة. أناسها طيبون. تحفها الخضرة من كل مكان ويجري فيها الماء أنهارا. رأيت أباك يعمل فيها وهو منبسط النفس ورأيتك تكبر ثم تساعده في العمل. وفي المساء نأوي جميعا إلى البيت وتُحدثنا أنت يا ولدي عما حدث لك خلال النهار بصوتك الطفولي البريء. بعد ذلك استغرقت في نوم عميق بلا أحلام. لكن بعد

وقت قصير شعرت كأن السقف انهار علي وأحسست بحركة أسفل رجلي ورائحة كريهة تكتم أنفاسي. أفقت مذعورة وإذا بذلك الحقير السحيلي جاثما فوقي يحاول اغتصابي. أمسكته في اللحظة التي كان يحاول الوصول إلى ثوبي الداخلي. أخذت في الصراخ منادية أباك وأنا أحاول دفع ذلك الحيوان من فوقي. لكن بلا فائدة كان كجذع شجرة لا يتزحزح. لا أعلم ما الذي أتى به باكرا. لأنه في العادة كان يرجع أبوك قبله ثم يأتي هذا السحيلي في المساء وكعادته يكون غارقا في سكره. تعالى صراخي بينما كان هو يجاهد للوصول إلى بغيته. كان يفشل في كل مرة بسبب حالته المخمورة. لم أنطق بأي كلمة سوى اسم أبيك. شعرت بأن الصوت يأتي من مكان آخر وليس من حلقي. بعد صراع لم يدم طويلا، سمعت صوت ارتطام قوي كأنهما ثوران في لحظة الالتحام. طوال ذلك الوقت كنت خائفة على حملي أكثر من أي شيء آخر. زاد ثقله علي فجأة وكف عن الحراك. رأيت عيناه تتسعان كأنهما كانتا على وشك الخروج من محجريهما. شعرت بسائل حار يقطر من مؤخرة رأسه إلى عنقي. تحسست السائل وإذا به دم. دفعته جانبا وإذا به يهوي جثة هامدة. وفوقي رأيت عبيدا واقفا يلهث وعلى وجهه تبدى رعب أكثر منه غضب حاملا في يده عصا غليظة لم تكن إلا جذع شجرة متيبسة. رمى بالعصا جانبا وأخذني من يدي وخرجنا بسرعة من دون أن نتكلم أو نأخذ بقية حاجياتنا.

الفصل الخامس

وكأنها حياة بأكملها تختصرها قصيدة. ملحمة لأناس لن يتذكرهم التاريخ أبدا. عدد لا لزوم له. هل هم حقا غلط. النهاية تشبه البداية. امرأة. شيطان. فاكهة محرمة. إغواء. عصيان. توبة. نزول. ثم قتل. لماذا نستني؟. أنا الغراب. لست بغراب أحد ولم أقتل أحدا. الإنسان عدو نفسه، روحه سجينة جسده. يجب أن تحرر الروح. يجب أن تقتل عدوك الأول. يجب أن تقتل نفسك. مسعود. أطرد الشيطان ولا تستمع لوسوسته. الشيطان لا يوجد يا أبي. نحن الذين اخترعناه كما اخترعنا مفهوم النفس. ليس هنالك غير العقل. مسعود تعال إلي. يجب علي أن أحرر روحي يا أبي أولا. لا تفعلها يا ولدي، إن الله بك رحيم. الله. من هو الله؟. أين هو الله؟. اطرد الشياطين واتبعني. مسعود. مسعود دع الحقيقة تحررك.

لم ينم منذ يومين. لم يأكل. لم يشرب. ولم يستحم. مستلقيا على سرير يحادث نفسه. كلا. كان يحادث الأشباح ويكلم اللاشيء. يغرق في أفكار داخلها أفكار. يسافر في فضاء ذكرياته. يعيش قصص خيالية من صنع عقله. هو سلطان البلاد. يحكم بالعدل. يبطش ويستبد. يأمر بالخير ويبني المساجد والمستشفيات ومعاهد العلوم. يبذر بالمال ويشتري أسلحة تخزن ثم تعطب ويبذخ في قصور مصنوعة من ذهب خالص

تحيط به حاشية عظيمة من نساء وغلمان. يخونه في نهاية الأمر حب الشعب الأعمى له، إذ لا يقوّمونه حين يخطئ. تارة هو قائد الجيوش. يجتاح الشعوب. يقتل من يقتل ويسبي من يسبي. يطعيه الرجال ويلقون بأنفسهم للتهلكة إن أمر بذلك. لكن فترة السلام تقضي عليه ويقتله الملل والوقت. وهو الفيلسوف المفكر ذو الآراء والأفكار التي غيرت عقول الكثيرين. يستقبله الحكام ويكرمونه ويتبعه بقية المفكرين وعظام الكتاب ويقدرونه. تسمى باسمه الشوارع وتقام له النصب والتماثيل. لكن مخالفته لرأي الأغلبية جلب عليه السخط، فلا يلتفت أحد له ولا يلقون له بالا. ويرى نفسه في أدغال وحشية تحيط به الأشجار وتحاصره الحيوانات المفترسة. فهو رحالة مغوار. مكتشف البلدان والحضارات. يبحث عن الكنوز المخبأة لا لشيء إلا لمتعة البحث والتحدي والمغامرة. لا تعوقه برودة الصقيع ولا حرارة الصحاري ولا وعورة الجبال. وفي نهاية الأمر وبعد أن طاف الأرض وزار كل بقعة فيها اكتشف أنه فقد معنى الوطن في قلبه. مسعود قم. فتح عينيه. يشتم رائحة كريهة. إنها راحة جسده. فمه قاحل من العطش. فتح صنبور الماء وشرب من المياه التي كانت تغسله. ألقى بكسرة خبز أصابها العفن في جوفه. نظر حوله وأحس بكره شديد لهذا الحجر الذي يسميه بيته. رجع إلى غرفته ورأى دمية الفتاة بلا رأس ثم قرر حرق المكان.

أعطى عامل محطة الوقود عبوة فارغة وعملة نقدية وقال له أملأها. أخذ العبوة الممتلئة بالنزين من غير أن ينتظر بقية نقوده وعاد يتهادى إلى بيته وهو يصرخ أبي إني قادم انتظرني. اشترى بعض أعواد الثقاب

ومرة أخرى أعطى البائع عملة كبيرة ولم ينتظر بقية المال. لكن البائع أخذ يناديه وركض خلفه حين لم يجب مسعود ووضع النقود في جيبه. نظر إليه مسعود وصفعه بقوة. استغرب البائع ذلك لكنه لم يفعل شيئا، إذ كان على علم بجنونه. لم يشعل مسعود البيت دفعة واحدة وإنما على مراحل. غرفة بغرفة. بدأ بغرفة نومه فالمطبخ ثم الحمام. كان يترنم بأغاني فاحشة وهو يقوم بعمله ويطلق شتائم لاذعة في وجه لا أحد. خرج من البيت وأخذ يراقب النيران وهي تلتهمه. التمّ جمع غفير في غضون دقائق قليلة حول البيت الملتهب وكان مسعود من بينهم من غير أن يعلم أحد أنه صاحب البيت. تصايح بعضهم طالبا الماء والبعض نادى بالاتصال بالشرطة وبقوات الإطفاء. في أثناء ذلك كان مسعود يضحك بهستيرية وهو يلعن الدنيا ومن عليها. لم يلتفت إليه أحد ثم انسل وبدأ رحلة عودته. رأى وجه أبيه بين قمم الجبال البعيدة وابتسم بحزن.

سلك الطريق إياه الذي يقود نحو القرية مهتديا بشعوره الداخلي. امشِ يا جسدي والروح تتبعك. احملها فوق ظهرك فهي كسيحة مكسورة الجناحين. في نهاية المدينة ألفى صديقه حسنا جالسا على صخرة وهو يحادث الجبل. وقف أمامه ونظر في عينيه. كان حسن يشبه مسعودا كثيرا. نفس الطول والحجم. نفس العينين والوجه. نفس الحزن. نفس الشقاء. نفس الوحدة. قام حسن واقفا واحتضن مسعودا. ومن غير أن يقولا شيئا تابعا المسير. مشيا على الرصيف بجانب الشارع العام. بعد ساعة من المشي تحت الشمس الحارقة، دخلا محلا واشتريا بعض الماء والخبز وعلبة سجائر. لقد فقدت كل شيء. قال حسن بعد ساعة

أخرى من المسير. ربما سأجد قدري حين تعثر على قدرك. أضاف بلا حزن. أنا وأنت واحد يا حسن. رفعا رأسيهما في وقت واحد حين سمعا هدير طائرة تقلع في الجانب الآخر. توقف مسعود وحدق في برج مراقبة الطائرات. همس. فرنسا. باريس. نبيذ. سالوميه. أخي. عمي. جاءه صوت أبيه من الجانب الآخر. الحقيقة. تعال إلي يا ولدي. لمس حسن كتف مسعود وأشار بيده ناحية الصوت. عند انتصاف النهار اختفت الشمس وكانا قد وصلا إلى مفترق طرق يتوسطه برج كبير به ساعة. جلسا تحت شجرة بجانب الطريق وأتيا على بقية الماء والخبز وشرعا بالتدخين.

فتح حسن باب سيارة وقال اركب إن الطريق طويلة. ركب مسعود غير مقتنع. في أثناء ذلك هطل مطر غزير من شدته كان يسمع وقع ارتطامه بسقف السيارة كأن حجارة كانت ترمى عليها. بعد مرور قرابة النصف ساعة من السير البطيء توقفت سيارة الأجرة لسوء حالة الطقس. تبادل الرفيقان النظر ثم أخرج مسعود بعض النقود وأعطاها للسائق الذي صرخ بأعلى صوته بينما كانا يخرجان من السيارة. الوادي.. سوف يهبط بعد قليل. اخترقا أستار المطر الكثيفة كأنهما يخوضان بحرا عاتي الأمواج. جلسا تحت صخرة ريثما ينتهي المطر. لكن جحافل النوم نزلت عليهما ولا مفر. ناما في الوقت نفسه.

دخل مسعود فيلا كبيرة لم يرها من قبل. استقبلته خادمة فلبينية وهي تبكي بمرارة. شد انتباهه انتفاخ بطنها. كان ينتظره شيخ بدا عليه الوقار بلحية وصلت إلى منتصف صدره وامرأة تماثله في العمر وكانت هي الأخرى تبكي. شرفت حضرتك يا عاطل يا عديم المروءة. من

أنت أيها الرجل أنا لا أعرفك؟ حاول مسعود قول ذلك ولكن الرجل لم يكن يسمعه لسبب ما. أكمل الرجل صراخه ملقيا المزيد من العبارات المهينة. التفت مسعود نحو المرأة مستنجدا بها. ما الأمر يا سيدتي لماذا يصرخ هذا الرجل ومن أنتم وأين أبي؟ كأن المرأة سمعته فقالت لماذا فعلتها يا بني لماذا؟ لقد جلبت علينا العار والفضيحة. أحس مسعود بدوار من شدة اضطرابه وحيرته. قرر الرحيل من بيت المجانين هذا لكنه لم يستطع التحرك كأن رجلاه كانتا مسمرتين بالأرض. ما بك لا ترد أصابك الخرس فجأة. لكني حاولت التكلم وأنتم لا تسمعون. نعم عليك أنت تخجل أيها السافل المنحط. ادفن رأسك في الأرض كما مرغت وجهي في التراب. كم مرة عرضت عليك أن أزوجك وأنت ترفض والآن تحمل عواقبك؟ ظهرت الخادمة الفليبينة من الباب وهي لا تزال غارقة في لجة دموعها وفهم مسعود الأمر. أنا لم ألمسها. لا أعرفها. لم أرها من قبل. تغيب عنها الشهور والأيام لا تسأل عن والديك أيها العاق وحين تأتي، تأتي لترتكب الفاحشة في بيتي. لا أريد أن أراك مرة أخرى... وضع الشيخ يده على صدره ووجهه بدأ في الأحمرار. ما بك يا أبا حسن؟ آه قلبي، لقد قضى علي ابنك. إني أحملك موتي أيها المنحط. لا إله إلا الله محمدا... تدلى رأسه وغاص في حضن المرأة التي هرعت إليه. اخرج من بيتي. لا أريد أن أراك ثانية. لن يبقى في بيتي قاتل لأبيه... اخرج...

صحا مسعود من نومه والمطر كان قد غادر. تسللت أشعة الشمس من بين غيوم بيضاء. التفت نحو حسن الذي كان لا يزال نائما وأحس

نحوه بعطف وأسى. كان حسن يهذي في منامه ويقول أبي.. مريم.. إني آت.. الحقيقة. لقد تبادلا الأحلام ليخبر كل واحد قصة الآخر. حسن. همس مسعود. لم يكن يوقظه وإنما طفت الأحزان من روحه ونضحت من فمه. قام حسن من نومه ونظر في وجه مسعود طويلا ثم تعانق الصديقان وهما يبكيان. لا قدر لي يا مسعود. لم يبق لدي ما أحيا لأجله. لقد سرقوا أحلامي. سجنوا عقلي ووضعوا أفكاري في الأغلال. حكومة تكره من يتكلم بالحقيقة ولا تريد أن ترى أفرادها يفكرون بحرية. ومجتمع يعادي التجديد والانفتاح، تغله هو الآخر قيود الماضي والعادات والتقاليد. لا يرون من الدين إلا قشور أحكامه الفقهية. إلى أين أذهب. لم يعد لي شيء. لقد مات قدري. بعد أن قال حسن ذلك انغمس في عطاس طويل. أصبحت عيناه حمراوتين. بدا أنه تعرض لنزلة برد بسبب تعرضه للمطر. أراد مسعود أن يعطي رفيقه شيئا ما يقيه من البرد كي لا تصيبه الحمى وهم في هذا الخلاء. لكن لم يكن عليه إلا قميصه وهو بدوره كان لا يشعر أنه على ما يرام. أكملا مسيرهما في ذلك البر الشاسع ولكنهما حافظا على مسافة قريبة من الشارع التي تمر فيه السيارات. مسعود..أسرع إني أنتظرك.

كان حسن يمشي بصعوبة وهو يرتجف بشدة. يتوقف كثيرا ويجلس على الأرض من شدة الأعياء. إلى أن أسنده مسعود وهو يشعر بحرارة هائلة تنبعث منه. يسعل ويعطس في الوقت نفسه. سقط حسن أرضا وأخذ يتقيأ. في الأفق تراءى لمسعود محطة تعبئة وقود. انهض يا حسن إني أرى مكان يمكننا شرب شايا ساخنا فيه. قم أرجوك لا تستسلم

للمرض. رفع حسن رأسه وهو يبتسم ثم قال يسعدني أن أموت وأنت معي. لا تقلق يا صديقي لقد رأيت كيف سأموت في المنام. والآن لقد حان الوقت. اذهب والتقي بأبيك إنه ينتظرك. نظر مسعود في وجه صاحبه في جزع. استلقى حسن بكامله على الأرض واضعا يديه تحت رأسه كأنه سينام. قم يا حسن سيفيدك بعض الشاي الساخن. لكن حسنا كان في قبضة المرض المميتة لا يستطيع الفكاك منها. لم يرد حسن و تكلم جسده وهو ينتفض. في هذه الحالة انتظرني سآتيك ببعض الماء والدواء. حث مسعود خطاه كي يسعف صديقه. وصل المحطة وهو يلهث. من حسن حظه وجد بعض الأوراق النقدية في جيبه. دخل المحل الموجود في المحطة واشترى بعض الإسبرين وقارورة ماء وكوب شاي. عاد راكضا وهو يبكي. انسكب نصف محتويات الكوب ولم يشعر مسعود بحرارة الشاي. تضحك السماء وتسخر منه والأرض تهلل بغباء. ماذا تريدون مني ارحلوا كلكم؟ سمع همسا. لقد طارت روح صديقك.. أكمل مسيرك. لم يكن حسن يرتجف لكن الحرارة مازالت تشع كالسابق. انهض حسن لقد أتيت... سقط جميع محتويات يده أرضا. ماتت الصداقة كما مات الحب من قبل. رحلت السعادة والحزن باق. اختلطت دموعه بالمطر الذي بدأ في الهطول ثانية. نظر مسعود في يديه الداميتين بعد أن أنهى من حفر قبر لصاحبه. كان القبر صغيرا وضيقا مما اضطر مسعود إلى دفن الجثه في وضع القرفصه. لم يدر ماذا يقول في ذلك الموقف، لم يخطر على باله التفوه بأي دعاء أو تلاوة أية صلاة. بعد تفكير لم يدم طويلا أخذ مسعود يترنم بأبيات شعر لا يتذكر

من قائلها. وضع علبة السجائر داخل القبر ثم حث عليه بالتراب. قام مسعود بعد أن رطب قبر صديقه حسن بدموعه ونظر ناحية صوت أبيه ثم أكمل مسيره.

الليل كان أزرقا ومكوناته تلوح كأنها ديكور مسرح سلط عليها ضوء خافت. عمره ملايين السنين هذا الكون، يحمل ملايين الأرواح وهو بلا روح. ترى من خالقه؟ رأى شعلة نار من بعيد. سار إليها مسعود عله يجد عندها دفئا. كان مخلوقا مخيفا أشعث الشعر يحرس النار وتحته طفل بدا خائفا. لو استطاع مسعود أن ينظر في المرآة لاستطاع أن يرى أن حالته وهيئته لم تكن تختلف كثيرا عن هذا الوحش، عيناه بلون الغروب ووجهه الأسود زاده الشقاء غورا، ملابسه غبراء عليها آثار دم. تشبث الطفل بأذيال الوحش والذعر يتملكه، لقد كان خائفا من مسعود. الوحش لم يأتِ بأية حركة ونظراته الحذرة لم تكن تفارق مسعودا. أشار مسعود للنار يريد إعلام الوحش بأنه يرغب في التقرب منها. رفع الوحش يده كأنما يدفع مسعودا بعيدا وهو يضم إليه الطفل. اذهب من هنا. قال الوحش ومسعود في دهشة لمقدرة الوحش على الكلام. إذ كان يظن أن قاطني الجبال لا يتكلمون لغته. كان الرجل الجبلي خائفا على الصبي الصغير في حقيقة الأمر. قال مسعود: لا تخف كل ما أريده هو الجلوس بقرب النار. تخلى الرجل عن وضعه الهجومي لكنه ظل يراقب مسعودا بحذر. أعادت النار شيئا من النشاط إلى مسعود الذي أحس أن كل عظامه قد انقلبت ضده بسبب الألم. رفع رأسه ورأى النجوم ترقص مع بعضها البعض في احتفال ضوئي لا ينتهي. جلس الرجل وصبيه في

الجهة المقابلة لمسعود. عندما تقابلت نظرات مسعود مع الجبلي، أخرج الرجل بندقية صيد كانت تختبىء في الظلام كأنه يحذر مسعود من عمل أي شيء طائش. سمع مسعود حديث الرجل مع صبيه الهامس وتناهى إلى مسمعه اسم مريم. بعد أن انطفأت النار خلد الجميع إلى النوم. نام الألم مع مسعود لكن شيئا بداخله بقي صاحيا. إنه الحزن. حزن مختلف عن السابق. حزن جميل صاف وشفاف. الحزن يجلب الحكمة إذ يدوم، والسعادة تجلب الشقاء حيث سريعا ما تنتهي. أحس مسعود بأن أحدا يراقبه. فتح عينيه ورأى الصبي واقفا فوق رأسه. أريد الذهاب للتبول وأبي نائم لا يريد النهوض. فهم مسعود أن عليه أن يرافق الصبي إلى مكان مناسب ليقضي حاجته. قام مسعود وأخذ الصبي من يده. مشوا قليلا وصادفوا ما يشبه تجمع ترابي كأنه صخرة طويلة. اذهب خلف هذه الصخرة سأنتظرك هنا. قال مسعود وهو يشعر بألفة ومحبة حينما نظر في وجه الطفل البريء. لا أستطيع.. لا أستطيع. قال الصبي بصوت عال تقريبا. لماذا؟ لا تخف سأبقى هنا، لن أذهب إلى أي مكان. لا، أنا لست خائفا، لكن هذا قبر أمي لقد ماتت صباح اليوم. بعد أن انتهى أرجعه مسعود إلى حيث أبيه وكله عجب من هذا الصبي. أمه ماتت منذ سويعات قليله وهو يبدو هادئا رابط الجأش كرجل بالغ. غريبون فعلا قوم الجبال هؤلاء. أودعه حضن أبيه وقبل أن يرجع مسعود إلى منامه سأل الصبي عن اسمه. اسمي مسعود قال الصبي وغاص في صدر أبيه نائما.

في الساعة الأخيرة من الليل قام مسعود. لكنه لم يغادر مكانه حتى

لاحت تباشير الفجر في الأفق. خط رفيع من الضوء فصل السماء عن الأرض. ألقى مسعود نظرة أخيرة على الصبي ثم نظرة أخرى على القبر ثم تابع المشي. البر الشاسع الأشد هدوءا من القبور أخرست الأصوات في رأس مسعود. أحس مسعود بالضياع فكل هذه الجبال من حوله تتشابه. حتى صوت أبيه قد اختفى. أخذ مسعود يمشي بلا هدى والشعور بالظمأ والجوع يتعاظم في داخله. جدول صغير تكفل بموضوع العطش لكن معدته الخاوية لم تكن لتتركه في شأنه. جلس قليلا ليرتاح قرب الماء. خيل له أنه يرى وجها جميلا بين السحاب. وجها قد سبق له رؤيته. لقد كانت الأميرة الشمالية. أليسون. رحبت به بابتسامتها العذبة. أشارت له بأن يقوم ثم همست من بعيد. سأرشدك لمكان تجد فيه بعض الطعام. صارع ضعفه وتبعها حيث تحولت إلى سحابة بيضاء. شاهد خياما وسيارتين من الدفع الرباعي. لم تكن خيام بدو لأنها كانت صغيرة وملونة ولم تكن مصنوعة من وبر الأبل ولم تكن هنالك أية إبل أو مواشي أيضا. السيارات تدل على أنهم مجموعة من هواة التخييم. اقترب مسعود في حذر لأن هيئته غير المتحضرة ستلقي الروع في قلب من يراه. رأى مجموعة صغيرة من سحب الدخان ترتفع خلف إحدى الخيام التي كانت خضراء اللون. اتجه مسعود إليها وهو ينظر في السماء بحثا عن مرشدته التي اختفت. عثر على فتاة تشبه أليسون لكنها لم تكن شقراء بل ذات شعر أسود وكانت تدخن سيجارة. شهقت الفتاة في رعب حين رأت مسعود ووضعت يدها على صدرها. لكن حين رأت أن مسعود نفسه قد تراجع عادت لطبيعتها وسألته بالإنجليزية عن اسمه وماذا

يريد؟. أجابها مسعود عن ذلك في بكلمات غير مترابطة. مسعود... فوود...درينك. بدت الدهشة على وجه الفتاة إذ كانت تظنه من البدو أو من سكان الجبال الذين حتى العربية لا يتقنونها. أكملت تدخين سيجارتها بكل استمتاع وكأنها نسيت وجود مسعود. رمت السيجارة بلا مبالاة من دون أن تطفئها وأشارت لمسعود أن يتبعها. دخلت إحدى الخيام التي كان نائم فيها عملاق أغبر الوجه. تكلمت الفتاة مع العملاق الذي كان شبه نائم لكنه قام بسرعة ووقف شبه عار أمام مسعود. كان مفتول العضلات وهائل الطول. حدق في مسعود بنظرات كلها اشمئزاز واحتقار. خرجت الفتاة وأعطت مسعود شطيرة وقنينة ماء. من رائحتها بدت الشطيرة أنها بائتة. حين رأت الفتاة عدم الرضى الذي تبدى على وجه مسعود قالت نو بورك..جست تركي إن تشيز. ضم العملاق ذراعيه كأنهما جناحان وقلد صوت الدجاجة. بق بقيق بق بق بقيق. لكزته الفتاة وقالت له أن مسعود يفهم الإنجليزية. لقد كانت تعتقد الفتاة أن مسعودا كان يظن أن الشطيرة تحتوي على لحم خنزير. شكرهما مسعود وغادر بسرعة إذ سمع أحدا يناديه من قمة أحد الجبال.

هذا هو الوادي. أبي أين أنت؟ أعرف هذا الماء. إنه يجري في دمائي. يتجه إلى أبعد نقطة من الجدول ويرفع حجرا كبيرا وأخذ يحفر. سيساعدني هذا في إيجادك يا أبي. اصطدمت أصابعه بجسم خشبي. انتشل كيسا صوفيا وأخرج قناعا خشبيا كبيرا. غسل يديه أولا. كلا يجب علي أن أكون في أفضل حلة ممكنة حين ألقاك يا أبي. ثم غطس بأكمله في الماء. دخل القرية غير آبه بالنظرات التي تلاحقه. ماذا يريدون مني

هؤلاء، عبيد لعادات من صنعهم. لقد سبقهم قطار الزمن ولات تعويض. مر من بيت الشيخ أبي صالح وبصق في الباب الحديدي. سحقا لبوابة الجحيم تلك. لا تحوي غير الشياطين. يكرهون الليل ولونه الأسود في حين أن ضوء النهار الأبيض يلعن وجودهم. حين سمع صوت الآذان وضع يديه حول أذنيه والقناع تحت إبطه وأسرع راكضا. سمع صوتا يناديه باسمه لكنه لم يتوقف إذ لم يكن صوت أبيه. توقف في مزرعة التاجر آدم، التي أصبحت أنقاضا الآن، وجلس عند البئر كي يلتقط أنفاسه. أمي. الظلام القادم من الكوخ المهجور بعث أنينا. أمي. لا تهدر حياتك يا بني. عد إلى صوابك. لكن أبي ينادني. يجب أن أعثر عليه. أبوك مات. مات. الشيطان من يناديك الآن. كلا لم يمت. إني ذاهب إليه الآن. لم تعد لي حياة لأحياها يا أمي. يجب علي أن أذهب. لا أستطيع الرجوع. فالأصوات لن تتركني في حالي. أنا أحبك يا أمي.

ضع القناع الآن. تحول الظلام إلى نور. المطهر. من تحتي النيران الهائجة تزأر. جوع أبدي للحم البشري. ملعونون أنتم إيها البشر منذ خلقكم. أصوات الخاطئين العصاة والزناة والسارقين والمنافقين تتصاعد كأنها أبخرة مشعوذة سوداء فاسقة ملحدة. أطفال تأكلهم النيران يبكون يطلبون أمهم. ما ذنب هؤلاء. أكمل المسير فالطريق أمامك طويل. هل سيكون مصيري مثل مصيرهم. أرى رجالا ملتحين ما بالهم. النفاق النفاق. مهلك الأمم. وليس البذخ والترف. إنما النفاق والجهل. لا تنظر للأسفل وإلا ستسقط. الطريق بدأت تضيق. اغلق عينيك. ثق بي. خفت وهج النيران لم أعد أشعر بالحرارة. قبل أن أغادر ذلك الطريق المرعب

رأيت رجلا يحمل بندقية به لحية كبيرة ويلبس ملابس عسكرية. تحت قدميه ركع جندي آخر أحمر الوجه وضع يديه خلف رأسه ويبكي بكلمات غير مفهومة. كانت فوهة الجندي الملتحي مصوبة في رأس الجندي الراكع الذي بدا أن لا حول له ولا قوة وكان يتوسل للإبقاء على حياته. كان الجندي الملتحي يكرر هل أقتله أم آخذه أسيرا؟. هل أقتله أم آخذه أسيرا؟. تابع مسعود مشيه ثم سمع صوتا مألوفا لديه قادما من المجهول. لا تقتله يا سعيّد. أبلغه مأمنه وخبره عن الإسلام لعل الله يهديه. المطوع خميس. أين أنت يا حبيبي. لكن مسعود يعلم أن عليه متابعة المسير. حين ابتعد مسعود سمع لآخر مرة هل أقتله أم لا؟. ثم دوت طلقة نارية في الأبدية.

أمامه بوابة خشبية كبيرة. بوابة الجحيم أم الفردوس. غطت البوابة أوراق كثيرة وأغصان. ادخل مسعود، لا تخف. سمع صوت أبيه قادما من خلف البوابة. ستؤذيك بعض الأغصان وتجرحك. تضحية بشرية. الصلب فكرة آلهية. سيدنا المسيح ضحى بنفسه. لكنه شبّه لهم. ادخل. لم تعد تخيفني الآلام. لقد تعلمت أن أتعايش معها. اجتاز البوابه. الجروح هي أوسمة. تذكرك بالأوقات الصعبة التي مررت بها. تعينك على المواصلة. علي أن أواصل. اجتاز البوابة لكن شيئا من النيران قد علق بروحه. هل الدم قابل للاشتعال. ظلام من جديد. أبدية أخرى. المزيد من الجروح. المزيد من النيران الداخلية. المزيد من الألم. هل هو عالم سفلي؟ لا أحد هنا. كهف من الأحزان. لكن الأحزان تطير. فهو يشعر بها تجتاح روحه. ألقى بالقناع أرضا. أصبح يرى بكل وضوح نورا

قويا آتيا من فوق الكهف. هل توجد الجنة في الأعلى؟ كيف سأصل إليها وأنا في العالم السفلي؟ لكني لم آتِ هنا من أجل الجنة. مسعود أنا هنا. أبي. أين أنت؟ لماذا أنت مستلقٍ على الأرض هكذا؟ لقد قتلني خليل لكن لم يكن يقصد. الشيطان. سأقتله. دعني أذهب وأنتقم لك يا أبي. لا يا بني. هو لم يتعمد. اجلس هاهنا جنبي. إني أشعر بالوحدة يا ولدي. أبي. أبي. لا تبك يا ولدي. لا تبك .فنحن في رحيل دائم. نحن في رحيل. لماذا يا أبي؟ الكل هجرني. الكل تركني بمفردي. كلهم تخلوا عني. لا تلمهم فالقدر أقوى منهم. يا بني ما بأيدينا خلقنا تعساء. لن تعرف الألم مجددا هنا. اِبقَ. دعنا نغني يا ولدي فالغناء سر الوجود. استلقى مسعود هو الآخر. كلنا في رحيل. أبي. احتضن مسعود عظام أبيه. أبي أنت تبتسم. نعم فحبيبي مسعود هنا فلِمَ لا أبتسم. قبّل مسعود وجه أبيه. جمجمته. كلنا في رحيل. كلنا في رحيل...

إصداراتنا 2013

م	الكتاب	نوعه	المؤلف
1	سرديات عمانية	نقد	محمد بن سيف الرحبي
2	على حواف الشعر	نصوص	محمدبن سيف الرحبي
3	خطى وأمكنة	رحلات	عبدالرزاق الربيعي
4	رحلة أبو زيد العماني (ط2)	رواية	محمد بن سيف الرحبي
5	حقول الكلام	مقالات	مسعود الحمداني
6	هذا الذئب يعرفني	نصوص	خالد بن علي المعمري
7	رحيق النار	نصوص	زهران القاسمي
8	الطبيعة في الرواية العمانية	دراسات	منى بنت حبراس السليمية
9	إيضاح الطريقة للفنون العريقة (فن المسبع)	شعر	خميس بن جمعة المويتي
10	إيضاح الطريقة للفنون العريقة (التغرود)	شعر	خميس بن جمعة المويتي
11	قديس يحلق بعيدا	شعر مترجم	الشاعر الكوري: تشو أهيون ترجمة:أشرف أبو اليزيد
12	مظلة الحب والضحك	نصوص	بشرى خلفان
13	الديك	رواية	سالم الجابري
14	رفرفة (ط2)	قصص	بشرى خلفان
15	نوارس الحكايات	قصص	محمد بن سيف الرحبي
16	حدود المشاوير	شعر شعبي	محمد الراسبي
17	إشكاليات الشعر في المسرح الشعري	دراسات	رقية بنت سيف البريدية
18	القافر	رواية	د. خالد الكندي
19	أدب الرحلات العمانية	دراسات	مريم الغافرية
20	مراثي زهرة الليمون	شعر	سالم بن عبد الله الحميدي
21	على سطحنا طائر غريب	مسرحيات	عبد الرزاق الربيعي
22	الدين والدولة	دراسات	خالد محمد عبده

تابع إصداراتنا

م	الكتاب	نوعه	المؤلف
23	ورد اليتامى	قصص	سالم بن عبد الله الحميدي
24	روائح الفقراء	قصص	سالم بن عبد الله الحميدي
25	التشكيل الفني	دراسات	د.أحمد حالو
26	الشخصية الروائية	دراسات	كاملة بنت سيف الرحبي
27	يوم على تخوم الربع الخالي	قصص	خليفة العبري
28	فيض الإحساس	شعر	حبراس بن شبيط السمائلي
29	مرارة الذيب	رواية	د. خالد بن سليمان الكندي
30	حكايات عمانية	قصص	-
31	غياب على شرود الظل	نصوص	مريم السيابية
32	حياة بين زمنين	رواية	سالم الجابري
33	بيت وحيد بصحراء	قصص	يحيى سلام المنذري
34	أبجد هوز قواعد موسيقية	موسيقى	فكرة والحان د.ريهام توفيق /أشعار: نورة البادي/ توزيع: أحمد الجوادي
35	SALMA'S STORY	Biography	Mohammed bin Saif Alrahbi
36	LE DETECTIVE	Novel	Khalid Ben Soulayman AL-KINDI
37	فضاء حر	مقالات	سالم بن عبدالله الحميدي
38	علبة مسامير	مقالات	هلال البادي
39	ماحدث بعد ذلك	مسرح	هلال البادي
40	خطاوي الطير	رحلات	خلفان الزيدي
41	في الكتابة وآلأم	حوارات	منير عتيبه
42	سفر هو حتى مطلع الشمس	قصص	سمير العريمي
43	تقطعات منسية	نصوص	هاجر المحفوظي
44	رائحة لم ينتبه لها أحد	قصص	سعيد الحاتمي

إصداراتنا بالتعاون مع الجمعية العمانية للكتاب والأدباء

1	لعيني ديالى	نصوص	محمد بن حبيب الرحبي
2	الخيمه ومفاتيح الحظ	مسرح	عزة القصابية
3	لآلئ عربية	مقالات	ناصر حمود الحسني
4	بين قدرين	رواية	رأفت ساره
5	المشهد القصصي في الأردن	دراسات ونصوص	مجموعة كتاب أردنيين
6	الأيام الثقافية العمانية في الأردن	فعاليات	جمع وإعداد: أزهار أحمد
7	خناتة بنونة في المرايا المنعكسة	مقالات	مجموعة كتاب
8	تحت المطر	مقالات	خالد علي المعمري

إصداراتنا بالتعاون مع البرنامج الوطني لدعم الكتاب بالنادي الثقافي

1	النباتات البرية في سلطنة عمان	علوم	يحيى بن سعيد الفطيسي
2	ابن عربي عندما يكون الحب حائرا	دراسات	عثمان بن موسى السعدي
3	نظرية قدامة	دراسات	قاسم بن سالم آل ثاني
4	القرائن في التراث النحوي	دراسات	د. خالد بن سليمان الكندي
5	دولاب محمد	للأطفال	سميرة الخروصي

إصداراتنا بالتعاون مع الجمعية العمانية للمسرح

1	الآخر في المسرح العماني	دراسة	د. كاملة بنت الوليد الهنائية د. سعيد بن محمد السيابي

إصداراتنا 2014

م	الكتاب	نوعه	المؤلف
1	التباسات	نصوص	الخطّاب المزروعي
2	ضجر الخسارات	شعر	رشا أحمد
3	عين قطر	قصص	سمير العريمي
4	أم المشكلات	دراسات	د. محمود خالص
5	قطوف الشجرة الطيبة	شعر	سعيدة خاطر الفارسي
6	مراجيح ملونة	قصص أطفال	أزهار أحمد
7	الأيادي الملونة	قصص أطفال	عائشه عبدالله الحارثية
8	من الفرضاني .. يوميات رحلة إلى زنجبار وممباسا والبر الإفريقي	رحلات	محمد المحروقي
9	من زنجبار إلى دار السلام	دراسات	سعود بن علي الحارثي
10	الصبي والبحر	قصص أطفال	أزهار أحمد
11	الجوهرة والقبطان	رواية	زوينة الكلباني
12	سكنة الأحرف	شعر	سالم بن حمدان الحجري
13	غواية المجهول: عمان في الأدب الإنجليزي	دراسات	هلال الحجري
14	توظيف مسرح العرائس في المسرح المدرسي بسلطنة عمان	دراسات	علي بن صالح العلوي
15	الرائدة أ. د. فاطمة سالم	دراسات	د. آسية بنت ناصر البوعلي
16	كائنات الظهيرة	شعر	عوض اللويهي
17	الشويرة	رواية	محمد سيف الرحبي

طبع بمطابع مؤسسة عمان للصحافة والنشر والإعلان